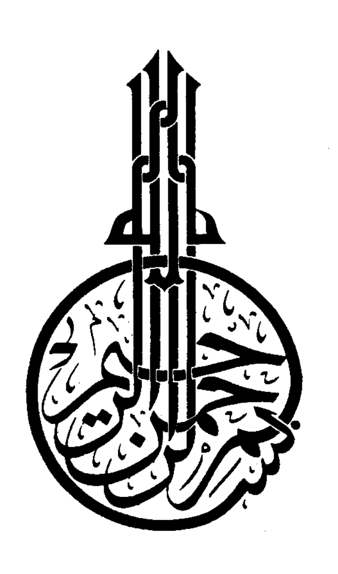
من كنوز القرآن
١١

وعود القرآن

بالتمكين للإسلام

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق




وعود القرآن
بالتمكين للإسلام

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أَعمالِنا، مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هاديَ له، وأَشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أوضاع المسلمين في هذا الزمانِ عجيبةٌ غريبة، وهم يَعيشونَ حياةً خاصّةً شاذّةً، لا يُقاسُ عليها، ولا تُقاسُ على غيرِها، ولم يَسبقْ أنْ عاشَها المسلمون السابقون في مختلفِ فتراتِ تاريخِهم.

ابتعدَ كثيرٌ من المسلمينَ عن إسلامهم، بنِسَبٍ متفاوتة، وخرجَ بعضُهم عن الإسلام خروجاً صريحاً، وعاشَ بعضُهم (ازدواجية) عجيبة، بين الفكرِ والسلوك، والإيمانِ والعمل، تناقضوا فيها بين ما هو في تصوُّراتِهم وأفكارِهم، وبين ما هو في تصرُّفاتِهم وأعمالِهم، وانطبقَ عليهم في هذا الجانبِ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

ونتجَ عن هذه الحالةِ المَرَضيَّةِ ظهورُ أجيالٍ جديدةٍ من أبناءِ المسلمين، ليس لها من الإسلام إلاّ الأسماءُ التي تسمّوا بها، وإلاّ بعضُ المشاعرِ والعواطفِ القلبية، وبعضُ الأفكارِ العقلية، وبعضُ الممارساتِ الإسلاميةِ في المناسبات.

وهذا لا ينفي وُجودَ أفرادٍ مؤمنين صالحين، رجالاً ونساءً، في كلِّ قطر أو مدينةٍ أو بلدة من بلادِ المسلمين، ومختلفِ بلادِ العالم. ومن وجودِ دعواتٍ وحركاتٍ وتنظيماتٍ إسلامية هنا وهناك، تعملُ على توعيةِ المسلمين وتبصيرهم، وإعادتِهم إلى دينِهم.. وأحدثَتْ هذه الحركاتُ (صحوةً) إسلاميةً مباركة، تمثَّلت في عدّة ظواهرَ ومظاهر، علميةٍ وعملية، في بلاد المسلمين..

لكنَّ أنصارَ هذه الصحوة ما زالوا قلائلَ في مجتمعاتِهم، وما زالوا (غرباء) بين أهليهم، يعيشون غُربتهم القاسية بصبرٍ وثباتٍ، واحتسابٍ وتوكّلٍ على الله!.

ونجحَ الأعداءُ في هذا الزمان، في إبعادِ الإسلامِ عن الوجودِ الفعليِّ الحيِّ المؤثِّرِ في حياةِ المسلمين، وإقصائه عن مجتمعاتِهم وتشريعاتِهم، وحياتِهم العامة؛ السياسيةِ والاجتماعيةِ، والاقتصاديةِ والأخلاقيةِ، والتربويةِ والإعلامية، والفنيةِ والداخليةِ والخارجية. وكانت البدايةُ في القضاءِ على الخلافةِ في الربعِ الأولِ من القرنِ العشرين، ثم توالت المشكلاتُ المتلاحقةُ على المسلمين.

وصاحبَ ابتعادُ كثيرٍ من المسلمين عن إسلامهم (حروباً) عالمية، شنَّها أعداءُ الأمةِ على إسلامِها، منذُ مطلعِ القرنِ العشرين المنصرم، حيثُ قامَ الأعداءُ الإنكليزُ والفرنسيون، والإسبانُ والطِّليان، والهولنديون والبلجيكيون، والروس والصينيون، في احتلالِ واستعمارِ مختلفِ بلادِ المسلمين.. وأعطى هؤلاء الأعداءُ الأرضَ المقدَّسة (فلسطين) وطناً قومياً لليهود.

وقُبيلَ منتصفِ القرنِ العشرين أقامَ اليهودُ دولتَهم على الأرض المقدّسة فلسطين، ووسط الدعمِ المتتابعِ من الأعداءِ لليهود، والتراجعِ المتتابعِ من العربِ والمسلمين، أتمَّ اليهودُ احتلالَ فلسطينَ كلِّها، وأجزاء من دولٍ عربيةٍ أُخرى عام ١٩٦٧م.

وبدلَ أنْ يحاربَ العربُ الغاصبين اليهود، ويُحرِّروا الأرضَ المقدَّسةَ منهم، عقدوا معهم اتفاقيات، سَمّوها (اتفاقيات سلام)، تمكَّن اليهودُ بسببِها من الانتشارِ، والاستعمارِ الاقتصادي والفكري، والأخلاقي والإعلامي، والفني والسياسي، في بلاد المسلمين.

واستمرَّت الحربُ الصليبيةُ التلموديةُ ضدَّ المسلمين، واتخذتْ لها عدّةَ مظاهرَ وجوانب، وصورٍ ونماذج!.

وشهدت بدايةُ القرنِ الحادي والعشرين تصعيداً خطيراً في هذه الحرب، من قِبَلِ اليهودِ والصليبيين، قامَ فيها اليهودُ بتصعيدِ العدوان على أهلِ فلسطين وغيرهم، وقامَ فيها الأمريكان بتصعيدِ العدوان على بلاد المسلمين، واحتلال أفغانستان والعراق...

وفتحَ كثيرٌ من المسلمين عيونَهم على الخطرِ اليهوديِّ الصليبيِّ المدمِّر، وازدادوا بصيرةً به، وحذراً منه، وانحازوا إلى إسلامِهم، وصَمَّموا على مواجهةِ الأعداء، ورفعِ رايةِ الإسلام، وصبروا على الأذى الذي صبَّهُ الأعداءُ عليهم، وجاهدوهم جهاداً مبروراً، متشعّب الميادين والمجالات والجوانب!.

و(فَزِعَ) هؤلاء المؤمنون الثابتون إلى إسلامِهم، يأخذونَ منه المدد والزاد، والعلمَ والوعي، والبصيرةَ والمعرفة، ولجؤوا إلى الله، متوكّلين عليه، مجاهدين في سبيله، محتسبين كلَّ ما يصيبُهم عنده، طالبين منه التوفيقَ والسَّداد، والتثبيتَ والرشاد، والأَجْرَ والثواب.

وأمامَ عنفِ وشدةِ وقسوةِ الحربِ اليهوديةِ الصليبية، ضعفَتْ هممُ وعزائمُ بعضِ المسلمين، وأُصيبوا في آمالِهم وتطلُّعاتِهم ورؤاهم، وتَدَسَّسَ اليأسُ والإحباطُ إليهم، وفقدوا النظرةَ المستقبليةَ الآملةَ الواعدة، وذَهبوا إلى أنها القاصمةُ القاضية، التي أُصيبَ بها المسلمون على أيدي اليهود والصليبيين، وأنها هي النهايةُ في مسلسلِ المواجهةِ بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، وأنّه كُتبَ في خاتمةِ هذا المسلسلِ للكفار السيطرةُ والهيمنةُ الدائمةُ على بلاد المسلمين! وأنَّ هذه هي نهايةُ الدنيا، وأنَّ الساعةَ أصبحتْ وشيكة!!.

وهذه حالةٌ مَرَضية، يُعاني منها هؤلاء المسلمونَ المصابونَ في آمالِهم وتطلُّعاتهم، وتتعارضُ مع حقائقِ الإسلامِ الثابتةِ الواعدة، الصادقةِ الآملةِ، المبشِّرَة، التي تُقدمُ (وعوداً) واثقةً قاطعة، بالمستقبلِ المشرِق للإسلام!.

وقد أصدرَ العلماءُ والباحثونَ المعاصرون بعضَ الدراساتِ الإسلامية، وقدَّموا فيها ما وقفوا عليه، وما هَداهم اللهُ إليه، من هذه الوعودِ الإسلاميةِ الصادقة، ودَعوا المسلمينَ إلى الثقةِ واليقين بها، والعملِ المتواصل لتحقيقها.

ومن الكتبِ التي شكَّلت البداياتِ الأولى في هذا الجانب كتاب: (المستقبل لهذا الدين) للمفكِّر الإسلاميِّ الرائد الشهيد سيد قطب، الذي أصدرَه قبلَ حوالي خمسين عاماً. ومنها كتاب: (الإسلام ومستقبل البشرية) للعالمِ المجاهدِ الشهيدِ الدكتور عبد الله عزام. ومنها كتاب: (المبشّرات بانتصار الإسلام) للفقيه الداعية الدكتور يوسف القرضاوي.

وساهمَ المسلمون المهتدون في الغرب، الذين بَحثوا عن الحقيقة، فاهتدوا إلى الإسلام، وجعلوه ديناً لهم، في دراساتِهم الناقدةِ للحضارةِ الغربيةِ، التي هي على وشكِ الأُفولِ والغياب، واعتبروا الإسلامَ هو (الدين العالمي) القادم، وأنَّ له مهمةً عظيمة، ينتظرُ العالمُ الغربيُّ المعذَّبُ منه أنْ يؤدِّيها.

ومن الدراساتِ المترجمةِ إلى اللغةِ العربيةِ كتاب (وعود الإسلام) للمفكّر المهتدي (رجاء جارودي)، و(الإسلام كبديل) للمفكّر الألماني المهتدي (مراد هوفمان). وقد كَتَبَ المفكِّران الباحثان الكتابَيْن وفقَ نظرتِهما للإسلام، التي قد يكونُ لنا عليها بعضُ الملاحظات والتحفُّظات، والتي قد تحتاجُ إلى مزيدٍ من المراجعةِ والبحثِ والتحليل. لكنَّهما كتابان مفيدان، يستفيدُ منهما المسلمُ المعاصر كثيراً، بشرطِ استصحابه لهذه الملاحظة التحذيرية الإرشادية!.

وإنَّ آياتِ القرآنِ تضمّنَتْ (وُعوداً) عديدة، وَعَدَها اللهُ عبادَه المؤمنين الصادقين، وبَشَّرَهم فيها بانتصارِ الإسلام، والتمكينِ له في الأرضِ، وإظهارِه على الأديانِ كلِّها، وإزهاقِ الحقِّ للباطل، وهزيمةِ الكفرِ وأهلِه.

وقد يغفلُ بعضُ المسلمين المعاصرين عن هذه (الوعودِ القرآنية) الصادقة، في زحمةِ تعرُّضِهم للهجمةِ اليهوديةِ الصليبيةِ الحالية، وبذلك قد تتدسسُ إليهم بعضُ مشاعرِ اليأسِ والإحباطِ والقنوط.

لذلك دعت الحاجةُ الميدانيةُ الواقعيةُ إلى تقديم هذه الوعودِ القرآنيةِ الصادقة، للمسلمين المواجهين لأعداءِ الله، ليتعرَّفوا على قرآنِهم العظيم، ويزدادوا إقبالاً عليه، واستمساكاً به، وتطبيقاً لأحكامِه، وتصديقاً بوعوده، وتصميماً على مواجهةِ أعدائِه، ليقَرِّبوا هذه الوعودَ القاطعة، ويَعْمَلوا على تحقُّقِها وإيجادِها في عالم الواقع..

ولأجلِ ذلكَ أَعْدَدْنا هذا الكتاب، الذي هو الحلقةُ الحاديةَ عشرة، من سلسلتنا القرآنية: (من كنوزِ القرآن).

خصَّصْنا هذا الكتابَ للحديثِ عن: (وعودِ القرآنِ بالتمكينِ للإسلام)، لأنَّ اللهَ أكملَ لنا دينَنا، وأتمَّ علينا نعمتَه، ورضيَ لنا الإسلامَ ديناً، وجعله الدينَ الوحيدَ المقبولَ عنده، ونسخَ به الأديانَ السابقة، وَوَعَدَ أَنْ ينصرَه وينشرَه، ويمكِّنَ له في الأرض، ويُظهرَه على الأديانِ كلِّها..

ولكنَّ طريقَ الإسلام صعبةٌ شاقة، وليستْ سهلةً مفروشةً بالورود، لأنه يواجهُ الهجمةَ الشرسة من أعدائه الكثيرين، على اختلافِ أديانهم، ولكنَّه يخرجُ منها ظافراً منصوراً، بإذْنِ الله.

جعلتُ الكتابَ أقساماً ثلاثة:

القسمُ الأول: بينَ يدي الوعودِ القرآنية:

جعلتُه تمهيداً للحديثِ عن وعودِ القرآن، وأساساً ننطلقُ منه للنظرِ إلى تلك الوعود، والتعاملِ معها، وتحدثتُ فيه عن المباحثِ التالية:

١ ـ إنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

٢ ـ مَنْ أصدقُ من اللهِ حديثاً؟.

٣ ـ بين الوعدِ الحق والوعدِ الباطل.

٤ ـ الموقفُ من وعْدِ الله: بين تصديقِ المؤمنين وتكذيب المنافقين.

٥ ـ وجوبُ الثقةِ المطلقةِ بالنصّ القرآني.

٦ ـ تحققُ الأخبارِ المستقبلية في القرآن.

٧ ـ استمرارُ المواجهةِ بين المسلمين والكافرين.

٨ ـ القرآنُ يبشّرُ المؤمنين الصالحين.

القسم الثاني: الوعودُ القرآنيةُ في السورِ المكية:

تحدَّثتُ فيه عن أشهرِ الوعودِ القرآنيةِ في عشرِ سورٍ مكيةٍ، مرتبةٍ حسبَ ترتيب المصحف، وهي سور: الأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والإسراء، والأنبياء، والروم، والقمر.

القسم الثالث: الوعودُ القرآنيةُ في السور المدنية:

تحدّثتُ فيه عن أشهرِ الوعودِ القرآنيةِ في اثنتي عشرة سورة مدنية، مرتبةٍ حسبَ ترتيبِ المصحف، وهي سور: البقرة، وآل عمران، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، ومحمد، والفتح، والمجادلة، والحشر، والصف.

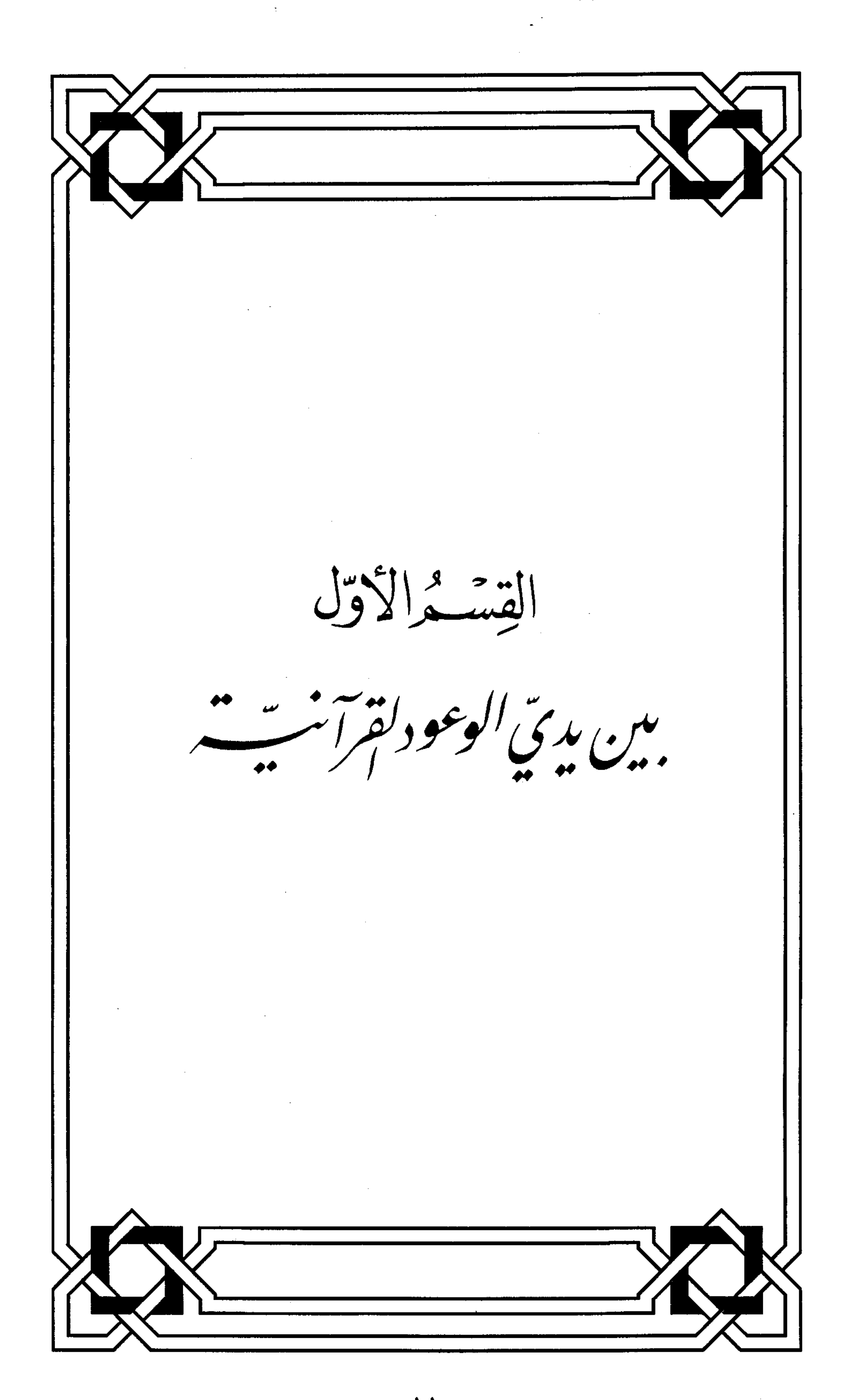
وختمتُ الكتاب **بخاتمة**، أشرتُ فيها إلى بعضِ وعودِ رسولِ الله ﷺ المبشِّرة بانتصارِ الإسلام، وإلى تحقُّقِها في حياة أصحابه عند جهادِهم وفتوحِهم البلاد، ذكرتُ وعدَ الرسولِ ﷺ إلى خَبَّاب بنِ الأرَتِّ، وإلى سُراقةَ بنِ مالك، وإلى عَدِيِّ بن حاتم الطّائي، رضي الله عنهم.

وأُقدِّمُ هذا الكتابَ إلى المسلمين الصادقين، ليزدادوا ثقةً بتحقيقِ هذه الوعودِ القرآنيةِ الصادقة، وليستشرفوا المستقبلَ المشرقَ للإسلام، وليتحرّكوا بهذا الدين، وليعملوا على تقريب تحقيقِ هذه الوعود.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السبت ١٩/ ٥/ ١٤٢٤هـ
١٩/ ٧/ ٢٠٠٣م

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي



القِسمُ الأوّل

بين يديّ الوعود القرآنيّة



الفَصل الأول

إنّ الله لا يخلف الميعاد

اللهُ العظيمُ القادر، له صفاتُ الكمالِ والجلالِ والعَظَمة، وهو منزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ أو ضعفٍ أو عجز.. وهو على كلِّ شيءٍ قدير، لا رادَّ لأمرِه، ولا مبدِّلَ لكلماتِه، ولا مُبطِلَ لقضائِه، ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن.. لا يُعجزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولا تقفُ أمامه قوةٌ، مهما كبرتْ وعظمتْ.

إذا أرادَ شيئاً فعلَه، وإذا أمرَ بشيءٍ أَنْفَذَه، وإذا وعدَ بشيءٍ أنجزه، وهو الحكيمُ في كلِّ شيءٍ أرادَه وقالَه وفعلَه، القادرُ على كلِّ شيء، العالمُ بكلِّ شيء، الفاعلُ لكلِّ شيء، خلقَ كلَّ شيءٍ بقَدَرِه وقدْرَتِه، وعَلِمَ كلَّ ما كانَ وما سيكونُ، وأمْرُه بين الكافِ والنون، إذا أرادَ شيئاً فإنَّما يقولُ له: كنْ؛ فيكون.

آيات تقرّر هذه الحقيقة:

هذه حقيقةٌ إيمانيةٌ، صادقةٌ قاطعة، قرّرتْها آياتُ القرآنِ العديدة، ودعَتْنا تلك الآياتُ إلى فقهِها وتصديقِها، والإيمانِ الجازمِ بها، واليقينِ القاطع بتحقُّقِها ووقوعِها.. ومَنْ شَكَّ فيها لم يُقَدِّر اللهَ حقَّ قدْره، ولم يؤمنْ باللهِ حقَّ الإيمان، ولم يعرفْه حقَّ المعرفة، وبذلك ييأسُ من رَوْحِ الله، ومعلومٌ أنَّه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون.

واللهُ لا يُخلِفُ الميعاد. وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ، وردَتْ في أكثرَ من آيةٍ كريمة، ولْننظرْ نظرةً سريعةً في تلك الآيات:

١ ـ من سورة الرعد:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وردت الآيةُ في سياقِ تكذيبِ الكفارِ بالقرآن، وحربِهم للحقِّ وأَهلِه، وأَخْذِ اللهِ لهم، بعدَ إمهالٍ واستدراج.

وتخبرُ الآيةُ عن استمرارِ عقابِ اللهِ للكفّار، بسببِ جرائمِهم وطغيانِهم، فلا تَزالُ تصيبُهم القوارع، وتَنزلُ بهم النوازل، وهذه القوارعُ والمصائبُ إمّا أنْ تقعَ على رؤوسِهم وتدمّرَ بيوتَهم، وإمَّا أنْ تقعَ في مناطقَ قريبةٍ من ديارِهم، لِلَفْتِ أنظارِهم، وإيقاظِ قلوبهم.. وهذه القوارعُ والنوازلُ قد تكونُ في صورةِ زلازل، أو براكين، أو عواصف، أو فيضانات، أو حروب، أو أَمراض، أو غير ذلك.

ستبقى هذه المصائبُ تصيبُهم، وفقَ حكمةِ الله، مهما طالَ زمانُها، واتسعَ مكانُها، حتى يأتيَ وعْدُ الله.

وإمَّا أنْ يأتيَ وعْدُ اللهِ في الدُّنيا، بتحقُّقِ ما وعدَ به سبحانَه عمليّاً، وانطباقه على أرضِ الواقع، وإمَّا أنْ يأتيَ يوم القيامة، حيثُ توعَّدَ اللهُ الكفارَ بنارِ جهنَّم، وسوف يعذِّبهم بها بعدَ حسابِهم في الآخرة.

وما وعدَ اللهُ الكفارَ به من صورِ العقابِ والعذابِ واقعٌ آتٍ متحقّق، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

ومعنى: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: لا يوقِفُ ميعادَه، ولا يُلغي وعْدَه، لأنّه لا يَعجز عن إنجازِه، ولا تقفُ أيةُ قوةٍ أَمامه، لأنَّ اللهَ لا يُعجزه أيُّ شيءٍ في الأرضِ ولا في السماء.

ولا يُخلفُ الوعْدَ إلاّ عاجز، واللهُ لا يُعجزُه أيُّ شيءٍ.. ولا يتخلَّى عن وعدِهِ إلا كاذب، واللهُ هو الأصدقُ حديثاً.

بعضُ الناسِ قد لا يعرفُ حدودَ طاقتِه، ومجالَ قدرتِه، فيَعِدُ وُعوداً أكبرَ من طاقتِه ووسْعِه، وعندما يحينُ موعدُ إنجازِ الوعود، يعجزُ عن ذلك، لضعفِ قوَّته، وتدنّي قدرتِه، ونقْصِ ماله، وبذلك يُخلفُ الميعاد.

ومعلومٌ أنَّ خُلْفَ الوعدِ صفةٌ من صفاتِ المنافقين المذمومة، أمَّا المؤمنون فإنَّ أحدَهم إذا وعدَ أوفى، لأنَّه لا يَعِدُ إلاّ بما هو ضمن قدرتِه.

وقد ذُكِرَ الوعدُ في الآية مرتين: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

و(وَعْدُ): مصدرُ الفعلِ الثلاثي: تقول: وَعَدَ، يَعِدُ، وَعْداً.

و(ميعاد): مصدرٌ آخرُ للفعلِ الثلاثي: تقول: وَعَدَ، ميعاداً، كما تقول: فَعَلَ، مِفْعالاً. وهو مثل: ميقات.

وفي (ميعاد) من التأكيدِ والتحققِ والمبالغة، أكثرُ مما في (وَعْد)، لأنَّ (ميعاد) مزيدٌ بحرفين، وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى!.

وورود المصدَرَيْن (وَعْد، وميعاد) متجاورَيْن، في جملتَيْن متتابعتَيْن في الآية، مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ البياني العجيب في القرآن.

٢ ـ من سورة الحج:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٧ ـ ٤٨].

الآيتان في سياقِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، سبقَتْها آياتٌ تتحدَّثُ عن مصارعِ الكافرين السابقين، وتَدعو إلى الاعتبار من ما جَرى لهم.

وتذكُرُ الآيتان أنَّ كفارَ قريش كانوا يستعجلونَ الرسولَ ﷺ بالعذاب، فعندما كان ﷺ يتوعَّدُهم بالعقابِ والهلاك، إن استمرُّوا على كفرِهم وتكذيبِهم وعداوتهم، كانوا يُكذِّبون بذلك ويَستبعدونه، ويَسخرونَ من الرسول ﷺ، ويستهزؤون به.. ويستعجلونَ بالعذاب، من بابِ التكذيبِ والاستبعاد والإنكار، ويقولون له: إن كنتَ صادقاً فيما تقول، فأْتِنا بما تعدُنا به من العذاب!.

ويَرُدُّ اللهُ على استعجالهم بأنَّه لن يُخلِفَ وعْدَه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، أي: إذا وَعَدهم العذابَ أنفذَه وأنجزَه، وإذا أرادَ تعذيبَهم فعلَ ذلك، لأنَّه لا يُخلفُ وعْدَه، ولا يَعجزُ عن إمضائِه وإيقاعِه.

٣ ـ من سورة الروم:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤ ـ ٦].

وعدَ اللهُ في سورةِ الرومِ بانتصارِ الرومِ الكتابيِّين على الفرسِ المشركين، في بضعِ سنين، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصْرِ الله.

وسنتحدَّثُ عن ذلك في مباحثِ الكتابِ القادمةِ بعون الله.

وأخبرَ أنَّ هذا وعدٌ قاطعٌ ماضٍ من الله، لا يتوقَّفُ ولا يتخلَّف، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ وعْدَه.

وذمَّ الكفارَ الذين لا يُصدقون بذلك، ووصَفَهم بأنَّهم جاهلون، لا يعلمون هذه الحقيقةَ الإيمانية، ولا يوقنون بها.

وهذا معناه: أنَّ المؤمنين عالمون، لأنَّهم يُصدِّقون بما وعدَ الله، ويوقنون بتحقّقه ووقوعه، في مقابلِ جهلِ الكافرين المنكرين لذلك.

٤ ـ من سورة الزمر:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ١٩ ـ ٢٠].

تقدمُ الآيتان بعضَ ما توعَّدَ اللهُ به الكفّار من عذابِ النارِ في الآخرة، وبعضَ ما وعدَ به المؤمنين المتّقين من نعيمِ الجنّة.

وتخبرُ أنَّ هذا وعدٌ من الله، واقعٌ ناجز، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، ولذلك يوقن المؤمنُ بتحققه ووقوعِه.

٥ ـ من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

تسجلُ الآيةُ دعاءَ الصالحين الراسخين في العلم، الذي يعلنونَ فيه إيمانَهم باليومِ الآخر، ويقينَهم بأنَّ اللهَ سيجمعُ الناسَ جميعاً في يوم القيامة، ليحاسبهم، ويعاقبَ المذنبين، ويُثيبَ الصالحين، ويعقّبون على ذلك بذكْرِ الحقيقةِ الإيمانيةِ من أنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعاد، فبما أنه وعدَ ذلك، فسينجزُ وعدَه.

وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

تسجلُ الآيةُ دعاءَ أُولي الألباب، الذاكرينَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، والمتفكّرين في خلقِ السمواتِ والأرض، والمطبِّقين لشرعِ الله، يَرجونَ اللهَ أنْ يؤتيهم ما وَعَدَهم، على ألسنةِ رسلِه، عليهم الصلاةُ والسلام.

لقد كانَ كلُّ رسولٍ ـ من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ـ يبشرُ المؤمنين الصالحين، ويعِدُهم حُسنَ الثواب ونعيمَ الجنة في الآخرة، وها هم أُولو الألباب يرجونَ اللهَ إنجازَ وعْدِه، بأَنْ يُدخلَهم الجنَّة، ويُنَعِّمَهم فيها، وهم يأْملون ذلك، لأنّهم يوقنونَ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وندعو إلى الالتفاتِ إلى هذه اللطيفةِ من لطائفِ سورةِ آل عمران:

فالآيةُ التاسعةُ في مقدّمةِ السورة تُسجلُ دعاءَ الراسخين في العلم، الموقنين بوعْدِ اللهِ في جمعِ الناسِ يومَ القيامة، لأنّه لا يُخلِفُ الميعاد.. والآيةُ الرابعةُ والتسعون بعد المئة تُسجلُ دعاءَ أولي الألباب، الذين يرجونَ اللهَ إنجازَ وعْدِه وإدخالَهم الجنّة، لأنّه لا يُخلفُ الميعاد. فأولُ السورةِ يُقرِّر أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وآخرُها يقررُ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وتلتقي على هذه الحقيقة القاطعة بدايةُ السورةِ ونهايتُها.

وكلُّ مؤمنٍ يوقنُ بهذه الحقيقة، ولا يشكُّ فيها لحظةً من حياته!.

* * *

الفصل الثاني

من أصدق من الله حديثاً

يوقنُ المؤمنُ بأنَّ اللهَ ينجزُ وعدَه، ولا يُخلفُ الميعاد، لأنَّه يوقنُ أنه لا أَحَدَ أصدقُ من اللهِ حديثاً وقولاً.

واللهُ هو الأصدقُ حديثاً.. حقيقةٌ إيمانيةٌ قاطعة، قررتْها آياتٌ عديدةٌ من القرآن، نقفُ معها فيما يلي وقفةً سريعة:

١ ـ من سورة النساء:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

تبدأُ الآيةُ بتقريرِ توحيدِ الأُلوهية، فاللهُ سبحانه لا إلـه إلا هو، ثم تقرّرُ أنَّ اللهَ سيجمعُ الناسَ جميعاً يوم القيامة، وأنَّ ذلك اليوم آتٍ لا ريبَ فيه.

وبما أنَّ اللهَ أخبرَ عن مجيءِ ذلك اليوم، فإنّه آتٍ بدون شكٍّ أو ريب، لأنَّ اللهَ تعالى صادقٌ في حديثِه، ولا أَحَدَ أصدقُ حديثاً من الله.

وصيغَتْ هذه الحقيقةُ في الآيةِ بأسلوبِ الاستفهام: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ والاستفهامُ هنا تقريري، والحقيقةُ المقرَّرةُ أنه لا أَحَدَ أصدقُ حديثاً من الله.

ومن السُّنَّةِ للمسلمِ أنَّه عندما يقرأُ الآية وينطقُ بالاستفهام أن يجيبَ: لا أحدَ أصدقُ حديثاً من الله!.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وعدَ اللهُ المؤمنين المتقين الذين يعملون الصالحات، أنْ يُدخلهم جناتٍ

تجري من تحتها الأنهار، وأنْ يجعلَهم منعَّمين، خالدين فيها أبداً.

وهذا الوعدُ الإلـٰهي حق، أي: متحقّقٌ واقعٌ لا محالة، مثلُ باقي وعودِ الله الحقّة.

وجاءَ هذا الوعدُ المتحقّقُ في كلامِ الله وحديثِه وقولِه، وقولُ اللهِ صادق، ولا أحدَ أصدقُ قولاً من الله.

والاستفهامُ في الآيةِ تقريري، وعندما يقرؤُه المؤمنُ أو يسمعُه من غيره، يُجيب قائلاً: لا أَحدَ أصدقُ من اللهِ قولاً!.

وندعو إلى الالتفاتِ إلى ورودِ الاستفهامَيْن التقريريَّيْن في سورةِ النساء: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ و﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾؟.

٢ ـ من سورة الزمر:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

أخبرت الآيةُ عن ما سيقولُه المؤمنون، عندما يُدخلُهم اللهُ الجنة، وينَعِّمهم بنعيمِها، حيثُ سيحمدونَ اللهَ ويشكرونَه، على إنجازِ وعْدِه لهم، فقد وَعدَهم في الدنيا الجنةَ ونعيمَها، إن استقاموا على طاعتِه، ونفَّذوا في الدنيا أحكامَه، طالبين رضوانَه، متطلّعين إلى نيلِ موعودِه.

وها هو سبحانه يَصدُقُهم الوعد، ويُدخلُهم الجنةَ برحمتِه وفضْلِه، وها هم يَرِثونَ الجنّة، ويتبوَّؤون منها حيث شاؤوا.

وصدقُ الوعدِ بمعنى تحقُّقِه في عالم الواقع، وإنجازِه للموعودين به، فالوعدُ له صورةٌ نظريةٌ، وهي ذكْرُه في آياتِ القرآن، وتبشيرُ المؤمنين به، وله صورةٌ عمليةٌ واقعية، وهي إنفاذُه وإمضاؤه يوم القيامة، حيث يتنعّم المؤمنون في الجنة.

والله يصدقُ وعْدَه لأنه لا يخلفُ الميعاد!.

٣ ـ من سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن

كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٩].

يخبرُ اللهُ أنّه أرسلَ رسلاً رجالاً، قبلَ رسولِ اللهِ ﷺ، وصبروا على ما لاقوهُ من قومِهم، من كفرٍ وتكذيبٍ وحرب، وقد وعدَهم اللهُ النصرَ على أعدائِهم، ولما انتهتْ دعوتُهم مع قومِهم، صدقَهم اللهُ الوعدَ، فأنجاهم مع أَتْباعِهم المؤمنين، وأهلكَ الأعداء الكافرين.

ومعنى ﴿صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾: أنجَزْنا لهم ما وَعدْناهم، فصِدْقُ الوعدِ: تطبيقُه، وتحويلُه إلى واقع، ونقْلُه من دائرةِ الكلامِ النظريِّ إلى حالةِ الوجودِ العملي.

٤ ـ من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ...﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذه الآيـة في سياق الحديث عن غزوةِ أُحُد، التي جرى فيها ما جـرَى للمسلمين، حيث انتصرَ المسلمون في الجولةِ الأولى منها، ولما ارتكبوا مخالفتَهم بحسنِ نيةٍ، أدَّبهم الله، ورجعَ المشركون عليهم، وأصابوا منهم القتلى والجرحى، وتعلَّموا من ذلك الدروسَ والعبر!.

يخبرُ اللهُ المسلمين في هذه الآية أنه: (صدقهم وعده) وتفسيرُ هذه الجملةِ في الجملة التي تليها مباشرة: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، ومعناها: إذْ تقتلون المشركين بإذن الله.

وهذه إشـارةٌ إلى الجولةِ الأُولى من غزوةِ أُحُد، التي لم تستمرّ إلا فتـرةً قصيرةً جداً، حيثُ قَتَلوا مَنْ قَتَلوا من المشركين، وانهزمَ المشركون أمامَهم.

وصَدَقَهم اللهُ وعْدَه في هذه الجولةِ بأَنْ سَلَّطَهم على المشركين، وجعلَهم يَغلبونَهم ويهزمونَهم، ونَصَرَهم عليهم، وقد وعدَهم النصرَ في آياتٍ عديدةٍ قبلَ غزوةِ أُحد، وتحقَّقَ هذا الوعدُ عملياً على أرضِ أُحُد، في المرحلة الأولى من المعركة.

وسمي هذا التحققُ العمليُّ صدْقاً وتصديقاً للوعد.

٥ ـ من سورة الأحزاب:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

تُخبرُ الآيةُ عن موقفِ المؤمنين من هجومِ الكفارِ عليهم في غزوةِ الأحزاب، من العربِ المشركين واليهودِ الماكرين والمنافقين، فلما رأوا المدينةَ محاصرةً من أحزابِ الكفر، لم يُحبطوا أو يُرعبوا، وإنما قالوا: هذا ما وعدَ اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه.. وازدادوا إيماناً بالله، وتصديقاً بكلامِه، وتسليماً لقضائه، وثباتاً على قتالِ أعدائه.

لما رأوا أحزابَ الكافرين، تذكَّروا ما وعدَهم اللهُ إياه، حيث وعدَهم قتالَ الكفارِ لهم، وهجومَهم عليهم، ثم وَعَدَهم النصرَ عليهم، إن نَصَروا الله وثَبَتوا في القتال، وكان هجومُ الأحزابِ عليهم تصديقاً من الله لهم، حيث تحوَّل به الوعدُ من الصورةِ النظريةِ إلى الصورةِ العملية الواقعية، ولذلك قالوا: هذا ما وعَدَنا اللهُ ورسولُه، وصدَقَ اللهُ ورسولُه.

تدلُّ هذه الآياتُ ـ وغيرُها كثيرٌ في القرآن ـ على أنَّ اللهَ يَصْدُقُ عبادَه وعودَه التي يَعدُهم إياها، وهذا الصدق هو تحويلُ تلك الوعودِ من صورتِها النظريةِ (الوعْدِيّة) إلى صورتِها العملية التطبيقية الواقعية.

واللهُ يفعلُ ذلك لأنه هو الأصدقُ حديثاً، والأصدقُ قولاً ووعْداً، وهو لا يُخلفُ الميعاد، سبحانه وتعالى.

* * *

الفصل الثالث

بين الوعد الحقّ والوعد الباطل

بما أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وبما أنّه يصدقُ عبادَه وعْدَه، ويُنجزُه لهم، لأنّه الأصدقُ وعداً وقولاً وحديثاً، لذلك وَصَفَ وعْدَه بأنه الوعْدُ الحقّ. أي: هو الوعْدُ الصادق، الذي يتحققُ عملياً على أرضِ الواقع. فالحقُّ بمعنى الصحّةِ والصدق والصواب، ولذلك يُنجزُ ويُنَفَّذُ عملياً.

آياتٌ في وعد الله الحق:

الآيات التي وصفتْ وعْدَ اللهِ بأنّه (الوَعْدُ الحقّ) كثيرة، منها هذه الآيات:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

الآيةُ في سياقِ آيات، تتحدّثُ عن ميلادِ موسى عليه السلام. فقد أوحى اللهُ إلى أم موسى بالتصرّف المناسب، لإنقاذِ موسى الوليدِ من خطرِ فرعون، ووعَدَها أنْ يَرُدَّهُ إليها. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وردَّ اللهُ الوليدَ إلى أُمه، وفقَ تدبيرِه وتقديرِه الحكيم سبحانه، وكان ردُّه إليها تحقيقاً لوعْدِه النظريِّ لها. فقد قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ولكنها لم تعرفْ كيفَ يردُّه اللهُ إليها.. ومن حِكَمِ ردِّهِ إليها أنْ تقرَّ عَيْنُها، وأنْ لا تحزنَ، ومن حِكَمِه أيضاً أنْ تعلمَ أنَّ وعْدَ اللهِ لها حق. أي: أنْ ترى تحقُّقَه العمليَّ أمامها، بأنْ يكونَ ابنُها معها.

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

تربطُ الآيةُ بين مُلْكِ اللهِ لكلِّ ما في السموات والأرض، وبينَ كونِ وعدِه هو الحق، وهذا الربطُ مقصودٌ ومُراد، لأنّه لا ينفِّذُ ما وعَدَ به إلاّ مَنْ كانَ قادراً على

ذلك، ولا يقدرُ على ذلك إلا إذا كان مالكاً غنياً، قاهراً قوياً، فإنْ لم يكن كذلك كان عاجزاً، وعجزُه يقعدُ به عن تحقيقِ الوعد.

واللهُ هو المالكُ الغنيّ، والقادرُ القويّ، وملكُه للسموات والأرض مرتبطٌ مع قدرتِه على تحقيق وعْدِه.

ووعْدُه الحقُّ هو وعْدُه المنْجَزُ المتحقِّق، المنطبقُ على الواقع، وفقَ ما وعدَ به. والمؤمنون يوقنونَ بذلك، والكافرون ينكرونَه، لأنَّهم لا يعلمون قدرةَ الله وقوَّتَه!.

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

أثنى اللهُ في الآيةِ السابقةِ من السورة على المؤمنين الصالحين، البارّين بوالِديهم، الشاكرين لربّهم، وفي هذه الآيةِ أخبرَ أنّه سيتقبّلُ عنهم أحسنَ أعمالِهم، ويتجاوزُ عن سيئاتِهم، ويدخلُهم الجنّةَ، ويجعلُهم مع أصحابها المنعّمين فيها.

ثم أخبر أنّه وعدَ هؤلاء المتقين الجنةَ وهم في الدنيا، ووعْدُه حَقٌّ وصدق، ولذلك ينجزُه لهم، فيدخلُهم برحمته جنَّته.

وأخبرَ في الآيةِ التي بعدَها مباشرةً أن رجلاً كان كافراً بالله، عاقاً لوالدَيْه، مكذِّباً بوعْدِ الله، بينما كان والداه مؤمنَيْن بالله، موقنين بأنَّ وعْدَه حق. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

الوالدان مؤمِنان، يوقِنان أنَّ وعدَ الله حق، وهو ما أخبرَ عنه من بعْثِ الناس يومَ القيامة، وهو آتٍ لا محالة، سيتحققُ فعلاً كما أخبرَ عنه الله.

آياتٌ في وعد الشيطان الباطل:

في مقابلِ وعدِ الله الحق، يأتي وعْدُ الشيطانِ الباطل، القائمُ على الغرورِ والخداع، والكذبِ والافتراء.

يَعِدُ الشيطانُ أولياءَه الكثيرَ من الوعود، لكنّها وعودٌ زائفة، لا تتحقَّقُ، ولا توجَدُ في الواقع، لأنَّ الشيطانَ كاذبٌ في الوعْدِ بها، هدفُه منها هو الاستحواذُ

على جنودِه، وإسقاطهم وإضلالهم، ولذلك يَعِدُهم ويُمَنِّيهم!.

والآياتُ التي أخبرتْ عن الغرورِ والخداعِ في وعدِ الشيطان عديدة، منها:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠].

بعدَ أنْ ذكرت الآيـاتُ بعضَ وسـائلِ الشيطانِ في إسقاطِ أتْباعِه، علَّقَتْ عليها بأنَّها من وعودِ الشيطان لهم، فهو يَعِدُهم الوعودَ البرّاقة، ويُمَنِّيهم الأمانيَ الفارغة، ويُريهم أنَّ الخيرَ كلَّه ينتظرُهم، إن استجابوا له وساروا معه.

وما يَعِدُهم الشيطانُ هو (غرورٌ) وخداعٌ، وسرابٌ لا وجودَ له. وأَتْباعُه يعرفونَ هذا بأنفسهم، فعندما يُصَدِّقونه ويستسلمونَ له، ويُطالبونه بتحقيقِ وعودِه، يضحكُ عليهم، ويسخرُ منهم، ويعلنُ براءَتَه منهم، وعند ذلك يَعرفونَ خسارتَهم، لكنْ بعدَ فواتِ الأوان!: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾!.

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢ ـ ٦٥].

هذه الآياتُ من سورةِ الإسراء، قريبةٌ من معاني الآياتِ السابقةِ من سورة النساء، فهي تذكُرُ بعضَ أسلحةِ الشيطانِ في إضلالِ أتباعِه، وتُخبرُ أنَّ الشيطانَ يعدهم الوعودَ الكبيرة، ولكنَّ هذه الوعود خياليةٌ خادعةٌ، لن تتحقّق، وهدفُ الشيطان منها خداعُ أَتْباعِه.

أمّا عبادُ اللهِ الصالحون فهم في أَمانٍ من غرورِ الشيطانِ ووعودِه، وليس له سلطانٌ عليهم، لأنهم في حفظِ الله ورعايته.

الشيطان يتخلَّى عن أتباعه في الدنيا:

ثالثاً ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

تُشيرُ الآيةُ إلى نموذجٍ من وعودِ الشيطانِ الخادعة، غيرِ المتحققة.. ومناسبةُ نزولِها ما جرى بين الشيطانِ وبين كفارِ قريش، قبيلَ خروجِهم إلى غزوة بدر.

فقد كانَ قادةُ قريشٍ، كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وأُميةَ بن خلف، يتدارسونَ تجهيزَ الجيش، والخروجَ لقتالِ رسول الله ﷺ، ولكنّهم كانوا يخافون مهاجمةَ قبائلَ عربيةٍ معادية لمكة أثناءَ غيابهم، فأتاهم الشيطانُ، وزيَّنَ لهم الخروج، وأراهم أنهم على صواب، وطمأنَهم أنه معهم، وأنَّه (جارٌ لهم) سيحيدُ القبائلَ المعادية، ووعَدَهم النصرَ والفوز!.

واستجابوا لتزيينه، وطمعوا في وعودِه، وخَرَجوا بقيادة أبي جهلٍ إلى بدر.

ونشبتْ معركةُ بدر، وفوجئَ المشركون بقوةِ المسلمين، وهجومِهم عليهم، وتذكَّروا وعودَ الشيطانِ بالنصرِ والتأييد، وهو معهم في ميدانِ المعركةِ، ولكنَّه نكثَ العهود، وتخلَّى عن الوعود، ونكصَ على عَقِبَيه، وولَّى هارباً، وأسلَمَ أَتْباعَه إلى أَسلحةِ المسلمين.

وقالَ لهم: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾!.

أعلنَ براءتَه منهم، وعلَّلَ ذلك بأنَّه يرى ما لا يرون، والراجحُ أنَّ الذي رآه هم الملائكة، الذين أنزلَهم اللهُ مدداً للصحابةِ في المعركة.

وكَذَبَ عليهم في زعمِه الخوف من الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وهل يخافُ الشيطانُ اللهَ ربَّ العالمين؟!.

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ ـ ١٧].

تذكرُ الآيـةُ إغواءَ الشـيطانِ لأَحَدِ أَتْباعِه، عندما طلبَ منهُ أَنْ يكفرَ باللهِ، وقدَّمَ له وُعودَه وأَمانيه، بحصولِه على الخيرِ كلِّه، وأنه سيبقى معه مدافعاً عنه . . ولما اسـتجابَ التعيسُ له، وصدَّقَه في وعودِه، وأعلَنَ كفْرَه باللهِ، تخلَّى عنـه الشيطان وغرَّهُ وخَدَعَه، وقالَ له : إني بريءٌ منك، إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين! .

خامساً ـ قال تعالى : ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر : ٤٠] .

إذا كانَ الشيطانُ كاذباً في وعودِه الخادعة، فإنَّ أَتْباعَه من الظالمين يَقتدون به في هذا الكذبِ والخداع، وما يَعِدُ بعضُهم بعضاً من الوعودِ ما هي إلا غرورٌ وخداع، لا يَلتزمونَ بها، ولا يُنفذونها .

الشيطان يتخلّى عن أتباعه في الآخرة:

يومَ القيامة يتخلَّى الشيطانُ عن أَتْباعه، ويُفرِّقُ الجميعُ بين وعودِ اللهِ الحقة، التي حقَّقها سبحانه لعبادِه الصالحين، وصَدَقَهم إياها، وبينَ وعودِ إبليسَ الخادعة، التي كذب على جنوده بها .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

هذه خطبةُ إبليس، يُلقيها على أَتْباعِه في نارِ جهنَّم، بعد أَنْ يستقرُّوا فيها، ويَعترفُ لهم بأنَّه غرَّهم وخَدَعَهم، ثم يؤنّبهم ويوبِّخُهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾ . ويذكرُ لهم أنَّه عاجزٌ عن إنقاذِهم، كما أنهم عاجزون عن إنقاذِه : ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ ﴾ .

ويتخلَّى عنهم، ويعلنُ براءَتَه منهم : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ ﴾ .

والشاهدُ في الآيةِ مقارنةُ إبليسَ بين وعْدِ اللهِ الحقِّ ووعْدِه الباطل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ ﴾ .

أي: صدقَ اللهُ عبادَه وعْدَه، وأنجزَه لهم، وبذلك كان وعْدُه حقّاً، متحقِّقاً على أرضِ الواقع، أما إبليسُ فقد وَعَدَهم فأَخلَفَهم، ولم يُنجزْ لهم ما وعدَهم به، وبذلك خَدَعَهم وغرَّهم، وكان وعْدُه باطلاً ضالاً!!.

بين وعد الله ووعد الشيطان:

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

تقارنُ الآيةُ بين وعْدِ الشيطانِ الباطلِ ووعْدِ اللهِ الحقِّ، فالشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَه، ويجعلُهم في تفكيرٍ دائم، في التخطيطِ للمستقبل، حَذرينَ من الفقرِ، ولذلك يأمرُهم بالفحشاءِ، والبخلِ بالمال، خوفَ الفقر. وهذا خداعٌ منه لهم.

أمَّا اللهُ فإنّه يَعِدُ أولياءَه الغنى والسعادة، والمغفرةَ والرحمة، ولذلك يَدعوهم إلى الإنفاقِ على المحتاجين، ويضمنُ لهم الفضْلَ والغِنى. ووعْدُه سبحانه نافذ، متحقّقٌ في الواقع.

تحقيق وعد الله لأهل النار وأهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ﴾[الأعراف: ٤٤].

تذكُرُ الآيةُ ما يَجري بين أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النار، بعد استقرارِ كلِّ فريقٍ في دارِه، فيتذكَّرُ أصحابُ الجنَّة حياتَهم في الدنيا، وما وعدَهم اللهُ به على الاستقامةِ والطاعة، فها هم يَجدون ذلك الوعدَ حقّاً متحقّقاً، وها هم يتنعَّمون به.

عند ذلك يتذكّرون أهلَ النار، فينادونَهم قائلين: قد وجَدْنا ما وَعَدَنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدْتُم ما وعدَ ربُّكم حقّاً؟.

فيجيبُهم الكفارُ قائلين: نعم، فقد وعدَنا اللهُ النارَ، وها نحنُ نجدُ هذا الوعدَ حقّاً متحقّقاً، وها نحنُ نحترقُ بالنار!!.

* * *

الفصل الرابع

الموقف من وعد الله

بَيْنَ تَصْدِيقِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكْذِيبِ الْمُنَافِقِينَ

ينظرُ المؤمنون إلى وعدِ اللهِ نظرةً إيمانيةً إيجابيةً، فيصدِّقون به، ويوقنون بتحقُّقِه ووقوعِه، ويزيدُهم ذلك إيماناً وتسليماً.

أما المنافقون فإنَّ نظرتَهم إلى وعدِ اللهِ سلبيةٌ متشكّكةٌ، لأنَّهم يكذِّبونَ به، ويُنكرون وقوعَه.

نظرةُ المؤمنين الإيجابيةُ ناتجةٌ عن إيمانِهم بالله، وبأنَّه لا يُخلفُ الميعاد، وأنَّ وعْدَه حقٌّ وصدق، وأنَّه لا ناقضَ له. ونظرةُ المنافقين السلبيةُ ناتجةٌ عن كفرِهم وشكِّهم، وعدمِ تصوُّرِهم لمظاهرِ قوةِ اللهِ وقدرتِه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الجوُّ العام في غزوة الأحزاب:

وُجدَت النظرتان في غزوةِ الأحزاب، التي وقَعتْ في السنةِ الخامسةِ من الهجرة، حيثُ عملَ زعيمُ يهودِ بني النضير ـ (حُيَيُّ بنُ أَخْطَب) ـ على تهييجِ كفارِ قريش لغزو المدينة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها.. واتفق كفارُ قريش مع كفارِ غطفانَ على التوجُّهِ إلى المدينةِ لهذه الغاية، ولما علمَ الرسولُ ﷺ بذلك أَمرَ بحفرِ الخندقِ حولَ المدينة.

ولما حاصرَ أحزابُ الكفرِ المدينة، أقنعَ (حُيَيُّ بنُ أخطب) صاحبَه (كعبَ ابنَ أَسَد) زعيمَ يهودِ بني قريظةَ على نقْضِ عهدِهم مع رسول الله ﷺ، والانضمامِ إلى تحالفِ أحزابِ الكفرِ!.

واشتدَّ الأمرُ على المسلمين، وعظُمَ الخطرُ بتحالفِ قريشٍ وغطفان واليهود، وحرصَ رسولُ الله ﷺ على تثبيتِ المسلمين، ورفْعِ معنوياتهم، وثَبَتَ المؤمنونَ المجاهدونَ على الحقِّ، واقتدَوْا في ذلك بالرسولِ ﷺ، بينما حرصَ

المنافقونَ على نشْرِ الإشاعاتِ، لإضْعافِ المجاهدين، وعلى التشكيكِ بما يقولُه ويفعلُه رسولُ اللهِ ﷺ.

وقد ذكرَ القرآنُ موقفَ المؤمنين وموقفَ المنافقين، عندما صَوَّرَتْ آياتُه الحالةَ العامةَ الخطيرةَ التي عاشَها المسلمون في غزوة الأحزاب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢١ ـ ٢٣].

ندعو إلى تدبُّر هذه الآياتِ، التي تُصوِّرُ الأجواءَ العامةَ لغزوةِ الأحزاب، ومواقفَ وتحرّكات أطرافِها، ولسْنا في معرضِ تفسيرِها هنا.

المؤمنون والزلزالُ الكبير:

بدأت الآيات بتذكيرِ المؤمنين بنعمةِ الله عليهم، عندما خلَّصَهم من جنود الكفّار، حيثُ أرسلَ عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة، وجعلَهم يُؤْثرون الانسحابَ للنجاةِ بأنفسِهم.

جاءَ فريقٌ من الكفّار من فوقِ المسلمين، وهم المشركون من قريشٍ وغَطفان، بينما جاءَ فريقٌ آخرُ منهم من أسفل، وهم يهود بني قريظة، بعدما نقضوا عهدهم مع رسولِ الله ﷺ، وبذلك أَطبقَ الكفارُ على المسلمين من جميع الجوانب.

وتأثَّرَ المسلمونَ بالأحداث، وشعروا بالخطر، وخافوا خوفاً شديداً،

يكفي لمعرفةِ خطورتِه تدبُّرُ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ .

زاغَتْ أبصارُ فريقٍ من المؤمنين من الخوف، وبلغتْ قلوبُهم حناجرَهم من شدةِ الرعبِ والقلق، وظنُّوا بالله ظنوناً عديدة، ووقعَ الزلزالُ الكبير، الذي هزَّ نفوسَهم ومشاعرَهم وأعصابَهم هزّاً عنيفاً، وابتلاهم اللهُ ابتلاءً قوياً!.

ولم يستمرَّ الخوفُ والفزعُ والرعبُ والقلقُ عند المجاهدين إلا فترةً قصيرة، تجاوزوها بسرعة، وتغلَّبوا عليها بفاعلية، إذْ سرعانَ ما عادَ إليهم يقينُهم وهدوؤُهم واطمئنانُهم، وقويتْ عزائمُهم وهممُهم، فثَبَتوا وجاهَدوا، ووثقوا بوعْدِ الله، وصَدَقوا ما عاهَدوا اللهَ عليه، فمنَّ عليهم بالنصر.

الشاكّون في وعد الله فريقان:

ذكرَ اللهُ تثبيطَ المنافقين للمؤمنين، وشكَّهم في وعدِ الله، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

الذين شكُّوا في وعْدِ اللهِ فريقان:

الفريق الأول: المنافقون: وهم الذين يُخفون في قلوبهم الكفر، ويُظْهِرون أمامَ المسلمينَ الإيمانَ والإسلام، وهؤلاء كفارٌ في الحقيقة.

الفريق الثاني: الذين في قلوبهم مرض، وهم مسلمون ليسوا منافقين، لكنّهم ضعفاءُ الإيمان، ومرضُ قلوبهم هو الشكُّ والضعف، وسقوطُ الهمةِ والعزيمة.

وهؤلاء تأثّروا بإشاعاتِ ودعاياتِ المنافقين، وصاروا يُردِّدونها معهم، بهدفِ إضعافِ المسلمين المجاهدين.

أعلن الفريقان - المنافقون ومرضى القلوب - الشكَّ في وعدِ الله، وقالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

أي: أَنتم أَيها المسلمون، تزعمونَ أنَّ اللهَ وعدَكم النصرَ على أَعدائِكم، ونجاتَكم من الخطر، وأنَّ الرسول - ﷺ - بشَّرَكُم بقربِ تحقُّقِه ووقوعِه على أرضِ الواقع! لا تحلموا بذلك، فإنه لن يتحقَّق على أرض الواقع، ووعْدُ اللهِ ورسولِه

لكم ما هو إلا غرورٌ وخداع، وأوهامٌ وأمانٍ خيالية!.

وهذا الكلامُ الخطيرُ من المنافقين ومرضى القلوبِ، شَكٌّ في تحقُّقِ وعدِ الله، وتكذيبٌ بوقوعِه، وتشكيكُ المؤمنين به.. ووعْدُ الله بالنسبة لهم ليس حقاً، وليس صدْقاً! وهذا تكذيبٌ صريحٌ منهم لله ولرسولِه ﷺ.

بشارات الرسول ﷺ أثناء حفر الخندق:

ذكرت رواياتُ السيرة تبشيرَ الرسولِ ﷺ أصحابَه بالنصرِ والتمكينِ، وظهورِ الإسلام في العالم، وذلك أثناءَ حفرِ الخندق، قُبيلَ حصارِ المشركين للمدينة.

روى أحمد في المسند [٤/٣٠٣]، والنَّسائي [٦/ ٤٣ ـ ٤٤] عن البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: لما كانَ حينَ أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ بحفرِ الخندقِ، عرضَتْ لنا في بعضِ الخندقِ صخرة، لا تأخذُ فيها المعاول، فاشْتكَينا إلى رسولِ الله ﷺ، فجاءَنا فأخذَ المعول، فقال: «بسم الله»، فضربَ ضربةً، فكسرَ ثُلثَها، وقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ الشام، واللهِ إني لأُبصرُ قصورَها الحمرَ الساعة!». ثم ضربَ الثانيةَ، فقطعَ الثلثَ الآخر، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ فارس، واللهِ إني لأُبصرُ قصْرَ المدائنِ أبيض!..». ثم ضربَ الثالثة، وقال: «بسم الله»، فقطع بقيةَ الحجر، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن، واللهِ إني لأُبصرُ أبوابَ صنعاء من مكاني هذا الساعة!..».

وروى ابنُ إسحاق هذه الحادثة بلفظٍ آخر، قال: «قالَ سلمانُ الفارسي: ضربْتُ في ناحيةٍ من الخندقِ، فغلظَتْ عليَّ صخرة، ورسولُ الله ﷺ قريبٌ مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدّة المكانِ عليَّ، نزل، فأخذَ المعولَ من يدي.. فضربَ به ضربةً، فلمعتْ تحتَ المعولِ بَرقة، ثم ضربَ به ضربةً أُخرى، فلمعتْ تحته برقةٌ أخرى، ثم ضربَ به الثالثة، فلمعتْ تحتَه بَرقةٌ أُخرى.

فقلتُ: بأبي أنت وأُمي يا رسولَ الله. ما هذا الذي رأيتُ، لمعٌ تحتَ المعولِ وأنتَ تضرب؟.

قال: «أوَقدْ رأيتَ ذلك يا سلمان؟».

قلتُ: نعم!.

قال: «أمَّا الأُولى، فإنَّ اللهَ فتحَ عليَّ بها اليمن، وأمَّا الثانيةُ فإنَّ اللهَ فتحَ عليَّ بها الشامَ والمغرب، وأما الثالثةُ فإنَّ اللهَ فتحَ عليَّ بها المشرق!».

قال ابنُ إسحاق: وحدَّثني مَنْ لا أتَّهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه كان يقول، حين فُتِحَتْ هذه الأمصار، زمنَ عمرَ وعثمان: افتحوا ما بَدا لكم، فوالذي نفسُ أبي هريرةَ بيده، ما افتتحتُم من مدينة، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة، إلاّ وقد أعطى اللهُ سبحانَه محمداً ﷺ مفاتيحَها قبل ذلك!» [سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠].

الرسول ﷺ يرفع معنويات أصحابه:

الرسول ﷺ حريصٌ على رفع معنوياتِ أصحابه، وتقديمِ البشرى والأملِ لهم، ليزدادوا جهاداً وعملاً وثباتاً، وتصديقاً بوعْدِ اللهِ.

فها هو يضربُ الصخرةَ في الخندقِ ثلاثَ ضربات، وبعدَ كلِّ ضربةٍ يقدمُ للمسلمين بشرى بالنصر في المستقبل. بشَّرهم بعد الضربةِ الأُولى بفتح قصورِ الشام، وبشَّرهم بعد الضربةِ الثانية بفتح قصورِ فارس، وبشَّرهم في الضربةِ الثالثةِ بفتحِ قصورِ اليمن!.

واللطيفُ في البشرى، أنّها جاءتْ والمسلمونَ في حالةِ حصارٍ شديد، ووجودُهم نفسُه في خطر، وأحزابُ الكفرِ تحيط بهم، لتقضيَ عليهم، وقد لا يَخرجون من هذه المحنةِ سالمين، وفق التوقُّعات البشرية!.

في هذا الجوِّ المكروب، لا يبشِّرهم رسولُ الله ﷺ بتجاوزِ المحنةِ والنجاةِ من الخطر فقط، وإنما يبشّرهم بفتحِ بلادِ الشامِ والعراق واليمن، ودخولِ أَهلها في الإسلام!.

وهو لا يقولُ هذا من عنده، إنما بتوجيهِ من الله، الذي أَوحى له بذلك، وملأَ قلْبَه يقيناً بتحقُّقه، وطلبَ منه تبشيرَ المؤمنين بذلك، ليقْتَدوا بهِ في هذا الأمَل!.

موقف المنافقين والمؤمنين من وعد الرسول ﷺ:

لما سمعَ المنافقون والذين في قلوبِهم مرضٌ ذلك، كَذَّبوا به، وشكُّوا في

وقوعِه، وشكَّكوا المسلمينَ بذلك، وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وأوردَ ابنُ إسحاق ما قالَه أحدُهم، فقال: «.. وعَظُمَ عند ذلك البلاء، واشتدَّ الخوف، وأَتاهم عدوُّهم من فوقِهم، ومن أسفلَ منهم، حتى ظنَّ المؤمنون كلَّ ظن، ونجمَ النفاقُ من بعضِ المنافقين، حتى قال (مُعْتِبُ بنُ قُشَيْر): كان محمدٌ يَعِدُنا أَنْ نأكلَ كنوزَ كسرى وقيصر، وأَحدُنا اليومَ لا يأمنُ على نفسِه أنْ يذهبَ إلى الغائط!!...» [سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٠٢].

وإذا كان هذا هو موقفُ المنافقين من وعْدِ الله، قائماً على التكذيبِ به، والإنكارِ لوقوعه، فإنَّ موقفَ المؤمنين قائـمٌ على اليقينِ به، والجزمِ بتحقُّقه ووقوعِه، وتصديقِ اللهِ ورسولِه.

وأخبرَ اللهُ عن موقفِهم الإيجابيِّ العظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

لمَّا رأوا جنودَ الأحزابِ لم يجبُنوا، ولم يَنسحبوا، ولم يَنهزموا ولم يَفِرّوا، وبقيَ كلُّ واحدٍ منهم على إيمانِه ويقينِه، وثباتِه وتصديقِه، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: لقد وَعَدَنا اللهُ في آياتٍ قرآنيةٍ سابقةٍ، أَنْ يحاربَنا الأعداء، وأنْ يصيبَنا البلاءُ والابتلاء، لكنَّه وعدَنا بعدَ ذلك النصرَ القريب، إنْ صبرْنا وثبتْنا. ومجيءُ أحزابِ الكفرِ إلينا هو تصديقٌ واقعيٌّ لذلك الوعدِ الربّاني، وعلينا أنْ نصبرَ ونثبت، لننالَ نتيجةَ ذلك.

أوردَ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِه قولَ ابنِ عباس وقتادة في معنى الآية: «قال ابنُ عباس وقتادة: يعنونَ بقولِهم: هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه، قولَه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أيْ: هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه، من الابتلاءِ والاختبارِ والامتحان، الذي يعقبُه النصرُ القريب.. وما زادَهم ذلك الحالُ والضيقُ والشدةُ إلاّ إيماناً بالله، وتسليماً وانقياداً لأوامره، وطاعة لرسولِه ﷺ» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٥٧].

ما فعله المنافقون والمؤمنون في الميدان:

شكُّ المنافقين ومرضى القلوبِ بوعْدِ الله، وتكذيبُهم له، موقفٌ سلبي، نتجَ عنه فعلٌ خبيث، صدرَ عنهم، قال اللهُ عنه: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

تركوا مواقعَهم في الميدان، وفرّوا من المواجهةِ والجهاد، وكَذَبوا على رسولِ الله ﷺ، وثبَّطوا هِمَمَ المجاهدين، ودَعوهم إلى تركِ مواقعِهم الجهادية، والذهابِ إلى بيوتِهم، طلباً للنجاةِ والسلامة!.

أمَّا تصديقُ المؤمنين المجاهدين بوعْدِ الله، وتأكُّدُهم من وقوعِه، ويقينُهم بتحقُّقِه في الواقع، فإنَّه موقفٌ إيجابيٌّ عظيم، نتجَ عنهُ موقفٌ جهاديٌّ كبير، أثنى اللهُ عليهم من أجله. قال تعالى عنه: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢ ـ ٢٣].

زادَهم تصديقُهم بوعْدِ الله إيماناً بالله، وتسليماً لأمْرِه، وطاعةً لرسوله ﷺ، وثباتاً على الحق، وجهاداً في سبيل الله.

الموقفان مكروران في التاريخ الإسلامي:

هذان الموقفانِ من وعْدِ الله، مكرورانِ في المسلمين، بعدَ نزولِ الآياتِ من سورة الأحزاب، على اختلافِ الزمان.. وأَوضحُ ما يكونان عند المحنِ الكبرى والشدائدِ العظمى؛ فالذين في قلوبِهم مرضٌ يُكَذِّبون ويُشَكِّكون، ويقولون: ما وعَدَنا اللهُ ورسولُه إلاّ غُروراً.. والمؤمنون المجاهدون الثابتون يقولون: هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه وصدقَ اللهُ ورسولُه، وما زداهم إلا إيماناً وتسليماً.

وأكثرُ ما يكون الموقفانِ وُضوحاً في هذا العصر، الذي ابتُلي المسلمون بما ابْتُلوا به من المصائبِ والمحنِ والابتلاءات!!.

* * *

الفصل الخامس

وجوب الثقة المطلقة بالنص القرآني

اليقينُ بأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وأنَّ وعْدَه حقٌّ وصدق، لا بدَّ أنْ يتحقَّق، يرتبطُ بقاعدةٍ إيمانيةٍ أساسية، نتعاملُ مع نصوص القرآن على أساسها.

هذه القاعدةُ تقررُ وجوبَ الثقةِ المطلقةِ بالنصِّ القرآني، والتسليمِ التامِّ بدلالته، وإِخضاعِ الواقعِ المخالِفِ له، والتوفيقِ بين النصِّ القرآني الجازمِ وبين الواقعِ المخالِف في الظاهرِ له.

وهذه القاعدةُ القرآنيةُ ترتبطُ بنظرتِنا إلى القرآن، وتدبُّرِنا له، وتعاملِنا معه، وإيمانِنا بالله الذي أنزلَه.

كل ما في القرآن حق وصدق:

من التعظيمِ والتقديرِ لله يكون التعظيمُ لكتابه، ومن التعظيمِ للقرآن يكونُ حُسنُ الفهمِ لنصوصِه، ومن حُسنِ الفهمِ لنصوصِه تكونُ الثقةُ المطلقةُ بها، واليقينُ التامُّ بدلالاتها.

إنَّ ما قالَه اللهُ في القرآن هو الحقُّ والصدقُ والصواب، وإنَّ ما قرَّره هو الصحيحُ، ولا يجوزُ أَنْ يتطرَّقَ إلينا في ذلك شكٌّ أو ريب.

تجبُ الثقةُ المطلقةُ في حقائقِ القرآنِ التاريخية، والتشريعية، والعلمية، والإنسانية، والأخلاقية، والجهادية... وغير ذلك.

ولْنذكُرْ بعضَ الآياتِ التي قد لا يثِقُ بعضُ الناسِ بها، ولا يسلِّمون بمدلولِها، بزعمِ مخالفتِها لمنطقِ العقل، أو لحركةِ التاريخ، أو للتقدّمِ المعاصر.

النار بردٌ وسلامٌ على إبراهيم عليه السلام:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا

﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

تخبرُ الآياتُ أنَّ قومَ إبراهيمَ عليه السلام أوقدوا له ناراً ضخمةً، وألْقَوه فيها ليموتَ حرقاً، ولكنَّ اللهَ أنقذَه منها، حيثُ أمرَها أنْ لا تُحرقَه، وإنما تكونُ برداً وسلاماً عليه، فكانت كما أمرَها الله، وبذلك خسرَ أعداؤُه الكافرون.

وأصحابُ التفكيرِ الماديِّ لا يُصدّقون بهذا، إذ كيف يكونُ رجلٌ داخلَ نارٍ مشتعلةٍ ولا تحرقه؟! والنارُ من طبيعتها الإحراق..

عندما ننظرُ للمسألةِ من زاويةِ قدرةِ اللهِ وإرادتِه، فلا نستغربُ هذا، بل يكونُ آيةً من آياتِ الله، الدالَّةِ على قدرتِه المطلقة، وبما أنَّ اللهَ أرادَ ذلك، فهو متحقّقٌ بدون شك، وبما أنه أخبرَنا عن ذلك بصريحِ القرآن، فإنه حصلَ عملياً كما أخبرَ الله!.

آثار حرب الله على المرابين:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

يدعو اللهُ المؤمنينَ إلى تقواه، والتخلّي عن الربا، ويهدّدُهم بالحربِ إنْ لم يفعلوا ذلك.

والآيةُ الثانيةُ صريحةٌ في إعلانِ الحربِ على الذين يتعاملون بالربا، إنَّ اللهَ سبحانه هو الذي يعلنُ الحربَ عليهم، وهو القويُّ القاهرُ الغالبُ سبحانه! ومَنْ أعلنَ اللهُ عليه الحرب فهو الخاسرُ الهالك، في الدنيا والآخرة.

ولقد صدَّقَ العالمُ المعاصرُ بكلِّ حكوماتِه، الإشاعةَ الإسرائيليةَ المعاصرة المتعلقة بالاقتصاد، والتي تعتبرُ التعاملَ بالربا ضرورةً اقتصادية، حتميةً معاصرة، ولا يمكنُ لحكومةٍ أو شركةٍ أو تجارةٍ أو فردٍ أو جماعة، النجاحَ في المالِ والاقتصاد والحياة، إلا بالتعامل بالربا! وبذلك انتشرَ الربا في جميعِ بلدانِ العالم، ومنها البلدان المسلمة.

ومن بابِ الثقةِ المطلقةِ بالنصِّ القرآني، على المتدبّر للقرآنِ أنْ يلاحظَ آثارَ

الحقيقةِ التي تقرّرُها، على الواقع من حولِه، أَيْ أنْ يرى مظاهرَ الحربِ التي أعلنَها اللهُ على العالمِ المرابي اليوم.

إنَّ العالمَ اليومَ يدفعُ أثمانَ إعلانِ اللهِ الحربَ عليه، بسببِ إجماعِ حكوماته على أكلِ الربا، وهذه الحربُ الربّانية وصلت كلَّ حكومة، وكلَّ مؤسسة، وكلَّ شركة، وكلَّ دخلٍ أو مال، وكلَّ اقتصادٍ أو صناعةٍ أو تجارة، والمؤمنُ البصيرُ هو الذي يلحظُ هذا!.

الجهاد تجارة رابحة مُنجية:

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١].

تقررُ هذه الآياتُ أنَّ الجهادَ في سبيلِ الله هو التجارةُ الرابحة، المنجيةُ من العذاب الأليم، وأنَّ هذا الجهادَ خيرٌ للمسلمين من القعودِ عنه وتركه.

ولا بدَّ للمسلم من الثقةِ المطلقةِ بما تقررُه الآيات، واليقينِ الجازمِ بأنَّ الجهادَ تجارةٌ رابحة، وأنَّ القعودَ تجارةٌ خاسرةٌ هالكة، وأنَّ هذا الجهادَ خيرٌ للمسلمين، لأنَّ اللهَ العليمَ الحكيمَ هو الذي قرر هذا.

وهذا معناه: أنْ لا يُصدقَ المؤمنُ كلامَ أيِّ إنسان، إذا تعارضَ مع هذه الآيات، كأنْ يعتبرَ الجهادَ شرّاً وخسارةً للأمة، لأنَّ فيه تهوُّراً واندفاعاً و(توريطاً) لها!!.

ضرُّ اليهود مجرَّد أذى خارجي:

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

هذه الآيةُ في سياقِ آياتٍ، تتحدّثُ عن المواجهةِ بين المسلمين، وبين أهلِ الكتابِ ـ واليهودُ منهم على وجهِ الخصوص ـ؛ يُخبرُنا اللهُ فيها أنَّ اليهودَ لن ينجحوا في القضاء على المسلمين، رغم ما يبذلونَ من جهودٍ لأجل ذلك، وكلُّ ما يمكنُ أنْ يضرّوا به المسلمين هو أذى!.

والأذى ظاهريٌّ سطحي، يتمثّلُ في الخسائرِ المادية، من تدميرٍ أو هدمٍ أو

قطع، وفي الجرحى والشهداء، الذين يُصابونَ في المواجهات، وفي الأسرى والمعتقلين، وما يُصَبُّ عليهم من صنوفِ التعذيبِ والاضطهاد.. كلُّ هذا أذى ظاهري، يمكنُ تحمُّله واحتماله، بالصبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ والاحتساب!.

والمؤمنُ المرابطُ المجاهد، الذي يتصدَّى للهجمةِ اليهوديةِ المعاصرة على الإسلام والمسلمين، يوقنُ بهذه الحقيقة يقيناً جازماً، ويثقُ بها ثقةً مطلقةً، وهذا يدفعُه إلى مزيدٍ من المواجهة والتصدّي، لأنَّ الأذى يمكنُ تحمُّله والصبرُ عليه!.

التوفيقُ بين الآيات والواقع:

هناك بعض الحقائق، تقررُها بعضُ الآيات، تصطدمُ في ظاهرِها مع الواقع المعاصر، الذي يعيشُه المسلمون، حيث يختلفُ هذا الواقعُ مع تلك الحقائق، وقد يشكُّ بعضُ المسلمين في حقائق تلك الآيات، تحت ضغطِ الواقع الذي يعيشُه، وبذلك يحصلُ الشكُّ في الآيات، وتزولُ الثقة فيها.

والمؤمنُ البصيرُ يُزيلُ التعارضَ الظاهريَّ بين الآياتِ والواقع، ولا تتأثرُ ثقتُه المطلقةُ بالنص القرآني، فهو ينطلقُ من هذه الثقةِ المطلقةِ في إخضاع الواقع المخالفِ للنص، ويُحيلُ السببَ على هذا الواقع المخالف، وليس على الحقيقةِ القرآنية، وذلك بعدم تحقق الشروط التي تشترطها الآية، أو عدمِ تحققِ الأجواء، أو الظروف، أو الزمان، أو المصلحة، أو غير ذلك.

ذلَّة اليهود وكيانهم المعاصر:

لنذكرْ بعضَ الأمثلةِ القرآنيةِ على ذلك:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...﴾ [الأعراف: ١٦٧].

تتحدَّث الآيةُ عن اليهودِ، المخالفين لشرع الله، ويخبرُنا اللهُ فيها أنّه قضى أن يبعثَ عليهم أقواماً، يسومونهم سوءَ العذاب، وسيبقى هذا حتى يوم القيامة، فالذلةُ والمسكنةُ ملازمةٌ لليهود!.

والواقعُ المعاصرُ لليهود في هذا الزمان، يتعارضُ ظاهرياً مع هذه الآية، فها هم يُسيطرونَ على العالم أجمع، سياسياً وإعلامياً، واقتصادياً وفنياً، وقد

نجحوا في إقامةِ دولةٍ قويةٍ لهم على أرض فلسطين. . وهم الذين يُذِلُّون الآخرين، ويسومونهم سوءَ العذاب!.

ولا يتعارضُ ما عليه اليهودُ مع ما تقرّره الآية، لأنّ ما هم عليه الآن ما هو إلا فترةٌ قصيرةٌ، يأذنُ اللهُ لهم فيها بنوعٍ من القوة والتمكين، يعودون بعدَها إلى الذلّة والمسكنة، ويبعثُ اللهُ عليهم مَنْ يسومونَهم سوءَ العذاب.

ثم إنَّ ما هم عليه في هذه الفترةِ الزمنيةِ القصيرة، من قوةٍ وتمكين، سيكونُ عاملاً من عواملِ الإسراعِ في إذلالهم، لأنّهم سيتكبَّرون على الآخرين ويستعبدونهم، ويُذِلُّونهم، وسيواجههم الآخرون بمزيدٍ من الكراهيةِ والبغضاء، والعملِ على الأخذِ بثأرِهم منهم، والحرصِ على إذلالِهم. . فاليهودُ في هذا الزمانِ صائرونَ إلى ما كتبَهُ اللهُ عليهم من الذلّة والمسكنة.

وأشارتْ آيةٌ أُخرى إلى هذه المرحلةِ الانتقاليةِ الخاصة، التي يمرّون بها، في سيرهم من ذُلِّ الماضي إلى ذلِّ المستقبل. قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

نصر المؤمنين وواقعنا المعاصر:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

عندما كانتْ مهمةُ الرسلِ تنتهي عندَ أقوامهم، كان اللهُ ينصرُ الرسلَ على الكافرين، ويُنجيهم من مكائدِهم، وينتقمُ من الكافرين المجرمين، بإهلاكهم وتدميرهم.

وكتبَ اللهُ على نفسِه نصرَ عبادِه المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ مطردة، تنطبقُ على أمثلةٍ وشواهدَ عديدةٍ في الماضي، وردَ بعضُها في التاريخِ البعيد، وبعضُها في تاريخِ المسلمين الصالحين من هذه الأمة!.

ولكنَّ الواقعَ المعاصرَ للمسلمين لا يتفقُ مع هذه الحقيقةِ القرآنية، فقد

هُزِموا في كثيرٍ من المعارِك التي خاضوها، وأعداؤُهم هم الذين انتصروا عليهم! والسببُ في ذلك هم المسلمون أنفسهم، لأنَّ نصرَ اللهِ للمؤمنين مشروطٌ بنصرِهم للهِ أوَّلاً. قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ولم ينصر المسلمون المعاصرون اللهَ حقاً، ولذلك لم ينالوا نصْرَ الله.. وسنةُ الله لا تتخلف، ولكن لا بدَّ من الأخذِ بشروطها!.

* * *

الفَصْلُ السَّادِسُ

تحقق الأخبار المستقبلية في القرآن

من الحقائقِ الإيمانيةِ القرآنيةِ أنَّ اللهَ اختصَّ بعلمِ الغيب، وهو ما غابَ عن الناس، من العوالمِ والأحداث، والوقائعِ والأشياء، ولا يعلمُ أحدٌ من البشرِ شيئاً من الغيب، إلاّ ما علّمه اللهُ إيّاه. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٥ـ٢٧].

وأَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يعترفَ بأنَّه لا يعلمُ من الغيبِ، إلا ما علَّمَه اللهُ إياه. قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ . . . ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

عوالم الغيب الثلاثة في القرآن:

لقد تحدَّث القرآنُ حديثاً مفصَّلاً عن ثلاثةٍ من عوالمِ الغيب:

الأول ـ غيبُ الماضي: وهو الأحداثُ التي وقعتْ قبلَ بعثةِ رسولِ الله ﷺ، وإنزالِ القرآن عليه، مثلُ الحديثِ عن خلْقِ السمواتِ والأرض، وتفاصيلِ خلْقِ آدم أبي البشر عليه السلام، وما جرى بينَه وبينَ إبليس، وإهباطِه من الجنّةِ إلى الأرض.. وتفاصيلِ ما جرى بين الرسلِ وأقوامهم، من نوحٍ إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

الثاني ـ غيبُ الحاضر: وهو حديثُ القرآن عن الأحداث، التي وقعتْ في حياةِ رسولِ الله ﷺ، حيثُ كانَ القرآنُ النازلُ عليه يُشيرُ إليها ويعالجُها، ويستخلصُ دروسَها وعِبرَها، ويَدخلُ ضمنَ هذا الغيبِ العلمُ المسمّى: (أسباب النزول).

ومن غيبِ الحاضر حديثُ القرآن عن (عوالمَ) غيبية، موجودةٍ في الواقع، لكننا لا نراها، مِثلُ وجودِ اللهِ وصفاتِه وأفعالِه، ووجودِ الملائكةِ وأعمالهم،

ووجودِ الجنِّ وأصنافهم، ووجودِ الجنّة والنار، وغير ذلك.

الثالث ـ غيب المستقبل: وهو حديثُ القرآنِ عن أحداثٍ مستقبليةٍ قادمة، وجزمُه بوقوعها.. وهذه الأحداثُ قد تكونُ قريبةً من نزولِ الآية، ووقعتْ في حياة الرسولِ ﷺ وأصحابِه، وقد تكونُ بعيدة، وقعتْ بعدَ عهدِ الصحابةِ بفترة، ومنها ما هو واقعٌ في هذا الزمان، ومنها ما سيقع في آخرِ عمرِ البشرية، ومنها ما سيقع في الآخرة بعدَ قيامِ الساعة!.

تحقيق غيب المستقبل في القرآن:

كلُّ ما أخبرَ القرآنُ عنه من أَحداثِ غيبِ المستقبلِ وقعَ وتحقَّق، كما أَخبرَ عنه القرآن.

وهذا متعلِّقٌ بما سبقَ أنْ قرَّرْناه في المباحث السابقة، مِنْ أنَّ كلامَ اللهِ حقٌّ وصِدق، ولا أحدَ أصدقُ في قوله وحديثه من الله، ومن أنَّ اللهَ أحاطَ علماً بكلّ شيء، بما كان وما سيكون، وهو قادرٌ على كلّ شيء، ولا يحدثُ شيءٌ في هذا الكون إلا بأمر الله وإرادته سبحانه.

فاللهُ عَلِمَ أنّه سيوجِدُ كذا في وقتِ كذا، وعند مجيء ذلك الوقت، تتوجَّهُ إرادته سبحانه إليه، فيوجِدُه كما شاءَه وأَراده.

وتحقُّقُ الأخبارِ المستقبلية في القرآن، كما أخبر عنها، دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليسَ كلامَ النبيِّ ﷺ. فلو كان من كلامِه ﷺ، لما عَرَفَ عليه الصلاة والسلام: أنَّ تلكَ الأحداث ستقع، في المستقبل القريبِ أو البعيد، لأنّه لا يعلمُ غيبَ المستقبلِ إلا الله! قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

انتصار الروم على الفرس:

نقدمُ فيما يلي أمثلةً للأَخبارِ المستقبلية التي أخبرَ عنها القرآن، وتحققَتْ كما أخبرَ عنها القرآن.

أولاً ـ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

تخبرُ الآياتُ عن هزيمة الرومِ أمامَ الفرس، في حرب وقعَتْ قبلَ نزولِها، ثم تُخبرُ عن تغلُّبِ الرومِ على الفرس، بعد بضعِ سنين من نزولِها.

وسورةُ الرومِ مكية، وهذه الآياتُ أخبرَت المسلمين، وهم مستضعفون في مكة، عن انتصارِ الرومِ على الفرس، خلالَ بضعِ سنين.

وقد تحقّق ما أخبرتْ عنه الآيات، حيثُ وقعتْ معركةٌ فاصلة، بعدَ سبعِ سنوات من نزولها، هَزَمَ الرومُ فيها الفرسَ.

روى الترمذي [برقم: ٣١٩٤] عن (نَيَّار بن مُكَرَّم الأسْلَميّ) رضي الله عنه، قال: «لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ... ﴾ وكانت قريشٌ تحبُّ ظهورَ الفرس، لأنّهم وإيّاهم ليسوا بأهلِ كتاب، ولا إيمانٍ ببعث.

فلما أنزلَ اللهُ هذه الآيات، خرجَ أبو بكر رضي الله عنه يَصيحُ في نواحي مكة، يُردّدُ قولَه تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ...﴾.

فقالَ أُنـاسٌ لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم! لقد زعمَ صاحبُكم أنَّ الرومَ ستغلبُ فارس في بضعِ سنين، أفلا نراهنُك على ذلك؟.

قال أبو بكر: بلى ـ وذلك قبل تحريمِ الرهان ـ.

فارتهنَ أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان.

وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ المدَّة؟ فإنَّ البِضْعَ من ثلاث سنين إلى تسعِ سنين.

قال أبو بكر: سَمُّوا ستَّ سنين!.

فمضت السِّتُّ سنين، قبل أنْ يظهرَ الرومُ على الفرس، فلما دخلت السنةُ السابعة ظهرت الرومُ على الفرس!.

وعابَ المسلمون على أبي بكر تسميةَ ستِّ سنين، لأنّ الله قال: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضعُ من الثلاثِ إلى التسع.. وأسلمَ عندئذٍ ناسٌ كثير..».

موت أبي لهب كافراً:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المسد].

أبو لهبٍ هو عمُّ النبيِّ ﷺ، كانَ شديدَ العداوةِ والبغضاءِ له، ويُحرضُ قومَه عليه.

وقد أنزلَ اللهُ هذه السورةَ يتوعَّدُه، ويقرّرُ خسارتَه وتَبابَه، ويَدعو عليه بتَباب يده، وتَبابِ حياتِه، وأنّه لا ينفعُه مالُه، ولا يغني عنه كسبُه ودخلُه وتجارتُه، وامرأتُه شريكةٌ له في تَبابِه وخسارتِه..

وجزمت السورةُ أنَّ أبا لهبٍ وامرأتَه حمّالةَ الحطب، سيموتان كافريْن، وسيَصْلَيان ناراً ذاتَ لهب!.

ومع ذلك دعا رسولُ اللهِ ﷺ عمَّه أبا لهب، للدخول في الإسلام، ولكنّه رفضَ الدعوة، وأصرَّ على كفرِه وتكذيبِه وعداوتِه.

وتحققَ ما جزمَ به القرآن، حولَ مصيرِ أبي لهب، حيث مات كافراً بعدَ غزوةِ بدر. وهذا الجزمُ بمستقبلِه البائس، وتحقُّقُه في عالمِ الواقع، دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وعلى تحقُّق الأخبار المستقبلية التي وردَتْ فيه.

عجز الكفار الأبدي عن معارضة القرآن:

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

الخطابُ للكفار، الذين لا يؤمنون بأنَّ القرآنَ كلامُ الله، أنزلَه على عبدِه ورسولِه محمدٍ ﷺ، ويُرشدُهم القرآنُ إلى وسيلةِ إزالةِ الريبِ والشكِّ الذي هم فيه، وذلك بأنْ يُعارضوا هذا القرآن، بالإتيانِ بسورةٍ من مثله، ودعوةِ شهدائِهم ليُعينوهم على ذلك.

وهذه الآيةُ من آياتِ التحدّي في القرآن، بهدفِ إقرارِ الكفارِ بالعجز،

وإثباتِ أنَّ القرآنَ كلامُ الله. وذلك أنَّ هذا القرآنَ أُنزلَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ولغةُ الرسولِ ﷺ لغةٌ عربيةٌ فصيحة، والكافرون كانوا عَرَباً فصحاءَ بُلَغاء. ولما سمعُوا القرآنَ من رسـولِ الله ﷺ، أَنكروا أَنْ يكونَ كـلامَ الله، وزعمـوا أنه من تأليفِـه وصياغتِه هو.

فتحدّاهم اللهُ بهذه الآيةِ وأَمثالِها، وطالبَهم بالإتيانِ بسورةٍ مثلِ هذا القرآن، في فصاحتِه وبلاغتِه وأُسلوبِه. فإنْ كانَ القرآنُ من تأليفِ محمدٍ ﷺ، فلن يعْجزوا عن ذلك، وسيأْتونَ بالسورةِ المطلوبة، لأنَّهم عرب فصحاء، ومحمدٌ ﷺ هو الأفصح.

فإنْ عَجَزوا عن الإتيانِ بالسورةِ المطلوبة، دلَّ ذلك على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، أنزلَهُ على نبيِّهِ محمدٍ ﷺ، ودلَّ هذا على أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، ولا بدَّ أنْ يُقِرَّ الكفارُ العاجزون بذلك، ويَدخلوا في الإسلام، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

والشاهدُ في آيةِ التحدّي في سورةِ البقرة قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ...﴾.

إنَّ جملة «ـ ولن تفعلوا ـ» جملة معترضة، تخبرُ عن أَمْرٍ مستقبلي، وتُقرِّرُ فيه أنَّ الكفارَ لنْ يفعلوا المطلوبَ، ولن ينجحوا في المعارضة، وسيعْجِزون عن الإتيانِ بالسورة.

وقد تحقَّقَ ما قرَّرَتْه وجزمَتْ به الآية، فرغمَ محاولاتِ الكفار المستمرة، ورغمَ تمكُّنِهم من اللغة، إلاّ أنهم عجَزوا عن الإتيانِ بالسورةِ المطلوبة.

والعجيبُ أنَّ الجزمَ بعدم القدرةِ على المعارضة، جاءَ في سياقِ آيةِ التحدّي، ولا يمكنُ للرسول ﷺ أَنْ يجزمَ بذلك، لأنّه لا يعلمُ الغيبَ المستقبليّ، ولا يعلمُ حدودَ طاقةِ وقدرةِ الذين يتحدّاهم!! إنَّه لا يجزمُ بالعجزِ وعدم القدرةِ إلا مَنْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وكان عالماً بالغيبِ والشهادة، وكان عالماً بما كان، وعالماً بما سيكون، وهو اللهُ سبحانه!.

الدخان يغشى الكفار في مكة:

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ٩ ـ ١٦].

تُخبرُ هذه الآياتُ عن أمرٍ مستقبليّ، وقعَ بعدَ نزولِها، وهو الدخانُ الذي غشيَ أهلَ مكة، عقاباً من الله، لتكذيبِهم الرسولَ ﷺ.

وقبلَ الحديثِ عن تحقُّقِ ووقوع ما أخبرتْ عنه الآيات، نوردُ كلامَ عبدِ الله ابنِ مسعود رضي الله عنه حولَها، وهو الذي شهدَ ما أخبرتْ عنه.

روى البخاري [برقم: ١٠٠٧] عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّ النبيَّ ﷺ، لما رأى من الناسِ إدباراً، قال: «اللهمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يوسف!» فأَخَذَتْهُم سَنَة، حَصَّتْ كلَّ شيء، حتى أكلوا الجلودَ والميتةَ والجِيَف، وينظرُ أحدُهم إلى السماء، فيرى الدخانَ من الجوع!.

فأتاهُ أبو سفيان، فقال: يا محمد! إنَّكَ تأمرُ بطاعةِ الله، وبِصِلَةِ الرَّحِم، وإنَّ قومَك قد هلكوا، فادعُ اللهَ لهم».

وبعدما أورَدَ ابنُ مسعودٍ هذه الآيات الثمانيةَ السابقة، قال: «فالبطشةُ يومُ بدر، وقد مضى الدخانُ، والبطشةُ، واللِّزام، وآيةُ الروم».

وروى البخاريُّ الحادثةَ بروايةٍ أُخرى [برقم: ٤٨٠٩] عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: «سأُحدِّثكم عن الدخان؛ إنَّ رسولَ الله ﷺ دعا قريشاً إلى الإسلام، فأَبطؤوا عليه، فقال: «اللهمَّ أَعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبْعِ يوسف».

فأخَذَتْهُم سَنَة، فحَصَّتْ كلَّ شي، حتى أَكلوا المَيتةَ والجلود، حتى جعلَ الرجلُ يَرى بينه وبين السماءِ دخاناً من الجوع.

قال تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. فدعوا الله: ﴿ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ أفيكشف العذاب يوم القيامة؟.

فكُشِفَ العذاب، ثم عادوا في كفرهم، فأخذهم اللهُ يومَ بدر. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

خلاصةُ معنى الآيات، وكلامِ ابنِ مسعود رضي الله عنه حولَها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا ربَّه أَنْ يأخذَ قريشاً بالشّدَّة، بأَنْ يجعلَ عليهم سبعَ سنواتِ مَحْلٍ وجَدْب، مثل السنواتِ السبعِ الشداد، التي أصابتْ أَهْلَ مصر، في الرؤيا التي رآها الملك، وعَبَّرها له يوسفُ عليه السلام.

واستجابَ اللهُ دعاءَ الرسولِ ﷺ، وأخَذَ قريشاً بالسَّنَة، وقضى المحْلُ على كلِّ شيءٍ عندَ قريش، حتى أَكلوا المَيْتة والجلودَ والجِيف!.

وجاعوا جوعاً شديداً، حتى إنَّ الرجلَ كان إذا رفعَ رأْسَه إلى السماء، يرى فوقَ رأسِه دخاناً بينه وبين السماء، من شدةِ الجوع.

فأَتَى زعيمُ مكـة أبو سفيان، إلى رسـول الله ﷺ، وطلبَ منـه أَنْ يـرأفَ بأقاربه، لأنه يأمرُ بطاعةِ اللهِ وبصلةِ الرحم، فإنّهم قد هلكوا من شدةِ الجوع، ورجاهُ أَنْ يدعوَ اللهَ لهم بالفَرَج.

أمَّا الآيات، فإنّها تطلبُ من رسولِ الله ﷺ أنْ يرتقبَ مجيءَ السماءِ بدخانٍ مبينٍ ظاهر، يغشـى أهلَ مكـة، وهـو عذابٌ أليمٌ مـن الله، يوقعُه بهم، لكفرهم وتكـذيبهـم.. وعنـدمـا يُصـابـون بـالعـذاب، سيـدعـونَ اللهَ أَنْ يكشفَـه عنهـم، وسيتعهَّدون أَنْ يؤمنوا.. ويُخبرُهم اللهُ أَنَّه سيكشفُ العذابَ عنهم قليلاً، وسيُزيلُ المحلَ والجوعَ عنهم، لكنهم سيَنقضون عهدَهم، وسيعودون للكفر من جديد، وبعدَ ذلك سيبطشُ اللهُ بهم البطشةَ الكبرى، وهي هزيمتُهم في معركة بدر.

وقد تحققت الأخبارُ الثلاثة بعد نزولِ هذه الآيات: الدخانُ الذي غشـيَ كفارَ قريش.. وعودتُهم للكفرِ بعد كشفِ الشدةِ عنهم.. والانتقامُ منهم بالبطشةِ الكبرى يومَ بدر.

* * *

الفصل السابع

استمرار المواجهة بين المسلمين والكافرين

المواجهةُ بين الحقِّ والباطل قديمة، بدأَتْ منذُ بدايـةِ الحياةِ البشـرية، وتمثَّلت الحلقةُ الأُولى منها في ما جـرى بين آدمَ أبي البشـر عليه السـلام وبين إبليس، عندما كانا في الجنة، فلمَّا نجحَ إبليسُ في إغواءِ آدمَ وزوجِه، وأكَلا من الشجرةِ المحرَّمة، أَهبطَ اللهُ الجميعَ إلى الأرض، وأَخبرَهم أنَّ العداوةَ متأصّلةٌ بينهم، وأنّهم سينقسمون إلى فريقَيْن: مؤمنين متَّبِعين لهدى الله، وكافرين متَّبعين للباطل.

وقد قرَّرتِ هذه الحقيقةَ آياتُ كتابِ الله. منها قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٦ـ٣٩].

وكان الرسلُ والأنبياءُ يقودون المؤمنين في مواجهةِ الكافرين، بينما كان إبليسُ وأعوانُه من شياطينِ الجنِّ والإنسِ يقودونَ الكافرين في هذه المواجهة.

واستمرَّتْ هذه المواجهةُ طيلةَ القرونِ العديدة، الممتدةِ من آدمَ إلى محمد ﷺ، وكان اللهُ يُنهي كلَّ حلقةٍ من حلقاتِها، بإهلاكِ القومِ الكافرين، وإنجاءِ القومِ المؤمنين. وقد ذكرَ القرآنُ أمثلةً عديدةً لهذه الحقيقة؛ كقصة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم لوط. . .

المسلمون وحدهم على الحق:

وانتهتْ قيادةُ جندِ الحق إلى رسولِ الله ﷺ، وصارت الأُمةُ المسلمةُ هي الممثلةَ للحقّ، المتحركةَ به، الشاهدةَ على باقي الأُمم.

واقتصر الهدى على ما مع هذه الأُمةِ من رسالةٍ ومنهج، ونسخَ اللهُ الأديانَ

السابقة، وأمرَ أَتْباعَها بالدخـولِ في الإسلام، فإنْ لم يفعلوا ذلك كانوا كافرين مخلَّدين في نارِ جهنّم. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقابلت الأممُ الأُخرى هذه الأُمةَ بالعداوةِ والبغضاء، وأَعلنتْ عليها وعلى دينِها الحربَ الشديدة. وكان اليهودُ هم الأَشَدَّ عداوةً لهذه الأمة، يتحالفون مع الآخرين ضدَّها، ويُهيّجونهم على حربِها. قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

وبما أنَّ المسلمين هم الشهداءُ على الأُمم، فإنَّ رسالتَهم مستمرةٌ حتى قيام الساعة، وشهادتَهم مستمرةٌ حتى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا معناهُ: أنَّ مواجهةَ أَعدائِها لها مستمرة، حتى قيامِ الساعة، لا يتوقَّفون عن حربِها، والكيدِ ضدَّها، والتآمرِ عليها.

وقد ركَّزَتْ على هذه الحقيقة آياتٌ عديدةٌ في القرآن:

الكفار لا يحبون الخير للمسلمين:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[البقرة: ١٠٥].

تجمعُ الآيةُ بين الكفارِ من أهلِ الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وبين المشركين، وتُخبرُ أنَّهم جميعاً يكرهون المسلمين، ويتمنَّون أن يَبْقَوْا في الشَّر والضيقِ والضنْكِ والشقاء.

إنَّ الكفَّارَ من أهلِ الكتاب والمشركين لا يودُّون أَنْ ينزلَ على الأُمةِ المسلمة أيُّ خيرٍ من الله، لأنَّ حصولَها على ذلك الخيرِ معناهُ قوةُ الأُمةِ وحيويّتها، والكفارُ يريدونَ أَنْ تبقى الأُمةُ في ضعفٍ وذلٍّ وهوان.

وبما أنَّ الخيرَ للمسلمين محصورٌ بالإسلامِ والقرآن، الذي هو النور والهدى، والروح والحياة، فالكفارُ حريصون على إبعادِ المسلمين عن إسلامِهم، مصدرِ الخيرِ لهم.

والتعبيرُ عن هذه الرغبةِ الخبيثةِ بالوُدِّ مقصود، لأنَّ الوُدَّ أمرٌ قلبيّ، وأُمورُ القلب متجذِّرَةٌ فيه، وهذا معناه: أنَّ حرمانَ المسلمين من الخيرِ والعزة ليس شيئاً عارضاً عند الكفار من أهلِ الكتاب والمشركين، إنما هو قاعدةٌ راسخةٌ عندهم، وهدفٌ استراتيجيٌّ لهم، هو الباعثُ والمحرّكُ لمواجهاتِهم ضدّ المسلمين.

وهذا معناهُ: أنَّ كلَّ خططِ الكفارِ ضدَّ المسلمين تهدفُ إلى حرمانِهم من الخير، وإبعادِهم عن الهدى، وإنْ أَخْفَوْا هذا الهدف، وأَظهروا رغبتَهم في نفعِ المسلمين وإصلاحِ أَحوالِهم.. وهذا معناهُ أَيضاً: أنْ يحذرَ المسلمونَ أَعداءَهم المتآمرين عليهم، وأَنْ يَشُكّوا في كلِّ ما يقدّمونه لهم، لأنَّ الذي يحرّكهم هو حرمانُ المسلمين من كلِّ خير، وإبقاؤهم في الشّرِّ!.

حرص الكفار على ارتداد المسلمين:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

تخبرُ الآيةُ عن مواجهةِ أهلِ الكتابِ للمسلمين، وعن هدفِهم الراسخِ الثابتِ من هذه المواجهة.

إنَّ كثيراً من أهلِ الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ يودّون لو يردّون المسلمين عن إسلامهم، ويُعيدونَهم إلى الكفرِ بعدَ الإيمان، والذي دفعَهم إلى ذلك هو حسدُهم للمسلمين، بعدما تبيَّنَ لهم الحق، وأَيْقَنوا أنَّ هذا الحقَّ مع المسلمين وحدَهم.

وعندما ننظرُ في هذه الآية، التي تتحدَّثُ عن ما يحركُ الكفارَ ضدَّ المسلمين، فإنّنا سوفَ نستخرجُ منها الحقائقَ التالية:

١ ـ تَبيَّنَ للكفّار الحقُّ، وعَرفوا أنَّ اللهَ اختصَّ به المؤمنين، وأنَّ هؤلاء المؤمنين على هدى من ربهم، وقد عرف الكفارُ الكتابيّون هذه الحقيقة، من خلالِ حديثِ كتبِهم المقدَّسة عن الرسول الخاتم ﷺ، وصفاتِه العامة، وخصائص الدينِ الخاتمِ الذي بعثَه اللهُ بـه، وبهذا التبيُّنِ والوضوحِ قامَتْ عليهم الحجّـة، لئـلاّ يحتجُّوا بعدمِ المعرفة.

٢ ـ تَبَيُّنُ الحقِّ لأَهلِ الكتاب لم يأخذْ بأيديهم إلى اتّباعه، ويدلُّ هذا على

الاعوجاج المتأصّلِ المتجذّرِ في كيانهم، فالعلمُ والمعرفةُ لا يُنتجانِ عندهم النتيجةَ المنطقية، وإنما ينتجان المزيدَ من الكفرِ والبغي والعناد!.

حسد الكفار للمسلمين:

٣ ـ حَسَدَ الكتابيّون الكافرون المسلمين على ما مَنَّ اللهُ عليهم به من الهُدى والخير، لأنَّ الكتابيِّين حَرموا أنفسَهم من ذلك الهدى والخير، بتحريفِهم لشرعِ اللهِ، وعصيانِهم له، ومحاربتِهم لرسلِه، وبذلك صاروا ضالّين مجرمين.

ولما أيقنوا أنَّ المسلمين على خيرٍ وهدى وحقٍّ، حَسدوهم، بدلَ أنْ يُتابِعوهم ويسيروا معهم.

ومعلومٌ أنَّ الحسدَ مرضٌ نفسيٌّ خبيث، يدفعُ صاحبَه الحاسدَ إلى أنْ يتمنّى زوالَ الخيرِ عن المحسود، ويسعى لحرمانِه منه، فالمهمُّ عنده أَنْ يزولَ عنه الخير، ولا يهمُّه بعد ذلك أَنْ جاءَ إليه، أو ذهبَ إلى غيره!.

وحَسَدُ الكتابيين للمؤمنين دليلٌ على بغضِهم وكراهيتِهم لهم، ولا يبغضُ أصحابَ الحقِّ إلا حاسدٌ كافر، مع أنَّ المؤمنين لم يرتكبوا ما يوجبُ بغضَهم وكرهَهم وحسدَهم، ولا ذنبَ لهم عند الحاسدين، إلا أنهم على هدى وحق!.

٤ ـ بُغْضُ الكتابيّين وحَسَدُهم للمسلمين، دفَعَهم إلى مواجهتِهم وحربِهم لهم، وحرصِهم على إفسادِهم، وإغوائِهم وإضلالِهم، وإبعادِهم عن الحقِّ والخير، المحصورِ في الإسلام، وردَّتِهم عن إيمانِهم ودينِهم، وإرجاعِهم إلى الكفرِ والضلالِ والضياع، ليتساووا في ذلك مع الكافرين الحاسدين المحاربين.

٥ ـ هذا الهدفُ الشيطانيُّ عند الكتابيين ليس هدفاً عارضاً، أو ناتجاً عن خلافٍ ثانوي، إنما هو وُدٌّ قلبيٌّ راسخ، ورغبةٌ قلبيةٌ ثابتةٌ متجذّرةٌ فيه، والوُدُّ لا يخرجُ من القلب، ولا يتخلّى عنه صاحبه.

متى يرضى الكفار عن المؤمنين؟:

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

يخبرُ اللهُ رسولَه ﷺ، أنَّه لن ترضى عنه اليهودُ ولا النصارى، حتى يتَّبعَ ملَّتَهم، ويأمره أَنْ يواجهَهم بالثباتِ على الحق، ويُخاطبَهم بأنَّ هدى اللهِ هو الهدى، ويهدّدُه بأنّه إن اتّبعَ أهواءَهم، فلن يجدَ أحداً ينصرُه من عذابِ الله.

والمقصودُ من هذا الخطابِ الأُمَّة، لأنَّ الرسولَ ﷺ ملتزمٌ بهدى الله، ولا يُتَصَوَّرُ منه اتّباعُ أهواءِ اليهودِ والنصارى، فالخطابُ في ظاهرِه للنبيِّ ﷺ، ولكنَّه في الحقيقةِ خطابٌ تحذيريٌّ من اللهِ لكلِّ فردٍ من أُمّتِه.

ويمكنُ أَنْ نأخذَ من الآيةِ الحقائقَ التالية:

١ ـ اليهودُ والنصارى غاضبون على رسول الله ﷺ، وعلى كلِّ مسلمٍ من أُمته، لأنّه على حق، وهؤلاء يكرهون كلَّ مَنْ كانَ على حق.

مع أنَّ هؤلاء اليهودَ والنصارى كافرون ضالّون، واللهُ غضبَ عليهم ولعنَهم، بسببِ كفرِهم، وبسببِ بغضِهم لأوليائه.

٢ ـ إنّهم لنْ يرضَوْا عن أيِّ مسلمٍ إلاّ إذا اتَّبعَ ملَّتَهم، ودخلَ في دينهم، وصارَ يهودياً أو نصرانياً، أو على الأقلِّ تخلَّى عن الإسلام، وتركَ الهدى، وصارَ ضالاً ضائعاً، حيرانَ تائهاً، لا دينَ له ولا عقيدةَ ولا هوية.

وهذا معناهُ: أنّنا إذا رأيْنا اليهودَ والنصارى يُحبون أحداً من المسلمين، أو يرضَوْن عنه، ويمدحونَه، فلا بدَّ أَنْ نشكَّ فيه، وفي ثباتِه على الإسلام والتزامِه به! لأنَّه لو كان ملتزماً بالإسلامِ حقّاً، لما أحبَّهُ هؤلاء الكافرون، ولما رضوا عنه، أو أثنوا عليه ومَدَحوه.

٣ ـ تفسرُ لنا الآيةُ سببَ ذمِّ اليهودِ والنصارى للعلماءِ والدعاةِ والقادةِ المجاهدين، من المسلمين المعاصرين، حيث يوجِّهونَ لهم اتّهاماتٍ عديدة، بالتطرّفِ والعنفِ والإرهابِ والإفساد والتخريب، ويُعلنون عليهم الحرب!.. بينما يرضونَ عن زعماءَ وقادةٍ للمسلمين، يمدحونَهم وينَسِّقونَ معهم! والقرآنُ يكشفُ عن سِرِّ كرهِهم للفريقِ الأول، ورضاهم عن الفريق الثاني.

ولا بدَّ أن نوقنَ باستحالةِ حصولِ مؤمنٍ صالحٍ ملتزمٍ بالإسلام، على رضا ومحبة اليهود والنصارى، ولا يهمّه ذلك، لأنّه إن رضوا عنه شُكَّ في دينِه.

من صفات المؤمنين وصفات الكافرين:

٤ ـ تقصرُ الآيةُ الهدى على هدى الله، وهو ما أوحى به لرسوله الخاتم ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾. وبما أنَّ اليهودَ والنصارى لم يدخلوا في الإسلام، فإنّهم ليسوا على هدى، وهذا معناهُ: أنهم على باطلٍ وضلال.

٥ ـ بما أنهم ليسوا على هدى، فإنّهم مُتَّبِعون للهوى، والهوى مناقضٌ للهدى، وأهواؤُهم هي التي تسيِّرُهم وتوجّهُهم، وتحكمُ حياتَهم، وهم عبيدٌ لتلك الأهواء. . قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

٦ ـ وبما أنَّهم متَّبعون للهوى، فهم جاهلون، لا علْمَ عندهم ولا معرفة، لأنَّ الهوى لا يقودُ إلا إلى الجهل، وهو يُلغي مواهبَ وطاقاتِ الإنسان، ويشلُّ مداركه. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

العلمُ ملازمٌ للهدى، والذين هم على علمٍ هم المتَّبعونَ لهُدى الله: ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾؛ والمرادُ به: العلمُ النافعُ لصاحبِه في الدنيا والآخرة، وليس مجرّد المعرفةِ والثقافةِ والدراسةِ والمطالعة.

٧ ـ يمكنُ أنْ نستخرجَ من الآيةِ الصفاتِ التاليةَ لليهودِ والنصارى: هم جاهلون غيرُ عالمين، هم متّبعون للهوى، هم ضالّون غيرُ مهتدين، هم مبغضون للمؤمنين.

أما صفاتُ المؤمنين في الآية فهي: هم عالمون، ومهتدون، وثابتون على الحق، وحَذِرون من الأعداء!.

نقمة الكافرين على المسلمين:

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩].

تقررُ الآيةُ حقيقةَ (نقمةِ) أهلِ الكتابِ من المؤمنين، وتبيِّنُ سببَ هذه

النقمة، وهو إيمانُ المؤمنين بالله، وإيمانُهم بكتبه كلِّها، وإيمانُهم برسلِه كلِّهم، كما أنَّ سببها هو فسقُ أهلِ الكتاب، وخروجُهم من دين الله.

أهـلُ الكتابِ من اليهـودِ والنصارى لا يحبّون للمسلمين الخيـر، وهم حريصونَ على صَرْفِهم عن إسلامِهم، وهم حاسِدون للمسلمين، مبغضونَ لهم، منتقمون منهم!.

يتعاملُ الكفارُ مع المسلمين، وهم متَّصفون بهذه الصفات، ويواجهونَهم وهم يكِنُّون لهم هذه المشاعر، ويُخطّطون لحربِهم وهم بهذا الرصيدِ من القبائح. هذا ما بيَّنَتْه لنا آياتُ القرآنِ الهادية الكاشفة.

إنَّ انتقامَ أصحابِ الباطلِ من أصحابِ الحقّ قائمٌ على الحقدِ الأسـود، وصَبِّ صنوفِ الأذى عليهم، والرغبةِ في قتْلِهم والتخلّصِ منهم.. كما قال تعالى عن أصحابِ الأُخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

وإذا كـان الكافرون فاسـقين، حريصين على الانتقامِ مـن المسلمين، والقضاءِ عليهم، فهل يَتوقَّعُ المسلمون أَنْ يتوقَّفوا عن مواجهتِهم وحربِهم؟.

عداوة الكفار للمسلمين:

خامساً ـ قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

تتكلَّمُ الآيةُ عن اليهود، وتُبيِّنُ للمسلمين ما هم عليه من كفرٍ وعداوة، وحرصٍ على مواجهةِ المسلمين، وإبعادِهم عن دينِهم.

اليهودُ يكرهونَ الحق، وهم يعلمونَ أنَّ المسلمين على حقّ، ولذلـك يُبغضونَهم، وكلما ازدادَ المؤمنون ثباتاً على الحق، ازدادَ اليهودُ كفراً به، وطغياناً ضدَّ المسلمين.

ورغمَ أنَّ العداوةَ والبغضاءَ متعمّقتان بين طوائفِ اليهودِ إلى يوم القيامة، أَلقاها اللهُ بينَهم إلقاءً، فلا تـرتفعُ من بينهم، إلاّ أنهم يجتمعـونَ على مواجهـة المؤمنين.

واليهودُ فاسدون مفسِدون، يَسْعَون في الأرضِ فساداً، ويَحرصونَ على نشـرِ الرذائلِ بين الناس، وعلى محاربةِ الفضائلِ وأهلها، ولذلك أبغضهم اللهُ ولعنَهم!.

وبما أنَّهم فاسدون مفسدون، فهم دعاةُ حروبٍ ودمار، وموقدون لنيرانِ الفتنِ والنزاعـاتِ والخلافـات المسـلَّحة، وحَريصونَ على تجييشِ الآخرين لمواجهةِ المسلمين وحربهم.. ولكنَّ اللهَ لهم بالمرصاد، يُبطلُ مكائدَهم ضدَّ المسلمين، وكلَّما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأَها، وكلَّما أشعلوا فتنةً قضى عليها.

استمرار قتال الكفار للمسلمين:

سادساً ـ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۖ﴾ [البقرة: ٢١٧].

تتحدّثُ الآيةُ عن حربِ الكافرين المشركين للمسلمين، وحرصِهم على فتنتِهم وتعذيبِهم، ليتخلَّوا عن دينهم الحق، ويعودوا إلى ما عليه الكافرونَ من باطل!.

وتقررُ الآيةُ قاعدةً عامةً مطردة، في نظرةِ الكفارِ إلى المسلمين، وأساساً راسخاً يحكمُ تعاملَهم معهم.

الكفارُ وطَّنوا أنفسَهم على مواجهةِ المسلمين، وحربِهم وقتالِهم، وجعلوا هذه المهمةَ الشيطانيةَ رسالتَهم في الحياة، أَوقفوا أنفسَهم عليها، ورَصَدوا أَموالَهم لها، ووظَّفوا كلَّ ما يملكون لأدائِها!.

وفعل ﴿لا يزالون﴾: يدلُّ على الاستمرار، وعدمِ التوقّفِ أو الانتهاء، وجملةُ ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ في محلٍّ نصب خبر ﴿لا يزالون﴾ ـ لأَنَّ «مازال» من أخواتِ «كان»، ترفعُ الاسمَ وتنصبُ الخبر ـ أي: لا يزالُ الكفارُ مقاتلينَ لكم.

وعبَّرت الآيةُ عن الفعليْنِ بصيغةِ المضارع ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، للإشارةِ إلى التجدّدِ المستمرّ لهدفهم، والتجددِ المستمرِّ في وسيلتهم، تلك الوسيلةُ القائمةُ على الاستمرار في قتال المسلمين.

هدف الكفار من قتال المسلمين:

ولا يتوقف قتالُ الكفارِ للمسلمينَ إلاّ في حالةٍ واحدة، حدَّدَتْها الآية: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ . إنَّ هدفَ الكفار ـ في الماضي والحاضر والمستقبل ـ من قتالِنا هو ردَّتُنا عن دينِنا الحق، وهم يستخدمونَ معنا مختلفَ الوسائلِ والأساليب، لتحقيقِ هذه الغاية، فإن ارتدَدْنا عن ديننا توقَّفَ قتالُهم لنا، وانتهتْ مواجهتُهم لنا!.

ويحذّرُنا اللهُ من الاستجابةِ لهم، وتحقيقِ هدفِهم ضدَّنا، ولذلك يهدّدُ مَنْ يفعلُ ذلك، ويرتدُ عن دينه، ويموتُ وهو كافر، بالعذابِ الأليمِ في الدنيا والآخرة.

وندعو إلى الجمعِ بين آيتَيْن:

آيةٌ تحدّدُ هدفَ اليهودِ والنصارى من مواجهتِهم لنا، بتخلّينا عن ديننا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ .

وآيةٌ تحددُ هدفَ المشركين الكافرين من استمرارِ قتالِهم لنا، بارتدادِنا عن ديننا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ .

ويَلتقي الفريقان الكافران على تحقيقِ الهدفِ المشتركِ لهما، فالمستهدَفُ من مواجهتِهم لنا هو إسلامُنا، وقد فضحهم القرآنُ في إظهارِ ما أَخفوه وكتموه، وعرَّفَنا على ذلك، لنزدادَ حَذَراً منهم، ووعياً لمخططاتهم، وثباتاً على الحق!.

صفات المؤمنين المواجهين للكفار:

سابعاً ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٦].

كانت الآياتُ السابقةُ تقرّرُ استمرارَ مواجهةِ الكافرين للمؤمنين، تلك المواجهةُ التي بدأَتْ بين آدمَ عليه السلام وإبليس، واستمرَّت على مدارِ تاريخِ

البشريةِ كلِّها، وستبقى مستمرةً حتى قيام الساعة.

وقد عرَّفَتْنا الآياتُ السابقةُ على صفاتِ الأعداءِ المواجهين لنا، وعن هدفِهم من هذه المواجهة، ووسائِلِهم ضدَّنا، وحذَّرتْنا من الاستجابةِ لهم.

أما هذه الآياتُ من سورةِ المائدةِ فإنّها تتحدَّثُ عن الصفات الأساسيةِ للمؤمنين الصادقين، الذين يواجهون الكفار، ويقفون أمامهم، وينحازون إلى إسلامِهم، ويُنقذونَ إخوانَهم وأوطانهم:

١ - إنَّ اللهَ يحبُّهم، ومن محبَّتِه لهم أنَّه استخلَصَهم له، واستعملَهم لخدمةِ دينه.

٢ - إنَّهم يحبونَ الله، ومن محبتِهم له أنهم واجهوا أعداءَه، وانحازوا إلى دينه.

٣ - إنهم يجاهدون في سبيلِ اللهِ جهاداً كبيراً، صادقاً مبروراً، ثابتاً دائماً.

٤ - إنهم لا يحسبون حساباً لغيرِ الله، ولايخافونَ فيه لومةَ لائم، ولا اعتراضَ معترض.

٥ - إنهم ملتزمونَ بدينِ الله، يُقيمونَ الصلاة، ويُؤتون الزكاة، وهم راكعون.

٦ - إنهم أولياءُ لله، يتولَّون اللهَ ورسولَه والذين آمنوا، ويتبرَّؤون من الكافرين.

٧ - إنهم حزبُ الله الغالبون المنتصرون.

* * *

الفَصْل الثامِن

القرآن يبشّر المؤمنين الصّالحين

يوقنُ المؤمنُ أنَّ وعدَ اللهِ منجَزٌ متحقِّق، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، ولذلك هو يُصدِّقُ به، ويثقُ به ثقةً مطلقة، ويتذكّرُه دائماً وهو يواجِهُ الأعداءَ الكافرين، ويتحدّاهم ويتصدّى لهم.

يتذكّرُ وعدَ اللهِ دائماً في هذه المواجهة، ليصبرَ على شدائدِها، ويتحمّلَ تكاليفَها، وينتظرَ يومَ النصر، ويوقنَ بتحققِه ولو تأخَّرَ قليلاً.

يجبُ أنْ يستبشرَ المؤمنُ البشرى المطلقة، بأنَّ المستقبلَ لدينه، والهزيمةَ لأعدائه، وهذه البشرى تملؤُه أمَلاً، وتدفعُه إلى مزيدٍ من الجهاد والعمل، وتقضي على وساوس الشيطان له، ومحاولاتِه إحباطَه وتيئيسَه، وإماتةَ الأملِ والأماني المشرقةِ عنده!.

وفي القرآنِ آياتٌ كثيرةٌ تدعو إلى تبشيرِ المؤمنين المجاهدين، المواجهين لأعداءِ الله، وتطلبُ منهم عدمَ اليأسِ والإحباطِ والقنوط، وتُزيلُ وساوسَ الشيطانِ في نفوسهم، وإبطالَه لأمنياتهم!.

ولْنقفْ مع بعضِ هذه الآيات، لنأخذَ منها البشريات والآمال، نستعينُ بها على مشقّات الطريق الطويل، ونعالجُ بها هواجسَ اليأسِ والقنوطِ والإحباط!.

موسى يبشّر أتباعه المؤمنين:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧].

تدلُّ هذه الآيةُ على أنَّ التبشيرَ بالفَرَجِ والنصرِ ليس خاصّاً بهذه الأمة، إنما هو عامٌّ لكلِّ مسلمين مواجِهين لقوى الباطل، وكان الرسلُ السابقونَ عليهم الصلاة والسلام يُبَشِّرون أتْباعَهم المؤمنين بالفَرَجِ والنصر.

ففي هذه الآية، يأمرُ اللهُ موسى وهارونَ عليهما السلام أَنْ يتبوَّأا البيوتَ الخفيةَ السريةَ لقومِهما الإسرائيليين في مصر، التي كانوا يواجهون فيها تعذيبَ فرعونَ وآلِه، وأَنْ يَجْعَلوا تلك البيوتَ قبلةً لهم، يَعبدونَ اللهَ فيها، ويقيمون فيها الصلاة.

وأَمَرَ اللهُ موسى عليه السلام أَنْ يُبشّرَ أَتْباعَه المؤمنين بقربِ الخلاصِ والفَرَج. ونفذَ موسى عليه السلام أَمْرَ الله، وبَشَّرَهم البشرى المشرقة، وسْطَ «تبرُّمهم» منه، واعتراضِهم عليه، واستبعادِهم الفَرَج، وانزعاجِهم من طولِ الطريقِ وشدتِه!.

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

موسى عليه السلام يَطلبُ من الإسرائيليّين المعذَّبين المضطهدين، أَنْ يَستعينوا باللهِ ويَصْبِروا، ويبشِّرُهم بأنَّ الفَرَجَ آت، فالأرضُ لله، يورثُها مَنْ يشاءُ مِن عبادِه، وينزعُها ممن يشاءُ من عباده، ويُهلكُ الكافرين الظالمين، ويجعلُ العاقبةَ لعباده المتّقين.

لكنَّ قومَه كانوا غلاظاً قُساةَ القلوب، فلم يَقبلوا هذا التبشيرَ، وإنَّما تبرَّموا به وبدعوتِه، وقالوا له: لم نستفِدْ منك شيئاً، فقد نالَنا الأذى والعذابُ من فرعون قبلَ أَنْ تأْتينا، وها هو العذابُ والأذى يُصَبُّ علينا من بعدِ ما جئْتَنا، فماذا استفَدْنا منك؟ ولماذا لم توقفْ هذا الإيذاءَ عنا؟.

ردَّ موسى عليه السلام على اعتراضِهم وتبرُّمهم، بتبشيرٍ صريحٍ لهم، وقال: عسى اللهُ أَنْ يُهلكَ فرعونَ وجنودَه، ويُفرّجَ عنكم ما أنتم فيه، ويستخلِفَكم من بعدِهم في الأرض.

وقد تحققت هذه البشرى بعد ذلك، عندما أنجى اللهُ موسى عليه السلام ومَنْ معه أجمعين، وأغرقَ فرعونَ وجنودَه، واستخلفَ بني إسرائيل، وأورثَهم الأرض، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ

وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَـٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

القرآن يبشِّر المؤمنين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩].

القرآنُ كتابُ تبشير، فهو يرشدُ المؤمنين للخير، ويَهديهم للطريق الأقوم والأصلح، ويقدمُ لهم البشرى بالفلاحِ والنجاحِ والفوز، في الدنيا والآخرة.

وتكمنُ البشرى القرآنيةُ في وعودِه الصادقةِ المتحقّقة، التي يَعِدُ بها المؤمنين الصالحين، كما تكمنُ في ما يذكُرُه القرآنُ من قصص السابقين، ويركِّزُ على مواطنِ الصبر فيها، بإهلاكِ أهلِ الباطل، وانتصارِ أهلِ الحق.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني، أنَّ هذه الآية: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جاءتْ بعدَ عدةِ آيات، تحدَّثتْ عن إفسادَيْن كبيرَيْن لبني إسرائيل، مقرونَيْن بعلوٍّ واستكبار، موجَّهَيْن ضدَّ الأُمةِ المسلمة، وذكرتْ كيفيةَ القضاءِ على ذينك الإفسادَيْن وإزالتِهما.

فمن المناسبِ أنْ يأتيَ الحديثُ عن تبشيرِ القرآنِ للمؤمنين، بعدَ الحديثِ عن إزالةِ الإفسادَيْن اليهوديَّيْن، ليكونَ من مظاهرِ التبشيرِ القرآني تقريرُه أنَّ إزالةَ الإفسادَيْن حقيقةٌ قرآنيةٌ قاطعة، وبشرى قرآنيةٌ واقعة!.

واللطيفُ أيضاً: أنَّ التعبيرَ عن التبشيرِ القرآني جاءَ بصيغةِ الفعلِ المضارع: ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ذلك الفعلُ الدالُّ على التجدّد والاستمرار. وهذا معناهُ: أنَّ البشرى القرآنية متجدّدة، فكلّما قرأ المؤمنُ البصيرُ المبْتَلى آياتِ القرآنِ بوعيٍ وتدبُّرٍ وبصيرة، كلّما تزوَّدَ من تلك البشرى بالزادِ العظيم الذي يُعينُه على الثباتِ والصبر.

الأمر بتبشير العباد الصالحين:

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ـ١٨].

يُثني اللهُ في هاتينِ الآيتَيْن على عبادِه الصالحين المتقين، الذين يستحقّون البشرى المشرقة، فهم مؤمنون، اجتنبوا عبادةَ الطاغوت، وعَبدوا اللهَ وحْدَه، وأَنابوا له وحده، واستمعوا كلامَه، واتّبعوه والْتزموه، واهتدَوْا به، وبذلك كانوا من أُولي الألبابِ الواعية، وأصحابِ العقولِ الكبيرة.

هؤلاء لهم البشرى من الله، بأَنْ يعيشوا في الدنيا حياةً طيبةً سعيدة، في ظلالِ ذكرِ اللهِ وطاعتِه، وبأنْ يتنعّموا في الآخرةِ بجنّته.

هؤلاء العبادُ الربّانيون مكْرَمون عندَ الله، ولذلك يأْمُرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبشِّرَهم بالخيرِ والفلاح، وذلك لتشرقَ أرواحُهم، وتستنيرَ قلوبُهم، وتنشطَ هممُهم، وتقوى عزائمهم.

هؤلاء العبادُ الذين يبشّرُهم الرسولُ ﷺ في الدنيا، يُنزِّلُ اللهُ عليهم ملائكتَه عند احتضارِهم لطمأنتِهم وتأمينِهم وتبشيرِهم، ليغادروا هذه الدنيا سعداءَ آمنين مطمئنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

البشرى للأولياء في الدنيا والآخرة:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

تقررُ هذه الآياتُ حقيقةً قاطعة، وهي تأمينُ وحفظُ وحمايةُ اللهِ لأوليائه، المؤمنين المتقين، وبما أنَّ اللهَ يَحفظُهم ويحميهم، فإنهم يعيشون حياتَهم بدونِ خوفٍ من المستقبل، ولا حزْنٍ على الماضي.

وتقدمُ الآياتُ صفتَيْن عظيمتَيْن لهؤلاء الأولياء: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: الإيمانُ العظيمُ الحيّ، المؤثِّرُ المحرِّك، الذي ينتجُ عنه العملُ الصالحُ والاستقامة. ثم التقوى العظيمة لله، التي تحولُ بين صاحبها وبين ارتكابِ ما حَرَّمَ الله، أو تركِ ما أوجبَ الله، وتجعلُه يعيشُ معنى معيةِ الله، ومراقبتِه له.

هؤلاء الأولياءُ يستحقّون البشرى العامة، الشاملة المطلقة: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وبُشْراهم في الدنيا تشملُ كلَّ مجالاتِ حياتهم، فبما أنّهم أولياءُ لله، مؤمنون متّقون، فإنَّ اللهَ يوفّقُهم ليعيشوا الحياةَ الطيبةَ المباركةَ السعيدة، عابدين ذاكرين مطيعين لله، ومعلومٌ أنّه لا طعم ولا معنى للحياة، إن لم يعشْها صاحبُها في عبادةِ اللهِ وطاعتِه.

وهم مفلحون في أعمالِهم، ناجحون في أدائهم لها، فائزون في نهايتها، وسَجَّلَ اللهُ لهم أَجرها وثوابَها.

وبُشْراهم في الآخرة تتحقق، عندما يُظِلُّهم اللهُ في ظلّه، وهم في ساحةِ الموقف، وعندما يتجاوزُ عن ذنوبِهم، ويُثْقِلُ موازينَهم، ويُعطيهم كتبَهم بأَيْمانِهم، ويُدخلُهم الجنةَ برحمتِه وفضْلِه، ويجعلُهم منعَّمين خالدين فيها أبداً.

وأخبرت الآياتُ أنّه لا تبديلَ لكلماتِ الله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. أي: لا تغييرَ للحقائقِ المذكورةِ في هذه الآيات، ولا تراجُعَ عن البشرى للأولياء المبشَّرين، وهذا هو الفوزُ العظيم، الذي يمنُّ اللهُ به على أوليائه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

البشرى للصابرين:

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

يخبرُ اللهُ المؤمنينَ أنَّ حياتَهم قائمةٌ على الابتلاءِ والاختبارِ والامتحان، حتى يوطِّنوا أنفسهم على ذلك، ويستعدّوا لمواجهته، ولا يُفاجَؤوا به. وهو سبحانه سيبتلي المؤمنينَ بشيءٍ مِنَ الخوفِ والجوع، ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمرات.

ويدعوهم اللهُ إلى مواجهةِ ذلك كلّه بالصبرِ والاحتساب، وكلّما أصابتْهُم

مصيبة؛ في أنفسِهم أو أموالِهم، أو أَهليْهم أو ممتلكاتِهم، يتذكَّرون أنّهم عباد، خاضعون لله، وأنَّ حياتَهم في الدنيا قصيرةٌ زائلة، وهم راجعونَ بعدَها إلى الله، ويقولون: إنّا لله، وإنّا إليه راجعون.

وصبْرُهم على ما يواجِههم من ابتلاءاتٍ ومِحَنٍ، يَدفعُهم إلى الثباتِ على الحق، والرضا بقَدَرِ الله، والثقةِ بما عنده، وإشغالِ أوقاتِهم بطاعةِ اللهِ وعبادتِه، والابتعادِ عما حَرَّمَ عليهم!.

هؤلاء العبادُ الصابرون، يأمرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبشّرهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وصبْرُهم على ما يلاقون أَهَّلَهم لنيلِ البشرى من الله، على لسانِ رسولِه ﷺ، مما يدلُّ على عِظَمِ مكانةِ الصبر عند الله، وعُلُوِّ منزلةِ صاحبه.

والبشرى للصابرين مطلقة، عامةٌ شاملة، تشملُ كلَّ خيرٍ وفوزٍ وفلاح، يبشَّرون به في الدنيا والآخرة.

وكما أنَّ صبْرَهم زادٌ ضروريٌّ لهم في حياتِهم، يتزوَّدون به في قطعِ الطريقِ إلى الله، وتحملُ مشقّاتِه وابتلاءاتِه ومحنِه، كذلك البشرى من الله حافزٌ كبيرٌ لهم، يدفعُهم إلى مزيدٍ من الجهدِ والاجتهاد، والصبر والاحتساب.

وفرقٌ بعيدٌ بين مَنْ يصبرُ على البلاءِ رغمَ أنفه، وهو يائسٌ قانطٌ محبَط، كارهٌ لحياتِه ومسيرتِه، وبينَ مَنْ يصبرُ على ذلك وهو مستبشِرٌ فاعل، إيجابيٌّ نشيط، يستعذب المصائب، ويستمتعُ بالمشقّات، والبشرى تملأُ عليه حياتَه!!.

البشرى للمؤمنين المجاهدين:

سادساً: قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١) ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١ ـ ١١٢].

أكرمَ اللهُ المؤمنين الصادقين، بأن اشترى منهم أنفسَهم وأموالَهم، وجعلَ ثمن هذه الصفقةِ الجنة، يُدخلُهم فيها منعَّمين مكرَّمين، لكنَّ طريقةَ تسليم الأنفسِ والأموالِ المباعة، هي جهادُهم الصادقُ في سبيل الله، وقتالُهم المستمرُّ لأعداءِ الله.

وأكرمَ اللهُ المؤمنين الصادقين إكراماً آخر، بأَنْ جعلَ هذه الصفقةَ الكبيرةَ وعْداً عليه حقاً، ألزمَ نفسَه بإنفاذِه رحمةً وكرماً وفضلاً، وجعلَ هذا الوعدَ في كتبِه الثلاثة المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن.

ودعا اللهُ هؤلاء المؤمنين إلى الاستبشارِ بقبول هذا البيع، الذي باعوه لله: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وما أعظمَ أنْ يُجاهِدَ المجاهـدُ في سـبيل الله، ويقتحمَ الميدان، ويقاتلَ الأعداء، وهو مستبشرٌ سعيدٌ مسرور، راضٍ عن ربِّه الكريم، موقنٌ بإنجازِ وعْدِه العظيم، مقبلٌ عليه بحيويةٍ وتفاعل، وشجاعةٍ وإشراق!.

ولا بدَّ للمؤمنين المجاهدين من أَنْ يَتَّصفوا بالصفاتِ الإيجابيةِ العظيمة، التي ذكرتْها الآيةُ الثانية، ليَصْدُقوا في البيعة، وينالوا الثمنَ والجزاءَ والكرامة: التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.

هؤلاء المؤمنون هم أكرمُ الناس على الله، وهم أفضلُ مَنْ على وجْهِ الأرض، يُباهي اللهُ بهم ملائكتَه، ويَحوطُهم بحفْظِه ورعايتِه.

ومن كرامتِهم على الله، أنه يأْمُرُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبشِّرَهم البشرى المطلقة: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. البشرى بالخيرِ والتوفيقِ في الدنيا، والاستمتاعِ فيها بالحياةِ الطيبة، وبالجنةِ ونعيمِها في الآخرة!.

البشرى بالفوز والربح والنجاة:

سابعاً: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف : ١٠ ـ ١٣].

أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بتبشيرِ المؤمنين، في هذه السورةِ الجهادية (سورة الصف)، وورَدَ في سياقِ الحديثِ عن الجهادِ، باعتبارِه التجارةَ الرابحةَ المنجية، وهو السياقُ نفسُه الذي وردَ فيه الأَمْرُ بالتبشيرِ في سورةِ التوبة، الذي تحدَّثْنا عنه في الآيات السابقة.

الجهادُ تجارةٌ رابحةٌ، منجيةٌ من عذابٍ أليم، والقعودُ عنه خسارةٌ، وسببٌ للعذابِ الأليم، والجهادُ خيرٌ للمؤمنين، والقعودُ شَرٌّ لهم.

وللجهادِ نتائجُ عظيمة، وثمراتٌ باهرة، لا يمكنُ للأمةِ أَنْ تنالَها إلاّ به، مثل مغفرةِ الذنوب، ودخولِ الجنات تجري من تحتها الأنهار، وتملُّكِ المساكنِ الطيبة في جنات عدن، وتحقيق الفوزِ العظيمِ والفلاحِ الكبير.

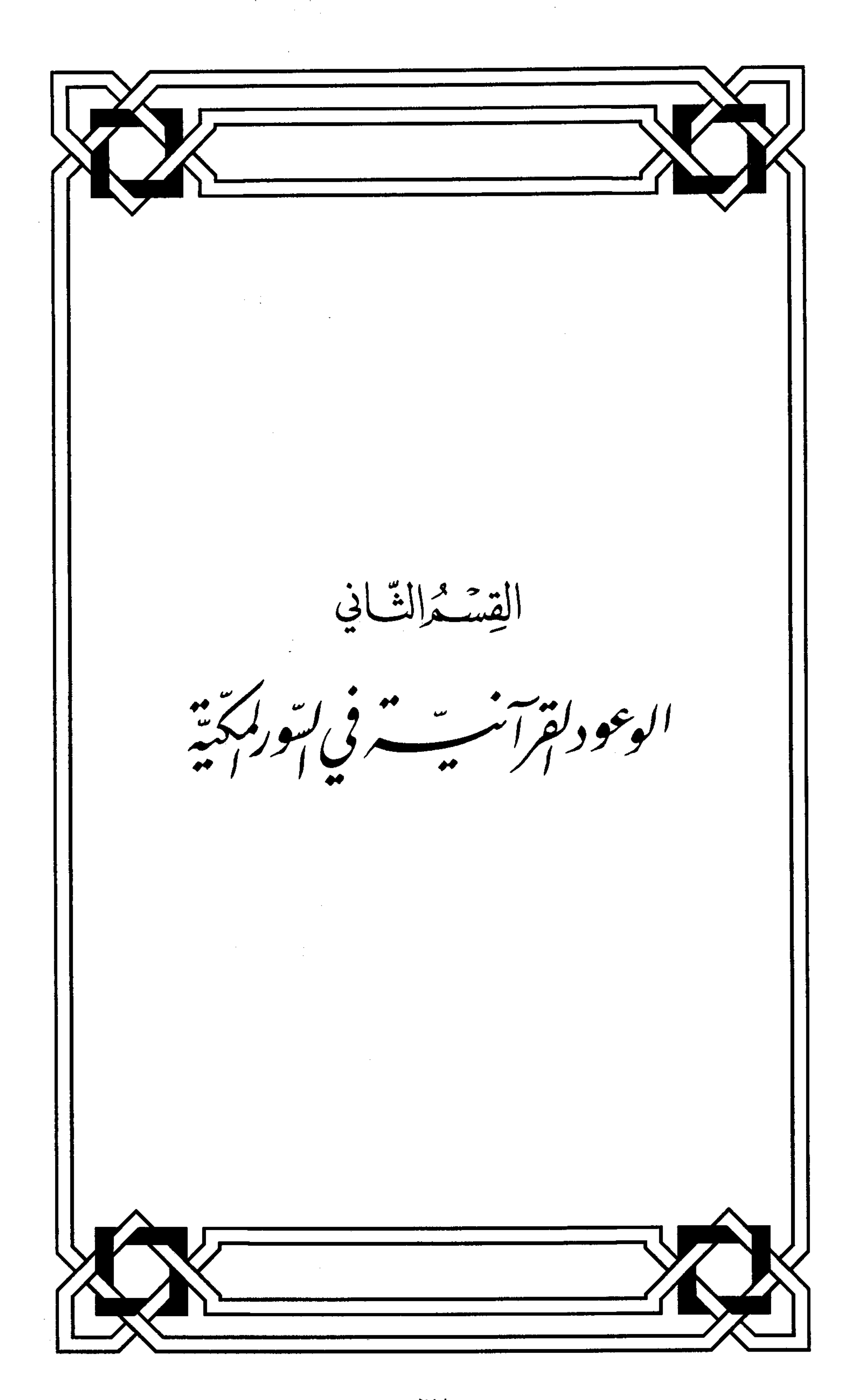
ومن نتائجِ الجهادِ العظيمةِ في الدنيا تحقُّقُ النصرِ من الله، والحصولُ على الفتح القريب.. والقعودُ عن الجهاد لا يفتحُ بلاداً، ولا يَجلبُ نصراً، ولا يحررُ وطناً، ولا يدفعُ عدواً.

وفي خاتمةِ الحديثِ عن ثمراتِ ومكاسبِ الجهادِ في الدنيا والآخرة، يأمرُ الله رسولَه ﷺ أن يبشرَ المؤمنين المجاهدين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بماذا يبشّرهم؟ يبشِّرهم بشرى مطلقة، بالحصولِ على كلِّ مظاهرِ الخير، في الدنيا والآخرة، ومن أهمِّها اكتسابُ ثمراتِ الجهاد العظيمة، التي قررَتْها هذه الآيات!.

القرآنُ حريصٌ على تبشيرِ المؤمنين الصادقين، والمجاهدين الثابتين، وهم ينالون البشرى القرآنيةَ بيقين، فيَفرحونَ ويَنشطون، ويؤدّون واجباتهم، وهممهُم عالية، ونفوسُهم مشرقة، وآمالُهم عريضة، وقد أبعدوا عنهم وساوسَ الشيطان، وتدَسُّسَ هواجسِ اليأسِ أو القنوط أو الإحباط، يحدوهم قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

* * *



القِسمُ الثّاني

الوعود القرآنيّة في السّور المكّيّة



الفصل الأول

الوعد القرآني في سورة الأنعام

سورةُ الأنعام مكية، موضوعُها الأساسيُّ هو العقيدة، فهي تعرضُ حقائقَ العقيدة، وتقدمُ الأدلّةَ على وحدانيةِ الله، وتقيمُ الحجَّةَ على الكافرين، وتُفَنِّدُ ما هم عليه من كفرٍ وشرك، وتُبطلُ إشاعاتِهم وشبهاتِهم ضدَّ الحقّ، وتقودُ المؤمنين في مواجهة الباطل.

وأُنزلتْ سورةُ الأنعامِ في فترةٍ حرجةٍ شديدة، عاشَتْها الدعوةُ الإسلاميةُ في مكة، وكانت أقسى الفتراتِ التي مرَّت بها، وكان هذا في سنواتِ حصارِ المؤمنين في شِعْبِ أبي طالب، وما أعْقَبها من عامِ الحُزْن، وإيذاءِ الرسولِ ﷺ في الطائف، إلى أنْ كانت حادثةُ الإسراءِ والمعراج.

كانت الدعوةُ الإسلاميةُ محاصرةً حصاراً شديداً في هذه الفترةِ الحرجة، حيثُ اشتدَّ إيذاءُ وتعذيبُ الكافرين للمسلمين، وكان المسلمون يبحثونَ عن مخرجٍ لهذا الحصار، وينتظرونَ الفرَجَ من الله!.

وأُنزلَتْ سورةُ الأنعامِ في هذه الفترةِ الحرجةِ، بهدفِ تعليمِ المسلمينَ الحجَّة، وملءِ قلوبِهم بالأمل، ورفعِ هممِهم ومعنوياتِهم وعزائمِهم.

ولذلك تضمَّنَتْ آياتُ السورةِ وُعوداً قرآنيةً بهزيمةِ وعقابِ الكافرين، ونصر المسلمين، والتمكين لهم في الأرض. وكانت الوعودُ في الآيات التالية:

تهديد الكفار بالهزيمة في غزوة بدر:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٤ ـ ٥].

تتحدَّثُ الآيتان عن موقفِ الكفارِ من الحق، فقد تعاملوا معه بعنادٍ

واستكبار، وكلّما أسمعهم رسولُ الله ﷺ آياتٍ من القرآن، وفهموا ما فيها من أدلّةٍ وحججٍ وبراهين، كانوا يُعرضون عنها عناداً، فلا يُقِرُّون أنّها من عند الله، ولا يؤمنونَ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله، ولا يعترفونَ أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، وإنما كانوا يُكذِّبون بالحقِّ الواضح، ويستهزئون بالرسول ﷺ، ويسخرونَ من المؤمنين، ويزدادونَ عداوةً للحقِّ وأهلِه.

وعندما كان يُخبرُهم رسولُ اللهِ ﷺ بأنَّه سينتصرُ عليهم، يزدادون سخريةً واستهزاءً، وتكذيباً للرسولِ ﷺ. حيث كانوا ينظرون لذلك نظرةً ماديةً، فهم أكثر قوةً وعدداً ومالاً، والمسلمون مستضعَفون فقراءُ أقلية، لا يَملكون مالاً ولا سلاحاً ولا كياناً، فكيفَ يهزمون أهلَ مكةَ الأقوياء، ويتغلّبون عليهم؟.

وقد توعَّدهم اللهُ وهدَّدهم بالعذاب: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

والمعنى: كَذَّبَ الكفارُ بالحق، ونَفَوْا أَنْ ينتصر، وهم مُخطئون في ذلك، وسوفَ تأْتيهم الأنْباءُ التي كانوا يُكذِّبون ويستهزئون بها، وذلك عندما تتحقّقُ الوعودُ التي وعدَ اللهُ بها المؤمنين، والتوعُّداتُ التي توعَّدَ اللهُ بها الكافرين.

وإتيانُ الأنباءِ إليهم، عندما تنشبُ المعاركُ بينهم وبين المسلمين، وعندما ينصرُ اللهُ المؤمنين عليهم.

فهذه الجملة: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وعْدٌ للمؤمنين بالنصرِ، ووعيدٌ للكفَّارِ بالهزيمة.

وقد تحققَ الوعْدُ بعد بضعِ سنينَ من نزولِ هذه الآيات، وكان ذلك في السنةِ الثانيةِ من الهجرة، على أرضِ معركةِ بدر، حيثُ نصرَ اللهُ الحق، وهزمَ الباطل، وفقدَ الكافرون زعيمهم أبا جهل، وسبْعين رجلاً معه، إضافةً إلى الجرحى والأسرى منهم.

ولما أصاب المشركين في بدرٍ ما أصابهم، أتتهم الأنباءُ التي كانوا يستهزئون بها، وتحقَّقت الوعودُ القرآنيةُ في الآياتِ المكية، بهزيمةِ الكافرين وانتصارِ المؤمنين، وعاشَ المؤمنون والكافرون صورتها العمليةَ الواقعية، وبذلك تحوَّلَ الوعدُ القرآني من صورته النظرية إلى صورتِه العملية.

الكفار خاسرون في حرب الإسلام:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

تتحدَّثُ الآيةُ عن جهودِ الكفار في محاربةِ القرآن، والوقوفِ أمامَ رسولِ الله ﷺ، وتُبَيِّنُ أنَّهم لن ينجحوا في ذلك، وهم الذين سيخسرون.

كان زعماءُ وقادةُ الكفار يَنهون أَتْباعَهم عن الدخولِ في الإسلام، ومتابعةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وينأون هم عنه، ويَبتعدون عن الإيمانِ به.

وتعودُ الهاء في ﴿عنه﴾ على رسول الله ﷺ، وما معه من القرآنِ والحقّ، أي: ينهى زعماءُ قريشٍ أَتباعَهم عن الإيمانِ بالرسولِ ﷺ، وهم يَنْأَوْنَ ويَبْتَعدون عنه.

لقد ارتكبَ هؤلاء الزعماءُ جريمَتَيْن: الجريمةُ الأولى في حقِّ أنفسِهم، حيثُ كفروا ونَأَوْا وابْتَعدوا عن الإيمان.. والجريمةُ الثانيةُ في حقِّ الآخرين، حيث نهوهم عن الإيمان.

وهدفُهم من النأي والنهي القضاءُ على الحقّ، وإبطالُ دعوة الرسولِ ﷺ، والتغلُّبُ عليه، وهزيمتُه في النهاية.

وأشارتْ إلى هذه الجرائمِ والوسائلِ الخبيثةِ آياتٌ أُخرى في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦].

طلبَ قادةُ الكفارِ من أَتْباعِهم أَنْ لا يستمعوا للقرآن، وأَنْ يَلْغَوْا فيه ويُشَوِّشوا عليه، لئلاّ يسمعَه الآخَرون، لأنَّهم يخشونَ أَنْ يؤمنَ الآخرونَ به إذا استمَعُوا له، لأنَّه سرعانَ ما يدخلُ القلبَ ويؤثِّرُ فيه، والحلُّ عندهم هو اللغوُ والتشويشُ لئلاّ يستمعوا له!.

هل ينجحُ الكفارُ في اللغوِ والتشويشِ على القرآن؟ وفي إيقافِ انتشارِه عندما ينْهَوْن وينأَوْنَ عنه؟ وهل يمكنُ أَنْ يَغْلبوه ويَهْزِموه؟.

الجوابُ بالنفي. وقد حسمت الآيةُ المسألة، وقرّرتْ نتيجةَ حربِهم

للقرآن، بأنّهم الخاسرون الهالكون: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذا وعدٌ قرآنيٌّ قاطع، صيغَ بهذه الجملةِ المحددة، حيث نفتْ إمكانيةَ نجاحِهم أو انتصارِهم، وحصرت الهلاكَ بهم، ومعلومٌ أنَّ اجتماعَ «إنْ» النافية، و«إلا» الاستثنائية معاً يدلُّ على الحصر: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

الكفار لا يفكرون في العواقب:

إنَّ الكفارَ ـ في الماضي والحاضر والمستقبل ـ يُهلِكونَ أنفسهم بأنفسِهم، ويجلبـونَ العذابَ لأنْفُسِهم بأنفُسِهم، ويَحفرونَ قُبورَهم بأيديهم، ولا يحيقُ المكرُ السيِّئ إلاّ بأهلِه.

ولذلك نفت الآيةُ عنهم الشعورَ بعواقبِ الأُمور: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنهم حاقدون متوتِّرون هائجون، يُحاربون القرآنَ بعصبيةٍ وتشنّجٍ ونَزق، ويَرسمونَ الخططَ والمؤامرات، ويستخدمونَ مختلفَ الأساليبِ والوسائل، ويظنّون أنهم سينجحون في مَسعاهم، وسيقضون على القرآن.. وما درى هؤلاء المسـاكينُ أنّهم سيفشلون في حربهم، وأنَّ القرآنَ سيخرجُ منها قوياً ظافـراً منصوراً، وهم الذين يَهلكون ويَخسرونَ ويَنهزمون.

ولو كانوا يشعرونَ في غمرةِ تخطيطِهم وهياجِهم، ولو كانوا يرونَ هذه النهايةَ التعيسةَ البائسةَ لحربهم، فقد يتخلَّوْنَ عنها..

وقد تحقَّقَ الوعدُ القرآنيُّ في هذه الآية، وسجَّلَ التاريخُ مصيرَ الذين كانوا ينهون عنه وينأَوْنَ عنه، ويطلبونَ من أَتْبَاعِهم عدمَ الاستماعِ للقرآنِ واللغوَ فيه والتشويشَ عليه! ولْنتذكَّرْ مصيرَ زعماءِ قريش، ونتائجَ حربِهم للقرآن، ونتذكَّرْ نتائجَ جهودِ المنافقينَ واليهودِ في المدينة في حربِهم للقرآن، ونتذكَّرْ حروبَ قوى الكفرِ المختلفةِ للقرآن، ونلاحِظْ خروجَ القرآنِ من كلِّ حربٍ منتصراً، ووقوعَ الفشلِ والخسارةِ والهلاكِ بأعدائِه!.

تكذيب الكفار بالوعود القرآنية:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦ ـ ٦٧].

الخطابُ في الآيةِ من اللهِ لرسولِه ﷺ، بهدفِ مواساتِه وتسليتِه، على ما يجدُ من تكذيبِ قومِه بما معه من الحق.

يقولُ اللهُ له: لقد كَذَّبَ قومُكَ الكفارُ بالقرآنِ الذي معك، مع أنّه الحق من عندِ الله، وكلُّ ما فيه صوابٌ وصحيح، ولا باطلَ فيه. وعليكَ أنْ تقولَ لهؤلاءِ الكافرينَ المكذّبين: أنا لستُ وكيلاً عليكم. أيْ: لا يجبُ عَلَيَّ قذفُ الإيمانِ في قلوبِكم، وإدخالُكم في الإسلام بقوةٍ وإكراه! إنَّ واجبي هو في دعوتِكم وتذكيركم ونصحِكم، وإقامةِ الحجّة عليكم، فإن استجبْتُم لي كنتم فائزين، وإنْ رفضْتُم دعوتي كنتم خاسرين، ولا يضرُّني ذلك شيئاً.

ومن مظاهرِ تكذيبِ الكفارِ بالحق، تكذيبُهم بالوعودِ القرآنية، التي كانتْ تُحددُ نهايـةَ المواجهـةِ بين جنودِ الحق وجنودِ الباطل، وتجزمُ بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، في وقتٍ كان فيه الكفارُ في مكة غالبين مسيطرين، وكان المسلمون مستضْعَفين معذَّبين، فعندما كان الكفارُ يَسمعونَ تلك الوعودَ كانوا يَسخرون ويَستهزئون، وردَّت الآيةُ على موقفِهم بتأكيدِ تحقُّقِ تلك الوعود: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

النبأُ هو الخبرُ الصادقُ المهمّ، الذي يهمُّ صاحبَه. واستقرارُ النبأ تحقُّقُه في الواقع، في صورةٍ عمليةٍ واقعيةٍ مشاهَدة.

استقرار وتحقق الوعود القرآنية:

المرادُ بالنبأ الوعودُ القرآنيةُ الجازمةُ بانتصارِ الإسلامِ وهزيمةِ الكفر في المستقبل، والمرادُ باستقرارِ النبأ تحقُّقُ هذه الوعودِ على الأرض.

مثلاً: قولُه تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] نبأ، يتضمّنُ وعداً بانتصارِ المسلمين وهزيمةِ المشركين. واستقرارُه في غزوةِ بدر، حيثُ هُزِمَ الكفارُ فعلاً.

وقولُه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١ ـ ٣] نبأ، يجزمُ بوفاةِ أبي لهبٍ على الكفر، ووعيدٌ له بأنّه سيعذَّبُ في النارِ يومَ القيامة.. وكان استقرارُ هذا النبأ

في الدنيا ما حصل لأبي لهب بعد غزوةِ بدر، حيثُ ماتَ كافراً مهموماً حزيناً. وبذلك تحقّقَ له ما تنبّأ وجزمَ به القرآن، وله استقرارٌ آخر يومَ القيامة، حيث سيُدخلُ اللهُ أبا لهبٍ نارَ جهنم.

وبعدما جَزمت الآيةُ باستقرارِ أنباءِ القرآن، وتحقُّقِ وعودِه عملياً في المستقبل، هدَّدت المشركين الذين يُكَذِّبون بأنباءِ القرآن، ويَجعلونَ وقوعها مستحيلاً، فقالت لهم: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنتم تُكَذّبون بأنباءِ القرآن، وتَجْزِمون أنّها لن تتحقّق، وتوقِنون أنكم ستغلبون المسلمين، وتنتصرون عليهم، أنتم في ذلك جاهلون، لا تَعلمون ولا تَشعرون، ولا تَعرفون ماذا سيكون في المستقبل.. ولكنكم عندما ترونَ استقرارَ أنباءِ القرآنِ وتحقُّقَ وعودِه، ستعلمونَ مقدارَ جهلِكُم وغبائِكم، ومقدارَ خسارتِكم وإحباطِكم!! ولكن هذا العلمَ لن ينفعَكم، لأنَّه سيكونُ بعدَ فواتِ الأوان.

ولقد عَلِمَ الكفارُ استقرارَ أنباءِ القرآن، عندما تحقّقت وعودُه في المعارك والغزواتِ بعد الهجرة، في بدرٍ وأُحد والأحزاب وحُنين.. وعَلِمَ الفرسُ والرومُ استقرارَ أنباءِ القرآنِ عندما انتشروا واستقرَّ الإسلامُ في المنطقة!.

وسيعلمُ اليهودُ والصليبيونَ استقرارَ أنباءِ القرآنِ وتحقّقَ وعودِه، عندما ينتصرُ الإسلامُ في المستقبلِ القريبِ إنْ شاءَ الله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الكفار موعودونَ بعذابِ الله:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٣ - ١٣٥].

هذه الآياتُ في سلسلةِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، والصراعِ بين رسولِ اللهِ ﷺ وبين المشركين في مكة.

يُخاطبُ اللهُ رسولَه ﷺ، ليزيدَهُ إيماناً ويقيناً بانتصارِه على أعدائِه، وأَملاً

بأنَّ المستقبلَ له ولدينِه، يقولُ اللهُ له: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ فهو غنيٌّ عن عبادِه جميعاً، لا تنفعُه طاعةُ المطيعين منهم، ولا يضرُّه كفرُ الكافرين منهم.. وهو معَ غِناهُ رحيمٌ بعبادِه، بعثَ لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنزلَ عليه القرآن، ودلَّهم على طريقِ الحق، وقَبِلَ منهم العبادةَ والعملَ الصالح، وتجاوَزَ عن ذنوبِهم وسيئاتِهم.

وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يُهددَ الكافرينَ بالعذاب، بأنْ يقول لهم: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾.

أَيْ: اللهُ قويٌّ قادر، فعَّالٌ لما يريد، وأنتم لا تُعجِزونَ الله، فإذا أرادَ إهلاكَكم واستخلافَ غيرِكم بعدَكم، فعلَ ذلك وأهلككم؛ لأنّه لا رادَّ لأمْرِه، ولا مُبطِلَ لإرادتِه.

وهو سبحانه قد فعلَ ذلك بالكفارِ المكذِّبين من قبلكم، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود وقومِ فرعون وغيرهم، حيث أَهلَكَهم واستخلفَ آخرينَ بعدهم، وأنتم أنفسُكم أنشأكم اللهُ من ذريةِ ونسلِ قومٍ آخرين من قبلكم، أَهلكهم وجعلكُم خلفاءَ مكانَهم.

وبمعنى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

كما أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يقولَ لهم مهدِّداً متوعِّداً: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

أَيْ: ما وعدَكُم اللهُ به من العذاب، سوفَ يأتيكم ويقعُ بكم ويُصيبُكم لا محالة، وأَنتم مهما ملكْتُم من القوةِ فإنكم لا تُعْجِزونَ الله، ولا تُعطِّلونَ إرادتَه.

والذي وعدهم اللهُ به أمران:

الأمرُ الأول: فَشَلُهم في حربهم للحقِّ في الدنيا، وانتصارُ الحقِّ وامتدادُه وانتشارُه، ورسوخُه في حياةِ الناس. وقد تحقَّق هذا، حتى في أيامِ الرسولِ ﷺ، حيثُ حقَّقَ انتصاراتٍ متواليةً على الكافرين.. كما تحقَّقَ بعد انتقالِه ﷺ للرفيقِ

الأعلى، وما زالَ يتحققُ حتى في أيامنا، رغمَ اشتدادِ حربِ اليهودِ والصليبيين ضدَّ الإسلامِ والمسلمين.

الأمرُ الثاني: بَعْثُهم يومَ القيامةِ، وحسابُهم على جرائمهم ضدَّ الحق، ثم تعذيبُهم في نارِ جهنَّم.

اعملوا على مكانتكم إني عامل:

وفي انتظارِ تحقّقِ ما وعدَهم اللهُ به في الدنيا، كان الرسولُ ﷺ حريصاً على العمل. ولذلك أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ للمشركين: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أَيْ: يا قوم! اعْمَلوا على طريقتكم وخطّتكم، واستمرّوا على نهجِكم وبرنامجكم، ونفِّذوا ما تشاؤون من مخططاتكم، وحاربوني كما تشاؤون.

وأنا أيضاً عاملٌ على مكانتي، وأَتْباعي المؤمنون عاملونَ على مكانتهم، وسوفَ نستمرُّ في دعوتِنا وعبادتِنا، وسنواجِهُ عملَكُم وحربَكم بالمواجهةِ والتحدّي، والصبرِ والثبات، ولن نتوقّفَ عن عملِنا ودعوتِنا وعبادتِنا وتحدّينا وصبرِنا..

ونحنُ نوقنُ أنَّ المستقبلَ لنا، وسوفَ ينصرُنا اللهُ عليكم، وعندما تنهزمون أمامَنا في المواجهاتِ القادمة، سوف تعلمونَ مَنْ كانَ اللهُ معه، ومَنْ كان على الحقِّ، ومَنْ تكونُ له عاقبةُ الدار، ونتيجتُه النصرُ والغلبةُ والتمكين!.

وأنتم أيها الكافرون ظالمون، والظالمونَ دائماً خاسرون، لأنَّ سنّةَ اللهِ تقرّرُ أنّه لا يمكنُ أنْ ينجحَ أو يفلحَ الظالمون!.

وما قالَه الرسولُ ﷺ نقولُه نحنُ لأعداءِ الإسلام، من اليهودِ والأمريكان وغيرِهم: اعملوا على برنامجكم وخطّتِكم في حربِ الإسلامِ والمسلمين، ونحنُ نعملُ على مكانتِنا وطريقِنا، وسوفَ تفشلونَ في حربِكم، وسينصرُنا اللهُ عليكم، وسيجعلُ لنا عاقبةَ الدار، والتمكين للإسلام، وعندما يتحقّقُ ذلك في المستقبل بإذن الله، سوف تعلمون مقدارَ خسارتِكم وهزيمتِكم وحسرتِكم!!.

* * *

الفَصْلُ الثَّانِي

الوعد القرآني في سورة الأعراف

سورةُ الأعراف مكية، نازلةٌ في الفترة الحرجة الشديدة نفسِها، التي مرَّتْ بها الدعوةُ الإسلاميةُ في مكة، والتي تحدَّثنا عن بعضِ ملامحِها في المبحث السابق، الذي عرضْنا فيه الوعدَ القرآنيَّ في سورةِ الأنعام، ولذلك كان من أهدافِ السورةِ تفنيدُ شبهاتِ ودعاوى المشركين، والانتصارُ للحق، وتعليمُ المؤمنين الحجة، وملءُ قلوبِهم بالأملِ واليقين بانتصارِ الإسلام وأهلِه، وهزيمةِ الكفرِ وأهله، وتقديم الوعدِ الجازمِ النافذِ بتحقيقِ ذلك.

وحقَّقَتِ السورةُ هذه الأهداف، عن طريقِ (استعراضِ) الموكبِ الإيمانيّ الكريم، الذي يقودُه الرسلُ الكرامُ عليهم الصلاةُ والسلام، في مواجهةِ الكافرين المكذِّبين، حيث كان سياقُ السورةِ المتتابعُ يتوقّفُ في (محطّاتٍ) خاصة، للعبرةِ والعظة، يُبرزُ فيها نهايةَ كلِّ جولةٍ من جولاتِ الصراع بين الحقِّ والباطل، التي تحقَّقَتْ في انتصارِ الحق، ونجاةِ الرسلِ وأَتْباعِهم المؤمنين، وهزيمةِ الكفرِ وإهلاكِ الكافرين.

بدأ الاستعراضُ بقصةِ آدمَ عليه السلام ضدَّ إبليس، ومرَّ بقصةِ نوحٍ عليه السلام، ثم بقصةِ هود، ثم بقصة صالح، ثم بقصة لوط، ثم بقصة شعيب، عليهم الصلاة والسلام، وكانت الوقفةُ طويلةً أمامَ قصةِ موسى عليه السلام أمام فرعون، عرضت فيها لقطاتٍ منوَّعةً من قصةِ بني إسرائيل، وأَدانَتْهم لخروجِهم على شرعِ الله!.

ودلَّ الاستعراضُ الهادفُ على حقيقةٍ قرآنيةٍ إيمانية، هي: هزيمةُ الباطل، وإهلاكُ أَهلِه الكافرين، وفَشَلُهم في مواجهةِ الحق، وانتصارُ الحقِّ وأهله، والتمكينُ لهم في الأرض.

وتُؤخَذُ هذه الحقيقةُ المقرّرةُ للوعد القرآني من آيات السورة التالية:

الحديث عن الآجال الثلاثة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

تتحدَّثُ الآيةُ عن أعمارِ الأُممِ وآجالِها، فإذا ما انتهى عمرُ أمةٍ وجاءَ أَجلُها، انتهتْ وزالتْ.

لقد جعلَ اللهُ الحكيمُ للمخلوقاتِ آجالاً ثلاثة:

أجل كل إنسان:

١ ـ **الأجلُ الخاصُّ بكلِّ إنسان**: حيثُ حدَّدَ اللهُ لكلِّ إنسانٍ عمره، وقدَّرَ له أجلَه، فإذا انتهى عمرُه ودنا أجلُه، قبضَه وأماتَه.

وقرَّرتْ هذه الحقيقةَ المتفقَ عليها، آياتٌ عديدةٌ من القرآن؛ منها قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وإذا دنا أَجَلُ إنسـان، وأتاهُ مَلَكُ الموتِ لقبضِ روحه، وطلبَ التأخير، فإنَّه لا يُستجابُ له، لأنّه لا يُؤخَّرُ الأجَل، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

أجل كل أمة:

٢ ـ **الأجل المتعلِّقُ بكلِّ أمـة**: فاللهُ هو الذي يوجدُ الأُمَّة، ويمكِّنُ لها في الأرض، ويُنعمُ عليها بالعديدِ من النعم، ويطالبُها بذكْرِه وشكْرِه، وهو سبحانه يحدّدُ لها عمرَها، ويقدِّرُ زمناً معيناً لقوَّتِها وسلطانِها، ونفوذِها ووجودِها. .

فإذا جاءَ أجلُ الأمة، أوقعَ اللهُ بها أَمْرَه، وقضى عليها، وذلك إمَّا بتدميرِها وإهلاكِها، كما فعلَ مع الأقوامِ السابقين، كقومِ نوحٍ وعاد وثمود، وإمَّا بإضْعافِها وإزالةِ نفوذِها، وتقلُّصِ سلطانِها.

كما حصلَ مع الرومِ والفرسِ والهنودِ في الماضي، وكما حصلَ مع أُممٍ قويةٍ معاصرة؛ كالإسبانِ والطليان، والإنكليز والروس والألمان!.

وتحدَّثَ القرآنُ عن آجالِ الأُممِ المحدَّدَةِ في عدّة آيات، إضافةً إلى هذه الآيةِ من سورة الأعراف. منها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥].

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

أجل الحياة الدنيا:

٣ ـ الأجل المتعلّق بالدنيا: فاللهُ خلقَ الكونَ كلَّه، بما فيهِ من سماواتٍ وأرض، ونجومٍ وكواكب، وشمسٍ وقمر. وحدَّدَ لهذا الكونِ عمراً، وقضى له أجلاً، فإذا جاءَ هذا الأجلُ المسمّى المحدّد، أزالَ اللهُ هذا الكونَ، وأنهى الحياةَ الدنيا، وقضى على الشمسِ والقمرِ والأرضِ والنجوم، وبذلك تبدأُ الحياةُ الآخرةُ الدائمةُ الباقية.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

فالشمسُ والقمرُ يجريانِ ملايينَ السنين، دونَ توقّفٍ أو عطب أو تلف، لكنَّ اللهَ حَدَّدَ لهما أَجلاً مسمى، إذا جاءَ أَفْناهما وقضى عليهما.

قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]. فالسماواتُ والأرضُ لهما أجلٌ مسمّى معيَّنٌ محدَّد، إذا جاءَ أفْناهما الله، وأزالَ الحياةَ الدنيا، وبدأت الحياةُ الآخرة.

تدافع الأمم وتعاقبها:

وحديثُ سورةِ الأعرافِ عن الأجلِ المحدَّدِ لكلِّ أمةٍ، يقدّمُ وعداً ناجزاً، بإزالةِ قوةِ وسلطانِ أُممٍ قوية، وإيجادِ أُممٍ أُخرى وارثةٍ لها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وهذه الآيةُ تقررُ حقيقةً قرآنيةً تاريخية، حول (تعاقُبِ) الأُمم، وتدافُعِها

فيما بينها، وتداوُلِ الأيامِ والزمانِ بينها، فللأممِ أعمارٌ مثلُ الأفراد، فالإنسانُ يولَدُ صغيراً، ثم يكونُ فتًى فشاباً فكَهْلاً فشيْخاً، ثم عجوزاً هرماً، ثم يتوفّاهُ الله . . وهكذا الأمم: تنشأُ الأُمةُ وتتحرَّكُ بحركةٍ فتية، ويقوى سلطانُها، وتعلو كلمتُها، وتهابُها باقي الأمم، ثم تكبرُ وتشيخ، ثم تهرمُ وتعجز، ثم تنتهي من التأثيرِ والسلطة، وتتحوّلُ من القيادةِ إلى التبعية، فتذلُّ لأُمةٍ أخرى، وتعجزُ أمامها! وسبحان الباقي القويِّ الواحدِ القهَّار.

لقد انتهتْ أُمةُ اليونان عندما جاءَ أجلُها، وانتهتْ أُمةُ الرومانِ عندما جاءَ أجلُها، وانتهتْ أُمةُ الفرسِ عندما جاءَ أجلُها، وورثها الإسلامُ الحيُّ المؤثّر . .

وانتهتْ في العصرِ الحديثِ أُممٌ كبرى عندما جاءَ أجلُها؛ كالفرنسيين والإنكليز، والروس والألمان واليابان . . وأمريكة الآن دولةٌ قوية، وأُمةٌ عظمى، تتحكَّمُ في العالم، ولكنَّها لنْ تكونَ مخلَّدة، فاللهُ حدَّدَ لها أجلاً، لا بدَّ أَنْ يأْتيها، فإذا حان أجلُها أنهاها الله، وأزالَها عن مركزِ السيطرةِ والهيمنة، وهذا وعدٌ نافذٌ عندَ الله. وسيرثُها الإسلامُ العظيم، الذي جعلَه اللهُ دينَ العالمين حتى قيامِ الساعة!.

موسى يعد أتباعه بالفرج والنصر:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٩].

تتحدثُ هذه الآياتُ عن مشهدٍ من مشاهدِ قصةِ موسى عليه السلام مع فرعون، ليأخذَ المسلمونَ منها الدلالةَ والعبرة.

وكان حديثُ الآياتِ السابقةِ عن إيمانِ السحرةِ بموسى عليه السلام، ومفاجأةِ فرعونَ بذلك، وتهديدِهم بالقتلِ والصلبِ والهلاكِ والفناء.

أما هذه الآياتُ فإنّها تتحدَّثُ عن تهييجِ الملأ لفرعون، ضدَّ موسى وأتْبَاعِه المؤمنين، وتحريضِه على قتْلِهم، وتوعُّدِ فرعونَ بقتْلِ أبنائِهم واستحياءِ نسائِهم.

وواجهَ موسى عليه السلام هذا الوعيدَ والتهديد، بدعوةِ أَتْباعِه إلى الإيمانِ بالله، والاستعانةِ به، والتوكلِ عليه، والصبرِ على كلٍّ ما يلاقون من العذاب . .

ووعدَهم الفرجَ والخلاصَ والنجاة، فالأرضُ لله وليس لفرعون، واللهُ يزيلُ الطغاةَ الظالمين، ويورثُها عبادَه المؤمنين الصابرين .

ولكنَّ بني إسرائيل كانوا متوتِّرين نَزِقين، ضيّقي الصُّدور، فلم يستجيبوا لوصيةِ موسى عليه السلام، ولم يأْخُذوا ما بَشَّرَهم به، وآذوه قائلين : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ .

موسى يشير إلى الوراثة بين الأمم:

ولكنَّ موسى عليه السلام لم يفقدْ هدوءَه وصبْرَه عليهم، وأعادَ لهم البُشرى بالفَرَج، والوعدَ بالخلاصِ والنصرِ والتمكين، وقال لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

لقد لفتَ موسى عليه السلام أنظارَهم إلى سُنَّةٍ ربانية مطردة، هي سنةُ التداولِ والوراثةِ بين الأُمم، حيثُ يُنهي اللهُ الأُمَّةَ، عندما ينتهي عمرُها، ويحينُ أجلُها، ويأتي بأمةٍ جديدةٍ مكانَها، تخلُفُها في السلطة، وترثُها في الأرض .

ولقد طغى فرعونُ وظلم، فاستحقَّ الهلاكَ والعذابَ من الله، وبنو إسرائيلَ آمنوا، فاستحقّوا الاستخلافَ في الأرض . . وهذه سنّةُ الله ! .

وتابعَتْ آياتُ السورةِ استعراضَ لقطاتٍ ومشاهد، مما جَرى بعدَ ذلك لموسى وأتْباعِه مع فرعون: [١٣٠ ـ ١٣٥]. وكيف كان فرعون يَزيدُ تعذيبَه لهم، وينكثُ وعْدَه لموسى بالإيمان، والإفراج عن بني إسرائيل، ولا يُحسنُ فهمَ الآياتِ التي أَخذَ اللهُ بها قومَه، فاستحقَّ بذلك الهلاكَ والعذاب .

اللهُ يورث بني إسرائيل الأرض:

وانتهت المواجهةُ بين موسى عليه السلام وبين فرعون، النهايةَ المعروفَةَ، المتفقةَ مع سنّةِ الله، في إهلاكِ الظالمين، وإنجاءِ المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا

غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦ ـ ١٣٧].

انتقمَ اللهُ من فرعونَ وجنودِه، وأغرقَهم في اليمِّ، بسببِ طغيانِهم وظلمِهم، وتكذيبِهم بآياتِ الله، واستعبادِهم لعبادِ الله.

واستخلفَ بني إسرائيلَ في الأرض، وأَورثَهم مشارقَها ومغاربَها، وصاروا أصحابَ السلطانِ والتمكين، بعدما كانوا في الأرضِ مستضعَفين، وكان هذا مكافأةً لهم على صبرهم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

وامتحنَ اللهُ بني إسرائيلَ بالاستخلافِ والوراثة، لينظرَ كيفَ يعملون. لكنَّهم لم ينجحوا في الامتحان، ولم يكونوا على قَدْرِ المسؤولية، وخالَفوا أَمْرَ الله.. فحقَّتْ عليهم سُنَّةُ الله، التي حقَّتْ على مَنْ كانَ قبلَهم!.

وعد المسلمين بوراثة الأرض:

وذكرَ اللهُ للمسلمين المستضعفين في مكة هذه المشاهد، ليقدِّمَ لهم البشرى بالفرَج، والأَمَلَ بالخلاص، والوعدَ بالنصرِ والاستخلافِ والتمكين. فقد كان الصحابةُ في مكة يمرّونَ بمرحلةِ الاستضعاف، التي لا بدَّ من تجاوُزِها، بالاستعانةِ بالله، والصبرِ على البلاء، والتي ستقودُهم إلى مرحلةِ الاستخلافِ والتمكين، والانتصارِ على أعدائِهم الكافرين.

ولذلك تضمَّنَتْ هذه الآياتُ وعْداً ضِمْنياً غيرَ صريح، بنصرِهم واستخلافِهم، لأنَّهم أفضلُ وأكرمُ على الله من بني إسرائيل.. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ فيما بعد.

وعندما يقفُ المسلمون المستضعَفونَ المضطهدون، أمامَ هذه الآياتِ من قصةِ بني إسرائيل، يأخذونَ منها هذه الإشارةَ الواعدةَ بالفرَجِ والتمكين!.

* * *

الفَصْلُ الثالث

الوعد القرآني في سورة يونس

سورةُ يونس مكية، أُنزلَتْ في الفترةِ الحرجةِ الشديدة نفسها، التي مرَّتْ بها الدعوةُ الإسلاميةُ في مكة، ولذلك هدَفَتْ إلى تسليةِ ومواساةِ الرسولِ ﷺ، على ما يجده من أذى قومِه، وإلى تقديم البشرى والأمل، للمسلمين المستضعفين، ورفْعِ همَمِهم وعزائِمِهم، ليوقِنوا يقيناً جازماً بأنَّ الأملَ لهم، والمستقبلَ لدينهم.

وتضمَّنتْ آياتُ السورةِ وعداً قرآنياً بالتمكينِ للمسلمين، ووعيداً وتهديداً بالهزيمةِ والخسارةِ للكافرين. ومن هذه الآياتِ الواعدةِ ما يلي:

سنّة الله في إهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين:

أولاً ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

تتحدَّثُ الآيتانِ عن السنَّةِ الربَّانيةِ في إهلاكِ الظالمين الكافرين المجرمين، والسنَّةِ الربَّانيةِ في استخلافِ الأُممِ وتوارثِها، وتداولِ الأيامِ بينها.

فاللهُ أَهلكَ الظالمين المجرمين السابقين، لأنهم كفروا بالحق، وكَذَّبوا الرسل، وظلموا الناس، واضطهدوا المؤمنينَ المستضعَفين.

واللهُ جعلَ الأجيالَ الجديدةَ خلائفَ في الأرض، من بعدِ تدميرِ وإهلاكِ الظالمين، وابتلاهم بالتمكين، لينظرَ كيفَ يَعملون. فإنْ آمَنوا واستقاموا، حافَظوا على الإنعامِ الربّاني، وأدامَ اللهُ عليهم التمكينَ والتأييد، وإنْ طغوا وأجرموا حقَّتْ عليهم سُنَّةُ الله، وأَهلكَهم كما أَهلكَ الظالمين من قبلِهم.

وهذا وعدٌ للمسلمين بالنصرِ والتمكين، ووعيدٌ لكفارِ قريشٍ بالإذلالِ والهزيمة.. وقد حقَّقَ اللهُ للمؤمنينَ الصابرينَ وعْدَه بالنصر، وأوقع بالكافرين وعيدَه وتهديدَه، بما حصلَ في الغزواتِ الجهاديةِ الإسلامية.

تحدّي الكفار بالقرآن:

ثانياً ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٧ ـ ٣٩].

تقررُ الآيةُ الأُولى أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأنّه لا يمكنُ أنْ يكونَ مفترى من دونِ الله، وهو مصدِّقٌ للكتبِ الربَّانية السابقة كالتوراة والإنجيل، وقد فَصَّلَ اللهُ فيهِ كلَّ شيء، وكلُّ ما فيه حقٌّ وصدقٌ وصواب.

وتُبطلُ الآيةُ الثانيةُ مزاعمَ الكفارِ ضدَّ القرآن، فهم يتَّهمون الرسولَ ﷺ بأنّه افترى القرآنَ واختلَقَه، ونسبَه إلى اللهِ افتراء..

ولذلك تحدَّتْهم الآيةُ بأنْ طلَبَتْ منهم الإتيانَ بسورةٍ هي مثلُ القرآنِ في فصاحتِه وبلاغتِه وأُسلوبِه، والاستعانةَ بمنْ يُريدون ويَستطيعون، فإن نجحوا في ذلك، وقدَّموا السورةَ المطلوبة، كانوا صادقين في كلامهم، وكان القرآن مفترى، وليس من عند الله، وإنْ عَجَزوا عن ذلك كانوا كاذبين في مزاعِمِهم، وثبتَ أنَّ القرآنَ من عندِ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ.

تكذيب الكفار بوعود القرآن:

أما الآيةُ الثالثةُ فإنّها تتضمَّنُ تهديداً ووعيداً للكفارِ بالعقاب، ووعْداً مشرقاً للمؤمنين بالنصر.

تصفُ الآيةُ الكفارَ بالجهل، الذي دفعَهم إلى التكذيبِ بالقرآنِ جملةً وتفصيلاً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.. إنهم لم يُحيطوا علماً بالقرآن، ولا بمعانيه ومضامينه، فكيفَ كذَّبوا بشيءٍ يجهلونَه؟.

ومن الحقائقِ القرآنيةِ التي لم يُحيطوا علماً بها فكذَّبوها، وعودُ القرآنِ بالنصرِ والتمكينِ للمسلمين، وبالخسارةِ والهزيمةِ للكافرين.. فقد سمعوا آياتٍ قطعَتْ تلكَ الوعود، فاستبْعَدوا تحقُّقَها، وأنْكَروا وقوعَها، وكَذَّبوا بها، وتساءلوا:

هلِ من الممكنِ أَنْ يتغلَّبَ عليهم المسلمون وهم مستَضْعَفون أمامَهم؟ لا يملكونَ قوةً ولا سلطاناً ولا أرضاً؟!.

وتـردُّ الآيةُ على تكذيبِهم، واستبعادِهم تحققَ الوعودِ القرآنية، بقولِها: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾. وهذه الجملةُ وعيدٌ وتهديدٌ لهم، بقربِ وقوعِ العذابِ بهم!.

«لمَّا»: حرفُ إطماع، يدلُّ على قربِ تحقُّقِ وقوعِ ما بعدَها. وهي حرفُ جزم، يجزمُ الفعلَ المضارعَ بعدَه، و«يأتِهم»: مضارعٌ مجزوم، وعلامةُ جزمِه حذفُ حرف العلة، أَصلُه «يأتيهم». والضمير «هم» يعودُ على المشركين، وهو في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم، و«تأويلُه»: فاعل مؤخَّر، والضمير في «تأويله» يعودُ على القرآن.

فمعنى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾: لم يتمّ تأويلُ آياتِ القرآنِ الواعدةِ بانتصارِ المسلمين، وهزيمة الكافرين، ولذلك كَذَّبَ الكافرونَ بها.

معنيان للتأويلِ في القرآن:

ما معنى التأويل هنا؟.

التأويلُ بمعنى بيانِ العاقبةِ والمآل، أَو رَدِّ الشيءِ إلى غايتِه المرادةِ منه، وتحديدِ معناه الصحيح، أو مآله الدقيق.

والتأويلُ في القرآنِ له صورتان:

الأولى ـ صورة نظرية: تقومُ على إزالةِ اللبسِ والغموضِ عن الكلام، وذلك بحملِه على نصٍّ آخرَ صريح، واضحٍ محكَم، وردِّه إليه. وهذا هو تأويلُ الآياتِ المتشابهاتِ القليلةِ في القرآن، وذلك بإزالةِ الاشتباهِ عنها، عن طريقِ حمْلِها على الآياتِ المحكماتِ الكثيرة في القرآن.

الثانية ـ صورة عملية مستقبلية: وذلك ببيانِ العاقبةِ والمآلِ للآية، فعندما تتحدَّث الآيةُ عن أمرٍ مستقبليٍّ قادم، يكونُ حديثُها وعداً نظرياً، وعندما يتحقَّقُ ذلك الوعدُ النظري، في صورةٍ عمليةٍ واقعيةٍ تطبيقية، يكون ذلك الوقوعُ تأويلاً لها، لأنه به يتحقّقُ مآلُها.

التأويل العملي للوعود القرآنية بالنصر:

الوعودُ القرآنية في السورِ المكيةِ بانتصارِ الحقّ وإزهاقِ الباطل، كانت وعوداً نظريةً مجرّدة، وهذه الوعودُ تحتاجُ إلى «تأويل»، أَيْ: تحتاجُ إلى إنجازٍ وتنفيذ، وتطبيقٍ على الأرض، فوقوعُها على الأرضِ تأويلٌ عمليٌّ لها.

إنَّ الوعدَ القرآنيَّ في قولِه تعالى في سورةِ القمر: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وعدٌ نظري، قطعهُ القرآنُ في مكة.. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ في غزوةِ بَدْر، فكانَ وقوعُه وتحقُّقُه «تأويلاً» له، ولذلك قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: «فعرفتُ تأويلَ الآيةِ يومئذ». وبذلك كان تأويلُ الآيةِ تحقُّقَ مضمونِها على الأرض.

إذن معنى قوله: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾: لم تتحقَّقْ حتى الآن الوعودُ القرآنيةُ الواعدة، ولم يتمّ تأْويلُها العملي، ولذلك كَذَّبَ بها الكافرون.

واختيارُ حرفِ الإطماع «لمّا» مقصود، لأنَّه يدلُّ على قربِ مجيءِ ذلك التأويل، وقد أتاهم تأويلُ تلك الوعودِ القرآنية في غزوةِ بدر، وما بعدها.

والدليلُ على أنَّ هذا هو معنى: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ قولُ الآيةِ بعدَ ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أَيْ: كما كَذَّبَ كفارُ مكة بما لم يحيطوا بعلْمِه من معاني القرآن، ووعودِه وأَخبارِه المستقبلية، كذلك كذَّبَ الكفارُ السابقون بما أَخبرَهم به رسلُهم.

فماذا فعلَ اللهُ بالكفارِ المكذِّبين السابقين؟ لقد أهلَكَهم ودمَّرَهم، وبذلك أَتـاهم تأويلُ الأخبـارِ والوعودِ التي كَذَّبوا بها.. وبذلك كانتْ عاقبةُ الظالمين السابقين سيئة. فانظرْ كيفَ كانتْ عاقبتُهم، وخُذْ منها العبرة.

وهذا تهديدٌ للكفارِ المكذِّبين بالقرآن، بأنَّه سيأتيهم تأويلُ ما كَذَّبوا به، كما أتى التأويلُ مَنْ سبقَهم من المكذِّبين.

وهذا وعْدٌ للمؤمنين المستَضْعَفين في مكة بالنصرِ والتمكين، لأنَّ تأويلَ آياتِ الوعيدِ والتهديدِ للكفار، معناه انتصارُ المسلمين عليهم.. وهذا ما حصلَ في الغزواتِ بعدَ الهجرة، التي انتهتْ بفتْحِ مكة.

انتظارُ الكفارِ العذابَ:

ثالثاً ـ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢ ـ ١٠٣].

في هاتَيْن الآيتَيْن وعيدٌ آخر للكافرين بالعذاب، في مقابلِ وعْدٍ جديدٍ للمؤمنين بالنجاة والفرَج.

ماذا ينتظرُ الكفارُ المكذّبون؟ وماذا يتوقّعون أَنْ يحصلَ لهم؟ وهم يعذِّبون المؤمنين، ويكذِّبونَ الرسولَ ﷺ، ويُحاربونَ الإسلام!.

لن يحصلَ لهم إلاَّ مثْلُ الذي حصلَ للكفار المكذِّبين المحاربين من قبلِهم، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وفرعون، لأنَّ هذه سُنَّةُ الله التي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّل: كلُّ مَنْ حاربَ الحقَّ فهو مهزومٌ لا محالة، وتنتظرُه في النهايةِ عاقبةٌ سيئةٌ مظلمة. فكفارُ قريشٍ يسيرون نحو هذه العاقبة، التي وصَلَها الذين من قبلِهم!.

ولذلكَ أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

أَيْ: انْتَظروا أَنْ تَرَوْا أياماً سوداءَ قاسية، مثلَ أيام الكفارِ الذين من قبلِكم، وانْتَظِروا وقوعَ العذابِ بكم، فإنّه آتيكُم لا محالة، وانْتَظِروا انتصارَ المسلمين عليكم، وانْتَظِروا إذلالَكم وهَزيمتكم.

وأنا معكم من المنتظرين، أنتظرُ تحققَ هذا كلِّه، تحقُّقَ الجانبِ السلبيِّ عليكم، وتحققَ الجانبِ الإيجابيّ لي ولأتْباعي..

انتظارُ المؤمنين النصرَ والنجاة:

وقد ذكرت الآيةُ التاليةُ ماذا ينتظرُ المؤمنون، وماذا يأمَلون من الخيرِ عندَ الله، حيثُ بَشَّرَ اللهُ المؤمنين بالنجاةِ والخلاصِ والأمانِ والفوز: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا واضحٌ في القصصِ القرآنيّ، الذي كان يحدّدُ هذه النهايةَ لقصةِ كلِّ نبيٍّ مع قومـه، من نـوحٍ إلى هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وغيرهم، عليهم الصـلاة

والسلام، فاللهُ كان يُنهي المواجهةَ بين الرسولِ وقومِه، بإهلاكِ الكفارِ المعادين، وإنجاءِ الرسولِ وأَتْباعِه. فهذه سُنَّةُ اللهِ التي لا تتخلف.

وقطعَ اللهُ وعْداً جازماً بإنجاءِ المؤمنين، على اختلافِ الزمانِ والمكان: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

اللهُ لا يُخلفُ الميعاد، ووعْدُه ناجزٌ نافذ، فإنجاءُ المؤمنين عند إهلاك الكافرين أمْرٌ قَدَّرَه الله، وأَنفذَه وأمضاه، وتفضَّلَ على المؤمنين بإخبارِهم أنّه حقٌّ عليه، وجعلَه اللهُ حقاً عليه تكرُّماً منه وفضلاً سبحانه.

وتحقَّقَ ما في الآيتيْن من وعيدٍ وتهديدٍ للكافرين، ووعْدٍ مشرقٍ للمؤمنين، وذلك في الغزوات الإسلامية بعد الهجرة.

وبذلك تحقَّقَ ما كان ينتظرُه رسولُ الله ﷺ من خيرٍ له وشَرٍّ لأعدائه: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

بهذا اليقينِ الجازمِ بتحقُّقِ وعْدِ الله، وانتظارِ تأويلِه في عالم الواقع، يتعاملُ المسلمون المجاهدون المعاصرون مع أعدائِهم من اليهودِ والأمريكان وغيرهم!

الاتباع والصبر حتى يتحقق الوعد:

رابعاً ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٨ ـ ١٠٩].

هاتان الآيتان خاتمةُ سورةِ يونس المكية، التي تُريدُ تثبيتَ المؤمنين على الحق، وملءَ قلوبِهم بالأملِ واليقين، وتقديمَ الوعودِ الصادقةِ لهم بالنصرِ والتمكين.

يأمُرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبلغَ دعوتَه للناسِ جميعاً، وأَنْ يُقيمَ عليهم الحُجّة، ويقولَ لهم: أنا رسولُ الله إليكم جميعاً، وقد قدَّمْتُ لكم الحق، وأقمْتُ عليه الأدلّةَ والبراهين، وبذلك انتهتْ مهمتي عندكم، والخطوةُ التاليةُ عليكم، فإذا قبلْتُم الهدى وآمنْتُم؛ أفلحْتُم وفُزتُم، وإنْ رفضْتُموه كنتم الخاسرين، وأنا لستُ وكيلاً عليكم، ولا يجبُ عَليَّ قذفُ الإيمانِ في قلوبِكم!.

ماذا يفعلُ رسولُ اللهِ ﷺ بعدَ التبليغِ والبيانِ وإقامةِ الحجّة؟ ماذا يفعلُ وهو ينتظرُ تحقُّقَ موعودِ الله؟ .

كانَ ينتظرُ تحققَ موعودِ الله، عندما قال لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وهو في فترةِ الانتظارِ ينفِّذُ ويطبّقُ قولَ الله له: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .

لقد أَمَرَهُ اللهُ بأمرين:

الأول: اتِّباعُ شرعِ الله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾. وذلك بتنفيذِ الأوامرِ والتوجيهات، التي أنزلَها اللهُ في القرآن، والمتعلّقةُ بالشعائرِ التعبّدية، والمشاعرِ الأخلاقية، والحركةِ الدعوية، ومواجهةِ الأعداء، والصمودِ أمامَهم.

الثاني: الصبر ﴿وَٱصْبِرْ﴾ وهو صبرٌ عامٌّ شاملٌ مطلق، يقدِّمُ زاداً للمؤمنين، يثبتُهم على الحقِّ، ويدفعُهم إلى تجاوزِ مرحلةِ انتظارِ النصرِ بعزيمةٍ وهمةٍ وأملٍ ويقين.

وسوفَ يَحكمُ اللهُ بين المؤمنين والكافرين، ويُنهي المواجهةَ بينهم، ويُحققُ وعدَه للمؤمنين، ويوقعُ وعيدَه للكافرين، وهو سبحانه خيرُ الحاكمين.

زادُنا ونحنُ ننتظرُ تحقيقَ وعودِ اللهِ لنا بالنصرِ، تنفيذُ الأَمْرَيْن المذكورَيْن في الآية: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾.. الاتّباعُ الجادُّ الصادقُ لشرعِ الله، والصبرُ الجميل، والانتظارُ الإيجابي، المقرونُ بالبشرى والأمل، والجهدِ والعمل.

* * *

الفَصل الرابع

الوعد القرآني في سورة هود

سورةُ هود مكية، وأُنزِلَتْ في الفترةِ الحرجةِ نفسها، التي تحدَّثْنا عن ملامِحِها من قبل، وهدفَتْ إلى ما هدفَتْ إليه سورةُ يونس، والسورُ الأُخرى النازلةُ في تلك الفترة، مع تميُّزِ كلِّ سورةٍ بشخصيةٍ خاصة، ذاتِ ملامحَ خاصة، وطريقةٍ خاصةٍ في عَرْضِ موضوعاتِها، وتقريرِ حقائقِها.

وقامَتْ سورةُ هود بتثبيتِ النبيِّ ﷺ والمؤمنين على الحق، وملء قلوبِهم باليقينِ والأمل، بانتصارِ الإسلام، وهزيمةِ الكفر، من خلالِ استعراضِ قصصِ الرسلِ مع أقوامِهم، وهم: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم الصلاة والسلام. وكان ترتيبُ ذِكْرِ الرسلِ وفقَ التسلسل التاريخي.

والمذكورُ من قصةِ كلِّ رسولٍ من هؤلاء مع قومِه هو قيامُ الرسولِ بتبليغِ الدعوةِ لقومِه، وذكْرُ موقفِهم من دعوتِه، ثم استعراضُ بعضِ ما جرى من حوارٍ ونقاشٍ بينَه وبينهم، وتحدّيه لهم، وإصرارُهم على الكفرِ والتكذيبِ والعداء، ثم ذكْرُ خاتمةِ قصتِه معهم، بإنجاءِ الرسولِ وأتباعِه المؤمنين، وإهلاكِ أعدائِه المكذّبين.

والهدفُ من هذا الاستعراض، والتركيزِ على هذه المشاهدِ من قصةِ كلِّ رسول، هو تثبيتُ المؤمنين على الحق، وتقويةُ هممِهم وعزائمِهم على المواجهة والتحدّي، ولفْتُ أنظارِهم إلى سُنّةِ الله في الدعوات، واستشرافُهم الأمَلَ الكبير، ونظرتُهم نحو المستقبلِ المأمول، بالتمكينِ لهم، والهزيمةِ لأعدائِهم!.

وقد جاءتْ آياتُ التثبيتِ والتوجيهِ والوعد، في ذكْرِ ما جرى بين الرسلِ وأَقْوامهم، أو في التعقيبِ على إنهاءِ المواجهةِ بين الفريقَيْن. . ومن أشهرِها ما يلي:

العاقبة للمتقين:

أولاً: في التعقيبِ على قصةِ نوحٍ عليه السلام مع قومه، التي انتهت بإغراقِ الكافرين بالطوفان، وإنجاءِ نوحٍ وأتباعه المؤمنين في السفينة، ثم إنزالِهم إلى الأرض بعد الطوفان، لاستئنافِ الحياةِ من جديد.

جاءَ التعقيبُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

يقولُ اللهُ لرسولِه محمد ﷺ: ما ذكرناه لك من قصةِ نوحٍ من أنباءِ الغيب، أوحيناها إليك، ولم تكنْ تعلمُها أنتَ من قبل، كما أنّ قومَك لم يكونوا يعلمونَها، وورودُ هذه الأنباءِ في القرآنِ دليلٌ على أنَّ هذا القرآنَ ليس من تأليفِ مخلوق، إنما هو وحيٌ منّا إليك.

وأمرَ اللهُ رسولَه ﷺ بالصبر، بمعناه العامّ الشامل، لأنَّ الصبرَ زادٌ ضروري، في مرحلةِ انتظارِ النصر.

وقررَت الآيةُ سنّةً ربّانيةً مطردة: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. أي: نهايةُ المواجهةِ بين جندِ الحقِّ وأصحابِ الباطلِ هي في إنجاءِ المتقين، وإهلاكِ الكافرين، فالعاقبةُ دائماً للمتقين، يمنُّ اللهُ عليهم بالفرَج والنجاةِ والنصرِ والتمكين، وعليهم أنْ يستشرفوا المستقبلَ بيقين، وينظروا للعاقبةِ بثقةٍ وأمل، وينتظروا تحقيقَ ما وعدَهم اللهُ به!.

سنّة الله في الاستخلاف:

ثانياً: عرضت آياتُ السورةِ بعضَ ما جرى بين هودٍ عليه السلام وبين قومِه، وسجّلَتْ بعضَ ما قالَه هودٌ عليه السلام لهم، ومنه انتظارُه إهلاكَهم واستخلافَ آخرين مكانَهم. وذلكَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

أي: الواجبُ عليّ تبليغُكم الدعوة، وإقامَةُ الحجّةِ عليكم، وقد فعلْتُ ذلك، فإنْ رفضْتُم دعوتي، وتولّيْتُم وأعرضْتُم، وأصررتُم على الكفرِ والتكذيبِ والعداء، فأنتم الخاسرون، وبذلك تجنون على أنفسِكم، فاللهُ سيدمّرُكم

ويهلكُكم، كما فعلَ بقومِ نوحٍ من قبلكم، وأنتم لا تُعجزونَ الله، ولا تضرّونَه شيئاً بكفركم..

وسيستخلفُ اللهُ قوماً غيرَكم، يرثونكم، ويأْتونَ مكانَكم، فهذه سنّةُ اللهِ التي لا تتخلَّف.

وقد حقَّقَ اللهُ سنَّتَه، فأَنجى هوداً والذينَ معه، وأَهلكَ قومَه الكافرين. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٨ ـ ٦٠].

العمل المتواصل وارتقاب الموعود:

ثالثاً: ذكرت آياتُ السورةِ بعضَ ما جرى من كلامٍ وحوارٍ بين شعيبٍ عليه السلام وبين قومِه مدين. ومن ذلك صبرُ شعيبٍ عليهم وتحدّيه لهم. قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣].

معنى: ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾: على طريقتِكم وخطَّتِكم وبرنامجكم.

بعدما بلَّغَ شعيبٌ عليه السلام قومَه الدعوةَ، اتضحَ لهم طريقان: طريقُ الحقّ وطريقُ الباطل. الحقّ الذي يمثّله شعيبٌ عليه السلام، وأَتْباعُه المؤمنون، والباطلُ الذي يمثّله الملأُ من قومِه، وأَتْباعُهم الكافرون.

ولكلِّ فريقٍ منهما مكانةٌ وطريقةٌ وبرنامجٌ عملي: برنامجٌ عمليٌّ إيجابي، يقومُ على العبادةِ والدعوةِ والعملِ الصالح، يقومُ به شعيبٌ عليه السلام وأَتباعُه المؤمنون. وبرنامجٌ عمليٌّ سلبيٌّ خبيث، يقومُ على الكفرِ والبغيِ والظلمِ والطغيان، ونشْرِ الفسادِ والإفسادِ بين الناس، ومحاربةِ الحقّ وأَهلِه.. وشتّانَ بين العمَلَيْن والبرنامَجَيْن.

ولذلك تحدَّى شعيبٌ عليه السلام قومَه بقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾.

أيْ: كلٌّ منّا يعمل، وفقَ خطتِه، وكلٌّ منّا يسعى في إبطالِ عملِ الآخر، فأنتم عاملون على هزيمتي والقضاء على دعوتي، وأنا عاملٌ على نشرِ دعوتي، وعلى إزهاقِ باطلِكم، والقضاءِ على سلطانكم، فاعْمَلوا، وأنا أعمل!.

والمستقبلُ لنا وليس لكم، إننا ننتظرُ ما وَعَدَنا اللهُ به من النجاةِ والنصر، وننتظرُ ما توعَّدَكُم اللهُ به من العذاب، ونحنُ نوقنُ أنَّ هذا آتٍ لا محالة، وعندما يحلُّ ذلك بكم ستعلمون: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾.

واستمرَّ شعيبٌ عليه السلام في تحدّيهم، فقال: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. أي: ارتقبوا نهايةَ الصراعِ بيني وبينكم، ووقوعَ العذابِ بكم، فأنا رقيبٌ أرقبُ ذلك، فالزمنُ جزءٌ من العلاج.

ولما شاءَ اللهُ إنهاءَ قصةِ شعيبٍ عليه السلام مع قومه، حقّقَ الوعدَ والوعيد. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

سنة الله في أخذ الظالمين:

رابعاً: بعدَ استعراضِ مصارعِ المكذِّبين السابقين، من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ ومدين وقوم فرعون، جاءَ التعقيبُ على ذلك بأخذِ العبرة. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٣].

تلخصُ هذه الآياتُ ما جرى بين جندِ الحقّ وجندِ الباطل، على مدارِ التاريخِ البشري، منذ نوحٍ حتى محمد عليهما الصلاة والسلام، وتُبرزُ إهلاكَ الظالمين الكافرين، وتَدعو إلى ملاحظةِ آثارهم، فها هي المدنُ والقُرى التي كانوا فيها باقية، منها ما هو قائمٌ في أطلالِه، ومنها ما هو حصيدٌ مدمَّر، وأهلُها الكافرون هم الذين

ظلموا أنفسَهم بكفرِهم وطغيانِهم، وعَجَزوا عن دفعِ عذابِ اللهِ لما وقعَ بهم.

وهذه سُنَّةُ اللهِ في أَخْذِ الكافرين المعادين للحق، على اختلافِ الزمانِ والمكان، واللهُ منتقمٌ جبار، وأَخْذُه للأعداءِ أليمٌ شديد، يَقْصِمُهم قصماً، ويجعلُهم عبرةً لمن يَعتبر.

ولكنْ لا يعتبرُ من ذلك إلاّ المؤمنون الصالحون، الذينَ يخافونَ عذابَ الآخرة، ويتمتَّعون ببصائرَ إيمانيةٍ هادية. أما الآخرون فإنّه مطبوعٌ على قلوبِهم، مطموسٌ على أبصارهم، لا يَعتبرون ولا يَتّعظون!!.

وهذا التعقيبُ المقصودُ الهادفُ يقدمُ للمؤمنين البشرى بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، ويَدعوهم إلى انتظارِ موعودِ الله لهم، واستشرافِ المستقبلِ المشرق، وإسراعِ السيرِ إليه بثباتٍ ويقين.

ويستفيدُ من هذا التعقيبِ المسلمون الصادقون، على اختلافِ الزمانِ والمكان، لأنّهم يعيشونَ فترةَ انطباقِ السنّةِ الربّانية على أعدائِهم الذين يحاربونهم، ويفرحون بانطباقِ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ على أُولئك الأعداء!.

أثر الوعد في تثبيت قلوب المؤمنين:

خامساً: ختمتْ سورةُ هودٍ بذكرِ الهدفِ من ذكْرِ أنباءِ الرسلِ فيها، وأثَرِ ذلك على الرسولِ ﷺ والمؤمنين، وتحدّي الأعْداءِ، وتهديدِهم بالهزيمة، ووعْدِ المؤمنين بالفرجِ والنصر، ودعوتِهم لانتظاره. قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٠ ـ ١٢٣].

من فوائدِ ذكْرِ قصصِ الأنبياءِ في القرآن، تثبيتُ فؤادِ النبيِّ ﷺ وقلوبِ المؤمنين، لأنَّ هذا القَصَصَ معرضٌ لتطبيق سُنَنِ اللهِ على الواقع، ولأنَّ نهاياتِ القصص تدميرُ الكافرين ونجاةُ المؤمنين، وفي هذا بشرى وأملٌ للمؤمنين، تطمئنُّ به قلوبُهم.

وأَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يتحدّى الكافرين قائلاً لهم: ﴿ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

أي: اعْمَلـوا على طريقتِكم وبرنامجِكم، وابْذُلوا جهدَكم وطاقتكم في حربي وإِبطالِ دعوتي، ونحنُ المؤمنون عاملون على مكانتِنا وطريقتِنا وبرنامجِنا، في الثباتِ على الحق، والوقـوفِ أمامكم، وإِبطالِ مكائدِكم، ونشـرِ الدعـوة بينكم.. أنتم تعملون أقصى ما في وسعكم ونحن نعملُ أقصى ما في طاقتِنا.. والأيامُ بيننا، والمستقبلُ لنا، والزمنُ في صالحِنا، لأَنَّ اللهَ معَنا، وسيهزمُكم وينصُرُنا عليكم.

وانتظروا ما سيحلُّ بكم في المستقبل، فنحنُ منتظرون تحقيقَ ما وعَدَنا اللهُ به، من الغلبةِ عليكم، ونحنُ موقنون بحصولِ ذلك، لأنّه وَعْدُ الله، واللهُ منجزٌ وعْدَه، لا يُخلفُ الميعاد.

وكان الزمنُ في صالحِ الرسولِ ﷺ وأَتْباعِه المؤمنين، فما هي إلا سنواتٌ معدودات، حتى كانت الهجرةُ إلى المدينة، وما هي إلا فترةٌ قصيرة، حتى بدأت المعاركُ مع المشركين، وانتهتْ بانتصارِ المسلمين، والتمكينِ لهم، وهزيمةِ الكافرين، وإذلالِهم وخسارتِهم.

وعلى المسلمين الصادقين المعاصرين، الذين يُلاقونَ الحربَ والعداوةَ من اليهودِ والأمريكان أَنْ يقولوا لهم ما قالَه الرسولُ ﷺ لكفارِ عصره: ﴿ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

* * *

الفَصْلُ الخامِسُ

الوعد القرآني في سورة يوسف

سورةُ يوسف مكيةٌ أيضاً، وأُنزلتْ في الفترةِ المكية نفسِها التي تحدَّثْنا عنها فيما سبق.

ولسورةِ يوسفَ طريقةٌ خاصةٌ متميزة، في تثبيتِ قلوبِ المؤمنين، وغرسِ الأملِ واليقينِ فيها، بتحقّقِ ما وعدَ اللهُ به. فالسورةُ كلُّها تقومُ على قصّةٍ واحدة، بدأتْ بالوعد، وانتهتْ بتحقُّقِه في أرضِ الواقع، وتخلّلَتْ آياتِ السورةِ إشاراتٌ عديدة، للتأكيدِ على الحقائقِ القاطعة فيها.

بدأت السورةُ بذكْرِ رؤيا، رآها الطفلُ الصغير، رؤيا واعدة بتحققِ شيءٍ له في المستقبل، ولما قصَّ الطفلُ الرؤيا على أبيه بشَّرَهُ بالخير، وجرت للطفلِ أحداثٌ متتابعةٌ مفاجئة، استمرَّتْ سنواتٍ عديدة، وانتهت الأحداثُ بتأويلِ عمليٍّ لتلك الرؤيا، وتحقيقِ ما وعدَه اللهُ به. وفيما يلي إشارةٌ إلى بعضِ تعقيباتِ السورةِ على أحداثِ القصة.

رؤيا يوسف وهو صغير:

أولاً: رأى يوسفُ سجودَ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له، وقصَّ هذه الرؤيـا على أبيه النبيِّ يعقوب عليه السلام، فاستبشرَ الأبُ بها خيراً، واعتبرَها بشرى من اللهِ لابنِه بمستقبلٍ مشرق، وأخبرَ ابْنَه بذلك ليستشرفَه ويسعى إليه. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

اعتبرَ الأبُ هذه الرؤيا وعْداً من الله، بالمستقبلِ العظيمِ لابنه، وألقى هذا الوعْدَ لابنه، الذي استقرَّ في داخلِه، والأبُ والابنُ يوقنَان بتحققِ وعدِ الله، لأنّهما يؤمنانِ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وعد الله ليوسف:

ثانياً: بدأت الأحداثُ بدايةً مثيرة، لم يتوقّعْها الطفلُ الصغير، حيثُ فوجئ بحقْدِ إخوتِـه عليه، إذْ أَلقوه في غيابةِ الجُبّ، وبينما كان الطفلُ يعيشُ دهشـةَ تآمرهم عليه، أوحى اللهُ له بأنه سينجو من هذه المحنة، ويخرجُ منها سالماً، وسيأتي يومٌ يُذَكِّرُ فيه إخوانَه بجريمتِهم ضدَّه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

التمكين الصغير ليوسف في بيت العزيز:

ثالثاً: أخرجَ اللهُ يوسفَ من محنةِ غيابةِ الجُبِّ سالماً، وقَدَّرَ أَنْ يُباعَ عبداً في مصر، وأَنْ يشـتريَه عزيزُ مصر، الـرجلُ الثاني فيها بعد الملك، وهذا تمهيـدٌ للأحداثِ التي سيمرُّ بها يوسف، والتي ستقودُ إلى تأويلِ رؤياه، وتحقيقِ ما وعدَهُ اللهُ به.

وقد علَّقَت الآياتُ على استقرار يوسفَ عبداً رقيقاً في بيتِ العزيز. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢١ ـ ٢٢].

مكَّنَ اللهُ ليوسفَ في الأرض، وهيّأَ له الإقامةَ في بيتِ العزيز، حيثُ أكرمَه الأخير، وأوصى به امرأتَه خيراً، وفعلَ اللهُ ذلك به، ليعَلِّمَه من تأويلِ الأحاديث، وتعبيرِ الرؤى، وهذا كلُّه تهيئةٌ للأحداثِ الأخيرةِ في حياتِه، التي يتحقَّقُ فيها وعْدُ اللهِ له.

واللهُ غالبٌ على أمْرِه، يفعلُ ما يشاء، ويوجِدُ ما يُريد، ويُقدرُ الأحداث، ويُرتبُ الأُمور، لتحقيقِ أمرِه، وإنفاذِ وعْدِه، ولا يُعجزُه شيء، ولا يقفُ أمامه مخلوق. ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ هذه الحقائقَ الإيمانية.

التمكين الكبير ليوسف على خزائن الأرض:

رابعاً: تعرَّض يوسفُ في بيتِ العزيزِ لفتنةِ امرأتِه الطاغية، التي طمعَتْ فيه

واشتَهَتْه، وراودَتْه عن نفسِه، ولكنَّه استعصمَ بالله، واستعلى على فتنتِها، فأُدخِلَ السجنَ ظُلْماً، ولبثَ فيه بضعَ سنين، وعلَّمَهُ اللهُ فيه تأويل الرؤيا، وأوَّلَ لصاحبَيْه السجينيْن رؤيا كلٍّ منهما، ثم أوَّلَ الرؤيا المثيرةَ للملك، الذي أُعجبَ به، وأمَرَ بإخراجِه من السجن، والإتيانِ به إليه، وعندما اطمأنَّ إليه الملكُ، جعله (عزيزاً) لمصر، وسلَّمه خزائنَ الأرض. وبذلك صارَ يوسفُ الرجلَ الثاني بعد الملك. .

وقد عَلقت الآياتُ على ترتيبِ الأحداثِ بتقديرِ الله، لتوصِلَ يوسفَ عليه السلام إلى ما وصلَ إليه بتقديرِ الحكيم الخبير. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٥ ـ ٥٧].

هذا هو التمكينُ الثاني الكبير، الذي مكَّنَه اللهُ ليوسف، وقد كانَ التمكينُ الأوَّلُ صغيراً، حيث هيَّأَ له الإقامةَ في بيتِ العزيز، أمَّا في هذا التمكينِ فقد جعلَه اللهُ على خزائن الأرض.

وهذا التمكينُ تحقيقٌ لما استشرَفَه له أبوه من مستقبلٍ واعدٍ مشرق.

وبقي تحقيقُ وعدِ الله له بلقاءِ إخوته، وتأويلِ رؤياه حول سجودِ الكواكب له.

يوسف يواجه إخوانه وتحقيق وعد الله له:

خامساً: ساقَ اللهُ له إخوتَه العشرة، الذينَ أَلقوه في غيابةِ الجُب، وتعاملوا معه على أنَّه عزيزُ مصر، ولا يوجَدُ عند أيٍّ واحدٍ منهم احتمالُ أَنْ يكونَ هذا العزيزُ هو أخاهم الصغير. قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

وتتابعت الأحداثُ بينه وبينهم، حيث طلبَ إحضارَ أخيه الصغير، وأَخَذَ أخاه بعد أن اتَّهمه فتيانه بسرقةِ صُواعِ الملك، وعادَ الإخوةُ إلى أبيهم بهمٍّ وحزن، وطلبَ منهم أبوهم أنْ يَعودوا إلى مصر، وأنْ يتحسَّسوا من يوسفَ وأخيه، ودخلوا عليه متْعَبين، فَرَقَّ لهم، وذكَّرَهم بما فعلوه به وهو صغير، وتعرّفوا عليه، وعفا عنهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٨٩ـ ٩٠].

وعَدَهُ اللهُ وهو صغيرٌ ملقى في غيابةِ الجُب، أَنْ يُخبرهم في المستقبلِ بجريمتِهم معه: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

والآنَ وبعدَ سنواتٍ عديدة، لا يعلمُ مقدارَها إلاّ الله، وبعدما صارَ الطفلُ رجلاً كبيراً واعياً ناضجاً، يستلمُ المركزَ الثاني في حكم مصر، حققَ اللهُ له وعْدَه السابق، في الوقتِ الذي حدَّدَه الله، والذي رَتَّبَ الأحداثَ التي توصلُ إليه، وها هو ينبئُهم بأمرهم السابق، وهم لا يَشعرون، ولا يتوقَّعون أَنْ يكونَ عزيزُ مصر، الجالسُ أمامَهم الآن، هو أخاهم الصغير، الذي ألقوهُ في غيابةِ الجُبّ، قبلَ سنين وسنين!!. وسبحانَ اللهِ، الغالبِ على أمرِه، الصادقِ لوعدِه، المنفذِ لإرادتِه.

الله يحقق ليوسف الرؤيا:

سادساً: بعدما تعرَّفَ الإخوةُ على يوسف، أعطاهم قميصَه بشارةً لأبيه، وأمرهم أنْ يأتوا بأَهْلِهم أجمعين.. ولما دخلوا جميعاً عليه، خرُّوا له سُجَّداً؛ الأحَدَ عشرَ أخاً وأبواه.. وبذلك تمَّ تأويلُ رؤياه، التي رآها قبلَ سنين عديدة، لا يعلمُ مقدارَها إلاّ الله.

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

لقد كانت الرؤيا التي رآها وهو طفلٌ صغيرٌ وعداً وبشرى من اللهِ له، وبقيَ الوعدُ معلَّقاً سنين عديدة، ومَرَّ يوسفُ الموعودُ بتجاربَ مثيرة، وأحداث عديدة، قَدَّرَها اللهُ له، وساقَ خُطاهُ فيها، ورتَّبَ له الأُمور، وهيَّأَ له الأسباب، وأخذَ بيدِه حتى المشهد الأخير، مشهدِ تأويل الرؤيا عملياً، ودخولِ أهلِه عليه، وسجودِهم أمامه.. وبذلك صَدَقَ اللهُ له وعْدَه، وهو سبحانه لا يُخلفُ الميعاد.

ثقة يعقوب بتحقيق وعد الله:

سابعاً: كان أبوه النبيُّ يعقوبُ عليه السلام، يؤمنُ أنَّ اللهَ سينجزُ ليوسفَ ما وعد، من خلالِ الرؤيا التي أراهُ إيّاها، لأنّه يوقنُ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وكان يؤكِّدُ أنَّ يوسف آمِنٌ في مكانٍ خاصّ، تُحيطُ به عنايةُ اللهِ ورعايتُه، لكنّه لا يعلمُ تفاصيل ما جرى له، ولا يقدرُ على تحديدِ مكانِه ووصْفِه وتفاصيلِ حياتِه. . لا يعلم ذلك لأنَّ هذا من الغيب، والنبيُّ لا يعلمُ من الغيبِ إلاّ ما علَّمَه اللهُ إيّاه، وشاءَ اللهُ الحكيمُ العليم أنْ لا يُخبرَه عن تفاصيلِ ذلك.

صحيحٌ أنَّ يعقوبَ عليه السلام حزنَ لفراقِ يوسف، وتألَّمَ مما جرى له، وشكَا بَثَّهُ وحزْنَه وأَلَمَهُ إلى الله، وأثّرَ حُزْنُه وألَمُه وكَظْمُ مصابِه على عينَيْه. . لكنَّه لم يفارِقْهُ أملُه ويقينُه، وجزمُه أنَّ ابنَه يوسفَ محفوظٌ بحفظِ الله، آمنٌ برعايةِ الله، لأنَّ اللهَ وعدَه بذلك، واللهُ منجزٌ له ما وعد.

ولذلك لما فقد أبناءَه الثلاثة كلَّفَ بقيةَ أولادِه البحثَ عنهم في مصر، مع يقينه أنهم سيجدونهم. قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

النصر بعد الاستيئاس:

ثامناً: كانت الآياتُ الأخيرةُ من سورةِ يوسفَ تعقيباً على القصة، وتأكيداً على بعضِ عِبرِها ودلالاتِها.

ومن تلك الآيات قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١٠].

تُخبرُ الآيةُ الأُولى عن جنسِ الرسل، وأنّ اللهَ اختارَهم رجالاً، فلم يجعل امرأةً نبية. . ثم تلفتُ الآيةُ أنظارَ الكافرين، الذين كذَّبوا محمداً ﷺ، إلى مصارعِ الكفارِ السابقين، وتدعوهم إلى السيرِ في الأرض، للوقوفِ على آثارِهم، ومعرفةِ

ما جرى لهم، ورؤيةِ عاقبتِهم السيئة، فلعلَّ ذلك يدفَعُهم للتخلّي عن ما هم فيه من كفرٍ وتكذيبٍ وعناد.

وهذا تهديدٌ للكفار، ووعيدٌ لهم بالعذابِ القادم، إن استمرّوا على ما هم عليه، وقد حقّقَ اللهُ في كفارِ قريشٍ وعيدَه، بأنْ هزَمَهم وأذلَّهم على أيدي المسلمين في الغزواتِ الجهاديةِ بعدَ الهجرة.

أما الآيةُ الثانيةُ فإنَّها تشيرُ إلى سنّةِ اللهِ في الدعوات، فقد قَدَّرَ سبحانَه أنْ يعيشَ الرسلُ والدعاةُ في شدائدَ ومحنٍ وابتلاءات، وأَنْ يزدادَ ضغطُ الكفارِ عليهم، وكان الرسلُ يواجهونَ هذا بالصبرِ والثبات، واليقينِ بالفرَجِ والنصرِ، والتصميمِ على الدعوةِ والمواجهةِ وتحدّي الكفار..

وكان اللهُ الحكيمُ العليمُ يؤخّرُ النصر، فلا يمنُّ به على الرسلِ وأَتْباعِهم إلا بعد أنْ «يستيئسوا» ويبلغَ بهم الضيقُ والكربُ مداه.. ولكنَّ النصرَ كانَ يأتي في النهاية، حيث كان يُنجي المؤمنين ويدمِّرُ الكافرين.

وهذا وعْدٌ من الله للرسولِ ﷺ وأَتْباعِه، يَعِدُهُم فيه بزوالِ الكرب، وانفراجِ الشدَّة، وتحقّقِ النصر، وهو ما حصلَ بعد الهجرة.

الآياتُ الأخيرةُ من سورةِ يوسف وعْدٌ بالمستقبلِ المشرق، والسورةُ كلُّها وعْدٌ عريضٌ بالمستقبلِ الكبيرِ للإسلام، وهذا ما استوعَبَه الرسولُ ﷺ وأصحابُه، وكان زاداً لهم على تجاوزِ الفترةِ الحرجة، ونيلِ النصرِ الموعودِ بفضلِ الله.

* * *

الفصل السادس

الوعد القرآني في سورة إبراهيم

سورةُ إبراهيم مكية، أُنزلَت في الفترةِ الحرجةِ نفسِها التي تحدَّثْنا عنها من قبل، وهي تهدفُ إلى ما هدَفَتْ إليه السورُ التي تحدَّثْنا عنها، سورُ الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف، ولكنَّ سورةَ إبراهيم تُحققُ أهدافَها بطريقتِها الخاصة، ومن خلالِ شخصيتِها المتميزة!!.

موضوعُ السورةِ الأساسي هو المواجهةُ بينَ الحقِّ والباطل، الحقِّ الذي يُقدّمه ويَحمله الرسل، ويقودونَ أتباعَهم في الوقوفِ أمامَ الباطلِ وجندِه، وتذكُرُ بعضَ ما يقولُه الرسلُ في تحدّي الكافرين، وتَعرضُ سنّةَ اللهِ المطردة في الانتقامِ من الكافرين الظالمين، وتُتابعُ العرضَ لتقدمَ صوراً ومشاهدَ لذلِّ وهوانِ الظالمين في الآخرة.

وتَضربُ السورةُ مثلاً لأصالةِ الحقِّ وقوتِه ورسوخِه، ومَثَلاً لضعفِ الباطل وهزالِه، وتقدمُ الوعدَ الجازمَ بانتصارِ الحقِّ على الباطل. ونقفُ الآن مع هذه المجموعات من آيات السورة.

ممّا جرى بين الرسل وأعدائهم:

أولاً: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ

وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ٩ ـ ١٧].

هذه آياتٌ تسعٌ، تقدّمُ مشهداً للمواجهةِ بين الرسلِ وأقْوامِهم، وتسجلُ الحوارَ بين الطرفين، وتذكُرُ بعضَ ما يجري بينهما، وتحددُ نهايةَ الكافرين الظالمين في الدنيا، واستقرارَهم معذَّبين في نارِ جهنم يومَ القيامة.

وتعرضُ سنّةَ اللهِ في إهلاكِ الظالمين ونصْرِ المؤمنين، وتقدِّمُ الوعدَ المشرقَ بالنصرِ والتمكين، والوعيدَ الشديدَ للكافرين.

بعض الحقائق التي تقررها الآيات:

وليس المقامُ مقامَ تفسيرٍ وتحليلٍ لهذه الآيات، ولذلك نشيرُ إشارةً خاطفة إلى ما فيها من حقائق دعوية، ووعْدٍ بانتصارِ الحق.

١ ـ بعثَ اللهُ الرسلَ للأقوامِ السابقين، وأيدهم بالآياتِ البيّنات، الدالّةِ على صدْقِهم، وقَدَّمَ الرسلُ تلكَ الآياتِ إلى أقوامِهم، وبلّغوهم الدعوة.

٢ ـ كان موقفُ الأقوامِ الكفرَ والعناد، وتكذيبَ الرسل، ومجاهرتَهم بإعلانِ كفرِهم بهم، وشكِّهم في دعوتِهم.

٣ ـ ردَّ الرسلُ على تشكُّكِ أقوامِهم، بأنَّ دعوتَهم واضحةٌ مفهومة، يتعاملُ معها العقلُ والقلب، ولا يشكُّ بها أيُّ صاحبِ عقلٍ وبصيرة.

٤ ـ أثارَ الكفارُ شبهةً أُخرى ضدَّ الرسل، وهي أنهم بشر، ولا يمكنُ أنْ يكونَ الرسلُ من البشر، فإنْ كانوا صادقين في دعوى الرسالة، فلْيقدِّموا لهم معجزاتٍ خارقة! مع أنَّ الرسلَ قدّموا الآيات البيّناتِ لأقْوامِهم.

٥ ـ ردَّ الرسلُ على تلك الشبهةِ بأنّهم بشر، ولكنَّ اللهَ اصطفاهم، وجعلَهم رسلاً، فهذا ليسَ باختيارِهم، وإنما هو من أمْرِ الله.

٦ ـ ردَّ الرسلُ على طلبِ المعجزات الخارقة، بأنَّ هذا عندَ الله، لا قدرةَ لهم عليه، فالله يُجري عليهم ما شاء من المعجزات، ويُعطيهم ما شاءَ من الآيات.

٧ ـ واجهَ الرسلُ أذى أقوامِهم لهم بالصبر، والتوكُّلِ على الله، وصدْقِ اللجوءِ إلى الله، والثباتِ على المواجهةِ، والاستمرارِ في تبليغِ الدعوة.

٨ ـ لم يوافق الكافرون على موقفِ الرسل، القائمِ على الصبرِ والتوكلِ والدعوة، ولذلك صَعَّدوا في مواجهتِهم وإيذائِهم والتضييقِ عليهم.

٩ ـ قدَّمَ الكافرون للرسلِ خيارَيْن لا ثالثَ لهما، فإمَّا أنْ يَخرجوا من أرضِهم ويغادروها إلى أرضٍ أُخرى، وإمَّا أنْ يتخلَّوا عن دعوتِهم، ويعودوا إلى ملةِ أقوامِهم! أمَّا أنْ يستمرّوا على دعوتِهم ويبقوا مقيمين في بلادهم فهذا لن يكون!.

١٠ ـ لما وصلت المواجهةُ بين الرسلِ وأقوامِهم إلى ذورتِها، أنهى اللهُ الأحداثَ بين الفريقيْن، وطبَّقَ سنَّتَه المطردة، فأوحى إلى رسلِه أنّه معهم، ووعدَهم النصرَ والتأييد، وأنَّه سيهلكُ الظالمينَ الكافرين، ويجعلُ المؤمنينَ الصالحينَ وارثينَ الأرضَ من بعدِهم.

١١ ـ حقَّقَ اللهُ لرسلِه وأَتْباعِهم وعْدَه، فأنجاهم ونَصَرَهم، وأهلكَ الكافرين، ودمَّرهم، وبذلك كانت نهايةُ كلِّ جبّارٍ عنيدٍ كافرٍ هي الخيبةَ والخسارةَ والذلَّ في الدنيا، والعذابَ في نارِ جهنم.

السنّة الربّانية في إهلاكِ الظالمين ونصر المؤمنين:

لقد حسمَ اللهُ المواجهةَ بين الرسلِ وأقوامِهم، بإهلاكِ الكافرين، ونصْرِ ونجاةِ المؤمنين.

قال تعالى لرسلِه: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾. وهو وعدٌ من اللهِ لرسلِه بإهلاكِ أعدائِهم، والتمكينِ لهم، وإسكانِهم الأرضَ من بعدِهم.

وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه، عندما استفتحوا مع أقوامِهم، وطبَّقَ ما وعدَهم عملياً: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقد أخبرَنا اللهُ في هذه الآياتِ عن هذهِ الحقائقِ الدعوية، وأعلَمَنا بذلك الوعدِ الذي قدَّمهُ للرسل، ونفَّذَه لهم، لنأخذ من ذلك العِبَر والعظات، ولنحسنَ النظر إلى وعدِ الله، ونثقَ بانطباقِه وتحقّقه في الواقع.

سنّةُ اللهِ التي لا تتخلّف، أنّه إذا قالَ أصحابُ الباطلِ لأصحابِ الحق: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فإنَّ اللهَ يَعِدُ أنصارَ الحقِّ بالنصر، ويقولُ لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

وينهي اللهُ القويُّ الغالبُ المواجهةَ بين أصحابِ الحقّ وأصحابِ الباطل، على أساسِ قولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

إنَّ الخيبةَ والخسارةَ هي نهايةُ كلِّ جبارٍ عنيد، يَغْتَرُّ بقوتِه، فيستخدمُها في حربِ الإسلامِ وجنودِه، فيخرجُ من هذه الحربِ بهذه النتيجةِ السيئة. هذا وعْدُ اللهِ للمؤمنين، الذي لا يتخلّفُ في أيِّ زمانٍ ومكان.

وهذه النهايةُ السوداءُ تنتظرُ الجبارين العنيدين من اليهود والصليبيين، وباقي الكافرين في هذا العصر، وسيرثُهم الإسلامُ العظيم، فهذا وعْدُ اللهِ العليمِ الحكيم!!.

التمثيل بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

ثانياً: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

تضربُ هذه الآياتُ مَثَلَ الكلمةِ الطيبةِ بالشجرةِ الطيبة، ومَثَلَ الكلمةِ الخبيثةِ بالشجرةِ الخبيثة، وذلك ليتفكَّرَ الناسُ في هذيْن المثلَيْن..

الكلمةُ الطيبةُ هي الإسلام، والكلمة الخبيثةُ هي الكفر.

والهدفُ من هذا التمثيل، تقريرُ حقيقةِ قوةِ الإسلام وثباتِه، ورسوخِه في الأرض، وتحدّيه للكفار، والتمكينِ له، بحيثُ يعجزُ الكفارُ عن القضاءِ عليه

واجتثاثِه، رغم عنفِ وقوةِ واستمرارِ محاولاتِهم. . كذلك تقريرُ حقيقةِ ضعفِ الكفرِ وهزالِه، واجتثاثِه وزوالِه.

فالإسلامُ القوي، مَثَلُه مَثَلُ شجرةٍ قويةٍ معمّرة، جذورُها ممتدةٌ في أعماقِ الأرض، ضاربةٌ في أغوارِها، متمكنةٌ منها، وجذعُها قويٌّ متينٌ على وجْهِ الأرض، ولها فروعٌ وأغصانٌ وأوراق ممتدةٌ إلى أعلى في السماء، وهذه الشجرةُ مثمرةٌ معطاءة، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها، وتقدمُ ثمارَها في كلِّ وقت، وينتفعُ الناسُ بكلِّ شيءٍ منها.

أمَّا الكفرُ الضعيفُ الهزيل، فَمَثَلُه كَمَثَلِ شجرةٍ خبيثةٍ هزيلة، صغيرةٍ حقيرة، ضعيفةٍ ذاوية، ليس لها جذورٌ في الأرضِ، وليس لها امتدادٌ في الفضاء، فهي قابعةٌ على سطحِ الأرض، إذا أتَتْها عاصفةٌ فإنها تجتثُّها وتُطيرها وتذهبُ بها، فتموتُ وتيبس، وكأنّها لم تكن!.

هذا التمثيلُ للإسلامِ والكفرِ بالشجرةِ القويةِ والشجرةِ المهزوزة، ينطبقُ على حالتين: الحالةِ الفرديةِ الخاصة، والحالةِ الجماعيةِ العامة.

أثر الإسلام والكفر على الإنسان:

الحالةُ الأولى: الحالةُ الفرديةُ، على المستوى الشخصي.

تشيرُ هذه الحالةُ إلى الأثرِ الإيجابيِّ المؤثِّرِ للإسلام على الفردِ المسلم، والأثَرِ السلبيِّ للكفرِ على الفردِ الكافر.

فالإسلامُ يتغلغلُ في كيانِ المسلم، ويَضربُ جذورَه القويةَ في قلبِه وروحِه ومشاعرِه، فتثبتُ وتترسخُ في أعماقِه، ويمتدُّ هذا الإسلامُ في كيانِه، ويتغلغلُ في حواسِّه وأجهزتِه، ومشاعرِه وأحاسيسِه، وتصوُّراتِه وأفكارِه، ويوجِّهُ له سمعَه وبصرَه، ولسانَه وجوارحَه، وعقلَه وفكرَه، وأحلامَه وآمالَه. وينظمُ له أعمالَه ومكاسبَه، وعمرَه وحياتَه، ويُغذي له همّتَه وعزيمتَه، وتكونُ النتائجُ الطيبة، والأعمالُ الجليلة، والحسناتُ الكثيرة، ثماراً مباركةً لشجرةِ الإسلام، الراسخةِ في شخصيةِ المسلمِ وكيانِه.

ويكونُ مَثَلُ الإسلامِ في كيانِ المسلمِ كَمَثَلِ الشجرةِ الطيبةِ في الأرضِ

الصالحة، فتلكَ الشجرةُ أصلُها ثابت، وفرعُها في السماء، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذْنِ ربِّها.

أمَّا الكفرُ فإنَّه كلمةٌ خبيثة، وفكرةٌ قاتلةٌ مدمّرة، ما أنْ تدخلَ كيانَ الفردِ الكافرِ حتى تشلَّه، وتَقضي على مواهبه وقدراته، وتعطلُ أجهزتَه وحواسَّه، فلا يسمعُ ولا يُبصر، ولا يَعي ولا يَفقه، ولا يتَّعظ ولا يتدبَّر.

ويكونُ مَثَلُ الكفرِ في كيانِ الكافر، كَمَثَلِ الشجرةِ الخبيثةِ الضعيفةِ الهزيلة، اجتُثَّتْ من فوقِ الأرض، ما لها من قرار.

من أقوال السلف في الكلمة والشجرة:

وقد كانت أقوالُ الصحابةِ والتابعين في تفسيرِ الكلمةِ الطيبةِ والكلمةِ الخبيثة، تُلاحظُ أَثَرَ الإسلامِ الإيجابيّ، وأَثَرَ الكفرِ السلبيِّ.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: الكلمةُ الطيبةُ هي شهادةُ أن لا إلـه إلاَّ الله، والشجرةُ الطيبةُ هي المؤمن، والأصلُ الثابتُ هو: لا إلـه إلا الله في قول المؤمن، والفرع في السماءِ هو عملُ المسلم ورفعُه إلى السماء... والكلمةُ الخبيثةُ هي الكفر، والشجرةُ الخبيثةُ هي الكافر، واجتثاثُها من فوقِ الأرض هو الشرك، ليس له أَصْلٌ يَعتمدُ عليه الكافر، ولا بُرهان، ولا يقبلُ اللهُ منه عملاً.

وفي روايةٍ أُخرى عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنّه قال: يعني بالشجرةِ الطيبةِ المؤمن، ويعني بالأصلِ الثابتِ وبالفرعِ في السماء المؤمن، يكونُ المؤمنُ يَعملُ في الأرضِ ويتكلّم، فيبلغُ عملُه وقولُه في السماء، وهو في الأرض. ويعني بتؤتي أُكُلَها كلَّ حين: المؤمن، يذكرُ اللهَ كلَّ ساعةٍ من الليلِ والنهار.. وضربَ اللهُ مَثَلَ الشجرةِ الخبيثةِ كمثلِ الكافر، وإنَّ الشجرةَ الخبيثةَ اجتُثَّتْ من فوقِ الأرض، وكذلك الكافرُ لا يُقْبَلُ عملُه، ولا يَصعدُ إلى الله تعالى، فليس له أصلٌ ثابتٌ في الأرض، ولا فرعٌ في السماء، وليس له عملٌ صالحٌ في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال عطية العوفي: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: ذلك مَثَلُ المؤمن، لا يزالُ يخرجُ منه كلامٌ طيب، وعملٌ صالحٌ يَصْعَدُ إليه... و﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: ذلك مَثَلُ الكافر، لا يَصْعَدُ له قولٌ طيب، ولا عملٌ صالح..

وقال الضحاك: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: تجتمعُ ثمرتُها كلَّ حين. . وهذا مَثَلُ المؤمن، يعملُ كلَّ حين وكلَّ ساعةٍ من النهار، وكلَّ ساعةٍ من الليل، وفي الشتاءِ وفي الصيف، بطاعةِ الله. . وضربَ اللهُ مَثَلَ الكافرِ بالشجرةِ الخبيثة، اجْتُثَّتْ من فوقِ الأرض، ليس لها أصلٌ ولا فرع، وليستْ لها ثمرة، وليستْ فيها منفعة، وكذلك الكافرُ لا يقولُ خيراً، ولا يعملُ خيراً، ولم يجعل اللهُ له بركةً ولا منفعة! [الدر المنثور للسيوطي: ٥/ ٢٠ ـ ٢١].

قوة الإسلام والشجرة الطيبة:

الحالةُ الثانية: الحالةُ العامةُ للإسلام والكفر.

للإسلامِ رسوخٌ مكينٌ في الأرض، وثَباتٌ قويٌّ في الحياة، وأَثَرٌ إيجابيٌّ في الناس، وامتدادٌ متشعِّبٌ في التاريخ. . أما الكفرُ فإنّـه دخيلٌ شاذٌّ غريبٌ على الوجود، وهو ضعيفٌ هزيلٌ في الحياة!.

ومَثَلُ الإسلامِ في رسوخِه وتمكُّنِه وأَثَرِه واستمرارِه، كَمَثَلِ الشجرةِ الطيبةِ القويةِ الراسخةِ المثمرة، ومَثَلُ الكفرِ في ضعْفِه وزوالِه، كَمَثَلِ الشجرةِ الخبيثةِ الضعيفة، كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلَّهم يتفكَّرون.

الإسلامُ أصيلٌ راسخٌ في حياةِ البشرية، أرساهُ اللهُ في الأرض، ومكَّنَه منها، وأصبحَ شـجرةً ضخمـةً معمّرة، تعاهَدَها الرسل، ورعاها أَتْباعُهم، وضربَتْ جذورُها في أعماقِ التاريخ، وكلَّما مضى من عمر البشرية قرن، كلما ازدادتْ جذورُ الإسلامِ متانةً وقوة، وتغلغلاً في الحياةِ البشرية.

وفروعُ شجرةِ الإسلامِ وأغصانُها منتشرةٌ في مختلفِ بقاعِ الأرض، وظلالُها وارفةٌ في كلِّ مكان، يفيءُ إليها الناس، هاربين من شمسِ الجاهلية، ولهبِ الكفرِ الحارق، فيجدونَ عندها الرحمةَ والراحة، والأُلفةَ والطمأنينة!.

وشجرةُ الإسلامِ الخضراءُ الناميةُ المعمّرةُ مثمرة، تقدمُ ثمرَها للبشرية، وتؤتي أُكُلَها للناس، ويَظهرُ ذلك في النماذجِ الإسلاميةِ الرائعةِ الرائدة، من جنودِ الإسـلامِ ودعاتِه وأوليائـه، من العلماءِ والمفكّرين، والدعـاةِ والمصلحين، والمجاهدين الصادقين، الذين يُؤَدّون الشهادةَ لهذا الدين، ويقفونَ أمامَ أعدائِه الكافرين.

أما شجرةُ الكفرِ فإنَّها خبيثةٌ سامة، والمذاهبُ الفكريةُ الضالَّةُ مدمِّرَةٌ مخربة، تُخربُ المواهبَ والطاقاتِ البشرية، وتقضي على القلبِ والروح، وتُعطّلُ السمعَ والبصر، وتعمي البصيرة، ويكونُ الكافرُ معطَّلاً معوَّقاً، بدونِ هدفٍ نبيلٍ أو رسالةٍ سامية.

والكفرُ دخيلٌ زائف، يدمغُه الإسلامُ ويقضي عليه، إذا وجدَ رجالاً صادقين، يَحملونَه ويُجاهدون به.

وكما يُثبّتُ اللهُ المؤمنين على الإسلام بالقولِ الثابت، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فإنّه يُثبّتُ الإسلامَ في الأرض، ويجعلُه راسخاً فيها، متمكّناً منها، ويمدُّ ظلالَه فيها، وينشرُ رحمتَه عليها.

وعد الله بالتمكين للإسلام في حياة البشرية:

إنَّ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ وعدٌ نافذٌ من الله، بانتصارِ الإسلام، والتمكينِ له في الأرض.

وقد جاءَ هذا الوعدُ الربانيُّ في سورةِ إبراهيم المكية، والمسلمونَ مُحارَبون مستَضْعَفون، ولكنَّهم كانوا موقنين بإنفاذِ وإنجازِ هذا الوعد. . وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه، فنصرَهم على أعدائهم.

وقويتْ شجرةُ الإسلام، ونشرتْ ظلالَها على الجزيرةِ العربية في حياة رسولِ الله ﷺ، ثم مَدَّتْ فروعَها وأغصانَها إلى العالمِ القديم كلِّه في ذلك الزمان، وعمتْ بركتُها ورحمتُها الشامَ والعراق ومصر، وآسية وإفريقية وأوروبة، وآتتْ أُكُلَها كلَّ حين، في الأجيالِ المتلاحقةِ من العلماءِ والدعاةِ والربانيين.

فشل الأعداء في القضاء على الإسلام:

واستعصَتْ شجرةُ الإسلامِ القويةُ على محاولاتِ الأعداء لقطْعِها واجْتِثاثِها. . لقد حاول الفرسُ والرومانُ ذلك ففشلوا، وحاولَ الهنودُ والتركُ ففشلوا، وحاولَ الإسبانُ والطليانُ ففشلوا، وحاول المغولُ والصليبيون ففشلوا، وحاول الإنكليزُ والفرنسيون ففشلوا، وحاولَ الألمانُ والروسُ ففشلوا، والآن

يبذلُ اليهـودُ محاولاتٍ ضخمـةً لقلعِ الشجرة أو قطعِها، وسيفشلون، ويحاولُ الأمريكانُ بكلِّ ما أوتوا من قوةٍ وسيفشلون.. وستحاولُ قوى الكفرِ اللاحقةُ في القرون القادمةِ القضاءَ على شجرةِ الإسلام، وستفشلُ كما فشلتْ قوى الكفرِ السابقة.

إنّ التاريخَ بماضيهِ وحاضرِه، شاهدٌ على صِدقِ تحققِ الوعدِ القرآني، بقوةِ شـجرةِ الإسلامِ في أعماقِ الأرض، وفي أطباقِ الفضاء، وفي وفـرةِ ثمارِها، وكثرتِها وأصالتِها.

تحاولُ القوى الصليبيةُ واليهوديةُ هَزَّ شجرةِ الإسلام واجتثاثَها، وتظنُّ أنّها نجحتْ، وتصبُّ حربَها على المسلمين، لكنها تكتشفُ فشلَها في النهاية، فهَزُّها للشـجرةِ قد يُسقطُ بعضَ أوراقِها الصفراءِ الضعيفة، ولكنها سـرعان ما تجعلُ مكانَها أوراقاً خضراءَ يانعة، وقد يمسـكُ الأعداءُ بغصْنٍ من أغصانِ الشـجرة، ويَجذبونَه إليهم، آمِلين أنْ يقتلعوا الشجرةَ معه، ولكنهم سرعانَ ما يجدونَ بين أيديهم الغصن مخلوعاً، بينما بقيت الشجرةُ ثابتة!.

ولن يستطيعَ اليهودُ ولا الأمريكان، الذين يهزُّونَ شجرةَ الإسلامِ بعنف، ويشدّون بعضَ أغصانِها إليهم بشدّةٍ في هذه الأيام، لن يستطيعوا فعلَ ذلك، وستخرجُ شجرةُ الإسلامِ من حربِهم أكثر قوةً ومتانةً ورسوخاً وثباتاً، وسيُضافُ اليهودُ والأمريكانُ إلى قوائم الفاشلين الخاسرين!!.

شباب الصحوة هم ثمار الشجرة:

وشبابُ الصحوةِ الإسلامية، هم الثمارُ الطيبةُ لشجرةِ الإسلامِ المباركة، الذين يُقبلونَ على الإسلامِ بجدّية، ويلتزمونَ به بصدْق، ويُجاهدونَ به الصليبيين واليهود، جهاداً كبيراً مبروراً، ويقفونَ المواقفَ الإيمانيةَ الجهاديةَ العظيمة، التي يُغيظونَ بها الكفار.

ويُثبّتُ اللهُ هؤلاءِ الشبابَ على الإسلام، ويجعلُهم إسلاماً حيّاً متحرّكاً إيجابياً، رغمَ محاولاتِ الأعداءِ الكثيرةِ لإغوائِهم وإضلالِهم.

الله ليس غافلاً عن الظالمين:

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا

يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٧].

تَعرضُ هذه الآياتُ مشهداً لذلِّ وهوانِ الظالمينَ المجرمينَ يومَ القيامةِ، ومشهداً لحسرتهم وندمِهم، عندما يأتيهم عذابُ اللهِ في الدنيا، وتقررُ أنَّ اللهَ لا يغفلُ عنهم، ولا يُخلفُ رسلَه وعْدَه!.

عندما يأتي الظالمينَ الطغاةَ عذابُ الله، يَطلبونَ الإمهالَ والتأخير، وإعطاءَهم فرصةً أُخرى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾.

فتوجِّهُ إليهم ملائكةُ العذابِ سؤالاً لتوبيخِهم وذَمِّهم، وإشعارِهم بمزيدٍ من الذلِّ والحسرةِ والندم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وتُخبرُ الآياتُ عن مكرِهم ضدَّ المسلمين، وحربِهم لهذا الدين: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

لكن ما هي نتيجةُ مكرِهم وحربِهم؟ لقد حاقَ المكرُ السيِّئ بهم، وانقلبت العاقبةُ السيئةُ عليهم، حيثُ خرجَ الإسلامُ منصوراً قوياً، وباؤوا هم بالهزيمة والذلِّ والخسران.

الله لا يخلفُ أولياءه وعده:

وحتى لا يشك المؤمن، الذي يخوضُ حرباً شرسةً ضدَّ الكافرين الظالمين، فقد نهاهُ اللهُ عن ظنِّ تخلُّفِ وعْدِ الله، وظنِّ غفلةِ اللهِ عن الظالمين.

إننا نخاطبُ كلَّ مسلمٍ في هذا الزمان، ابتُلي بعداوةِ اليهودِ والأمريكان، وحربهم له ولإسلامه، نخاطبُه بما خاطبَ اللهُ به رسولَه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

ونخاطبُه أيضاً بقولِ اللهِ تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ . فاللهُ هو الذي يُقدِّرُ كلَّ شيء، وللظالمين اليهودِ والصليبيين يومٌ شديدٌ عند الله، واللهُ لا يُخلفنا وعْدَه، بنصْرِ دينِه، وإذلالِ أعدائِه، وهذا اليوم آتٍ لا محالة، ونحنُ نوقنُ بذلك، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد! .

* * *

الفَصْلُ السَّابع

الوعد القرآني في سورة الإسراء

سورةُ الإسراءِ مكية، أُنزلَتْ في الفترة الحرجة نفسِها، التي سبقَ أَنْ تحدَّثنا عنها. ولذلك كان هدفُها نفس أهدافِ السورِ السابقة، ولكنها تُحقّقُ هدفَها بطريقتِها الخاصة، التي تتفقُ مع شخصيتها المستقلة.

ومن أهمِّ ما وعدَتْ به آياتُ السورة، حديثُها عن الإفسادَيْن اليهوديَّيْن الكبيريْن، المقرونيْن بالعلوِّ والاستكبار، وتقريرُها زهوقَ الباطل.

إفسادان كبيران لبني إسرائيل:

أولاً: قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٩].

تتحدثُ هذه الآياتُ الستّ، عن وعدٍ إلـهي، قطعَه اللهُ، وأخبرَ بني إسرائيلَ عنه، وبما أنّه وعْدٌ من اللهِ فإنّه منجَزٌ لا محالة.

أخبرَ اللهُ بني إسرائيل في كتابه الذي أنزلَه إليهم (التوراة)، عن إفسادَيْن اثنين، مقرونَيْن بالعلوِّ الكبير: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.. ومعنى ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ هنا: أَخبرْنا وأَعلمْنا بني إسرائيل.

والمرادُ بالكتابِ هنا: التوراة، وهذا معناهُ أنَّ الإفسادَيْن المذكورَيْن في

هذه الآيات وكيفيةَ إزالتهما، مذكوران في نصوصِ التوراة، فإنْ لم نجد في أسفارِ العهد القديم، الموجـودةِ بين أيدي اليهود الآن، فلأنَّ أحبارَ اليهود أضاعوا التوراة، وحَرَّفوها، ومزجوا كلامَ اللهِ بكلامِهم الكثيرِ الباطل.

وذكْرُ الإفسادَيْن وصفاتِهما وكيفيةِ إزالتِهما في آياتِ القرآن يوحي بأنهما سيكونان بين اليهودِ وبين أُمة القرآن، فالمسلمون هم الذي سـيُبْتَلَون بهذين الإفسادَيْن اليهوديَّيْن، وهم الذين سيُزيلونهما ويَقْضون عليهما.

وعد الله بالإفسادين وإزالتهما:

وبما أنَّ هذيْن الإفسادَيْن اليهوديَّيْن موجَّهان للمسلمين، فالحديثُ عنهما في آيـاتِ القرآنِ وَعْدٌ، وَعَدَ اللهُ به المسلمين أنْ يواجهوا هذيْـن الإفسـادَيْن اليهوديَّيْن، كما أنه وعَدَهم أنْ يُزيلوهما ويَقضوا عليهما.

ولذلك أوردْنا الحديثَ عن الإفسادَيْن ضمنَ الحديثِ عن الوعودِ القرآنية التي تحققت، والوعودِ القرآنيةِ التي لم تتحقَّقْ حتى الآن، ولكنها ستتحققُ حتماً في المستقبل.

ولذلك وردتْ كلمةُ (وَعْد)، في الآياتِ التي تتحدَّثُ عن الإفسادَيْن، أربعَ مرات:

الأُولى: في قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾.

الثانية: في قوله: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

الثالثة: في قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

الرابعة: في قوله: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

كُرِّرَ الحديثُ عن الوعدِ في وقوعِ الإفسادِ الأول مرتَيْن، وعن الإفسادِ الثاني مرتَيْن أيضاً، وما ذلك إلا لتأكيدِ تحققِ وقوعِ ذلك الوعد، وحصولِ الموعودِ به من الإفسادَيْن!.

وقد اختلفَ المؤلِّفون والباحثون المعاصرون في وقْتِ وقوعِ الإفسادَيْن،

وتحققِ الوعدَيْن، ولكنَّ معظمَهم على أنَّ الإفسادَ الأولَ كان في المدينة، وما حولَها على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وأننا ـ مسلمي هذا الزمان ـ نعيشُ الإفسادَ الثاني، وهذا ما نرجِّحه.. ونقدّم خلاصةَ معنى الآيات التي قدّمَت الوعدَيْن على هذا الأساس!.

وقوع الإفساد الأول:

قال تعالى عن الإفساد الأول: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾.

(أُولاهما): بمعنى: المرةِ الأُولى، لأنَّ اللهَ تعالى قال في الآية السابقة: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾. فمعنى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾: إذا حانَ وقْتُ تحققِ وعْدِ المرةِ الأُولى، وذلك بوقوعِ الإفسادِ الأول.

واللافتُ للنظرِ أنَّ الآياتِ لم تتحدّثْ عن مظاهرِ الإفسادِ اليهوديِّ الأول، ولم تُبينْ وضعَ اليهودِ خلالَه وأثناءَه، وإنما تحدَّثَتْ عن العبادِ الربَّانيين الذين يزيلونه!.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾.

الرسول وأصحابه هم الذين أزالوا الإفساد الأول:

الحديث في الآيةِ عن الرسولِ ﷺ وأصحابه، الذين أزالوا الإفسادَ اليهوديَّ الأول، في المدينةِ وما حولَها، وكان ذلك بعدَ الهجرة.

وقد أخبرَ اللهُ أنه يبعثُ عبادَه بعْثاً على اليهود، وإسنادُ الفعلِ (بعثنا) إلى الله يدلُّ على تكريمِ هؤلاءِ المجاهدين، المبعوثين بعثاً على اليهود.

ووصفَ اللهُ هؤلاء المجاهدين بأنّهم عبادٌ له: ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾، أيْ: تتحقّقُ فيهم العبوديةُ المطلقةُ الخالصةُ لله، وهذا تكريمٌ ربّاني آخر لهؤلاءِ المجاهدين.

وهؤلاء المجاهدون أقوياء: ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾. وقوةُ اليهودِ المقرونةُ بالعلوِّ الكبير تحتاجُ إلى مجاهدين أقوياء، متَّصفين بالبأسِ الشديد.

وأعانَ اللهُ الصحابةَ المجاهدين، ونَصَرَهم على اليهود المفسدين، وجاسوا وتحرّكوا خلالَ ديارِ اليهود وبساتينِهم وبيوتِهم، وأخرجوا اليهودَ من الديار، وأورثَهم اللهُ إياها.

إنَّ قولَه: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ إجمالٌ لحربِ الرسولِ ﷺ وأصحابه لليهود.. وقد تكفَّلَتْ رواياتُ السيرةِ بالحديثِ عن إجلاءِ يهود بني قينقاع بعدَ غزوةِ بدر، وإجلاءِ يهودِ بني النضير بعد غزوةِ أُحد، وقتْلِ يهودِ بني قريظة بعد غزوةِ الأحزاب، والقضاءِ على يهودِ خيبر بعدَ صلحِ الحديبية.

وخُتمت الآيةُ بجملة: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، وذلك للتأكيدِ على حقيقةِ تحققِ الوعدِ القاطعِ الناجز، في جانبيه: الجانبُ الأول تحققُ الوعدِ بحصولِ الإفسادِ الأول. والجانبُ الثاني: تحققُ الوعد ببعثِ عبادِ اللهِ الربانيين المجاهدين الذين يُزيلونَ ذلك الإفساد.

أيْ: كانَ الوعدُ بوقوعِ الإفسادِ الأول وعداً مفعولاً واقعاً، وكان الوعدُ بإزالته وعداً مفعولاً واقعاً أيضاً.

وقد تحققَ الوعدُ القرآنيُّ المتعلّقُ بالإفسادِ الأول، في حياةِ الرسولِ ﷺ، فما قُبِضَ عليه الصلاة والسلام إلاّ بعدَ أنْ تمَّ إزالةُ الإفسادِ الأول، وتحطيمُ قوةِ قبائلِ اليهود: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر، وفدك وتيماء. وتحوُّلُ اليهودِ إلى أفرادٍ متفرّقين هنا وهناك في الحجاز، ولا كيانَ لهم، ولا خطرَ منهم!!.

تحقق الوعد القرآني بوقوع الإفساد الثاني:

أخبرت الآياتُ عن مظاهرِ قوةِ اليهود، عند الإفسادِ الثاني الكبير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

وتوحي الآيةُ بأنَّ اليهودَ سيتغلَّبون عند إفسادِهم الثاني على الذين أزالوا إفسادَهم الأول، وهذا ما يؤكِّدُ أننا في هذا الزمان نعيشُ الإفسادَ اليهودي الثاني.

(ثم): حرفٌ للتراخي الزمني، ويدلُّ على الفترةِ الزمنيةِ الطويلة، الواقعةِ

بين الإفسادَيْن، الإفسادِ الأول الذي كان في بدايةِ القرنِ الأول، والإفسادِ الثاني الذي بدأ منذُ بدايةِ القرنِ الرابع عشر الهجري. أيْ: أنَّ الفترةَ بين الإفسادَيْن كانت ثلاثةَ عشر قرناً!.

وعَبَّرَ عن عودةِ اليهودِ للإفسادِ الثاني بلفظ: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومعنى: (رددنا) أعَدْنا وأَرجَعْنا. و(الكرَّةَ) هي العودةُ للإفساد، والضميرُ في (عليهم) يعودُ على العبادِ الربّانيين، أُولي البأسِ الشديد، الذين جاسوا خلالَ ديارِ اليهود، وأزالوا إفسادَهم الأوَّل.

ونحنُ المقصودونَ بهذا الضمير: «عليهم»، لأنَّنا خَلَفٌ لجيلِ الصحابةِ المجاهدين، ولكننا لسْنا على طريقِهم، فنحن «شَرُّ خَلَفٍ لخَيْرِ سَلَف»، ولذلك تغلَّبَ اليهودُ علينا وهزمونا.

ومن مظاهرِ قوةِ اليهودِ في إفسادِهم الثاني المعاصر ما عبَّرَت عنه الآية: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

فاللهُ أَمَدَّهم بالأموالِ الكثيرةِ الطائلة، وأمدَّهم بالبنينَ الكثيرين.. وهو الذي جعلَهم أكثرَ نفيراً وتأييداً، فمعظمُ دولِ العالمِ تنفرُ معهم وتؤيِّدهم، وتقفُ إلى جانبهم، وتدافعُ عنهم، وفعلَ اللهُ ذلك لهم ابتلاءً وامتحاناً، ليُقيمَ عليهم الحُجَّةَ، ويوقظَ بهم المسلمين، تمهيداً للانتقامِ منهم.

إنَّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾. وقولَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ فيهما وعدٌ قرآنيٌّ بتحقُّقِ هذا العلوِّ والإفسادِ والاستكبارِ من قِبَلِ اليهود. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ بعد ثلاثةَ عشرَ قرناً من الوعدِ به والإخبارِ عنه.

الوعد القرآني بإزالة الإفساد الثاني:

وعدَ القرآنُ وعداً قاطعاً بإزالةِ الإفسادِ اليهودي الثاني، وذَكَرَ كيفيةَ تلك الإزالة، وجاءَ ذلك في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

معنى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: إذا حانَ وقتُ المرةِ الثانية، وهي المرةُ الآخرة والأخيرة.

والخطابُ في قوله: ﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ لليهود المتكبّرين، المفسدين إفسادَهم الثاني. والإخبارُ في قوله: ﴿ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ ﴾ عن المؤمنين المجاهدين، الذين هم أحفادُ الصحابـةِ المجاهدين، والذين سيبعثُهم الله، ليُزيلوا إفسادَ اليهودِ الثاني. فهؤلاء العبادُ المجاهدون سيهزمون اليهود، ويُذلّونهم، ويُسَوِّدون وجوهَهم، ويوقعونَ بهم الحسرةَ والهوان.

وأخبرَ اللهُ عن جهادِ هؤلاء ودخولِهم المسجدَ الأقصى بقوله: ﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والمرادُ بدخولِ المسجدِ أولَ مرة: دخولُ الصحابةِ الأقصى فاتحين، عندما فتحوا بلاد الشام.

وهذا يدلُّ على أنَّ المعركةَ ضدَّ اليهود عند إفسادِهم الثاني هي معركةُ المسجدِ الأقصى، وسيدخلُه المجاهدون فاتحين، وسيحررون الأرض المقدّسة، ويُدمرون الكيانَ اليهوديَّ عليها: ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾.

ونحنُ نوقنُ أنَّ الوعدَ القرآنيَّ الواردَ في هذه الآيات، والجازمَ بإزالةِ الإفسادِ اليهوديِّ الثاني آتٍ لا محالة، ونعتقدُ أنّه لا بدَّ أَنْ يتحقّقَ بإذْنِ الله. فعمرُ اليهودِ على الأرضِ المقدّسةِ قصير، وستعودُ فلسطينُ أرضاً إسلاميةً بإذن الله.

وعد الله لرسوله ﷺ أثناء الهجرة:

ثانياً: قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٠ ـ ٨٢].

يوجِّهُ اللهُ رسولَه ﷺ إلى أنْ يطلبَ منه التوفيقَ والسداد، بأَنْ يُلهمَه اختيارَ المكانِ المناسب، والقرارِ المناسب، والتصرفِ المناسب، ويسألَ ربَّه أنْ يُدخلَه مدخلَ صدق، ويُخرجه مخرجَ صدق، وأنْ يجعلَ له سلطاناً قوياً، ونصْراً كريماً.

ويُبشرُ اللهُ رسولَه ﷺ بأنَّ الحقَّ الذي معَه سينتصرُ على الباطل الذي عليه قومُه، وسيُزهقُه ويقضي عليه، ويُخبرُه أنَّ الباطلَ ضعيفٌ زائلٌ زهوق، ولا يُمكنُ أنْ يقفَ أمامَ الحق.

ويُخبرُه أنه جعلَ القرآنَ شفاءً للمؤمنين، ورحمةً منه سبحانَه يرحمُهم بها،

أما الكافرون فإنهم يُعرضون عن القرآن، ولذلك لا يُرحمون به، وإنما يزدادون به ضلالاً وعمى، وعناداً وخسارة.

وهذه الآياتُ من سورةِ الإسراءِ أُنزِلَتْ على رسولِ الله ﷺ عند هجرتِه من مكةَ إلى المدينة، ولذلك قُدِّمَت له البشرى بالفرَج، والوعدِ بالنصر.

والمرادُ بمدخلِ الصدق دخولُه المدينة، والمرادُ بمخرجِ الصدق خروجُه من مكـة، والمرادُ بالسلطان النصير: التمكينُ والتأييد، الذي منحَهُ اللهُ له في المدينة.

من أقوال السلف في ذلك الوعد:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبيُّ ﷺ بمكة، ثم أُمِرَ بالهجرة، فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾.

وقالَ الحسنُ البصري: لما ائتمرَ كفارُ مكةَ برسولِ الله ﷺ، ليقتلوه أو يَطردوه أو يوثِقوه، وأرادَ اللهُ قتالَ أهلِ مكة، أمرَهُ اللهُ أنْ يَخرجَ إلى المدينة، وأن يقول: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: المدينة. ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: مكة.

وقال الحسنُ البصريُّ في تفسيرِ قوله: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾: وعدَ اللهُ رسولَه ﷺ، لينزَعَنَّ عِزَّ فارس ومُلْكَ فارس، وليجعلَنَّه له، ومُلْكَ الرومِ وعِزَّ الرومِ وليجعلنَّه له.

وقال قتادة في تفسيره: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ علمَ أنّه لا طاقةَ له بهذا الأمر إلاّ بسلطان، فسأل السلطانَ نصيراً لكتابِ الله، ولحدودِ الله، ولفرائضِ الله، ولإقامةِ دين الله، فإنَّ السلطانَ رحمةٌ من الله، جعلَه بين أظهرِ عبادِه، ولولا ذلك لأغارَ بعضُهم على بعض، فأكلَ شديدُهم ضعيفَهم» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٢ـ ٦٣].

وتشيرُ الآياتُ إلى حفظِ اللهِ لرسولِه ﷺ، فهو سبحانَه معه بتوفيقِه وتأييدِه، ونصرِه وتسديدِه، يأخذُ بيدِه لما هو الخيرُ له، ويَعِدُهُ بالتمكينِ.

وهذا الوعدُ الصادقُ مهمٌّ، في الحالةِ التي كان عليها رسولُ الله ﷺ، عند نزولِ الآياتِ عليه، حيث كانَ مطارَداً من قِبَلِ قريش، وكان عيونُها يراقبونَه في كلِّ مكان، وليس معه من البشرِ إلا صاحبُه الصّدّيقُ رضي الله عنه، وكلُّ مَنْ حولَه ضدّه.. ومع ذلك يأتيهِ الوعدُ من اللهِ بانتصارِ دينه، وهزيمةِ أعدائِه، ويُنزلُ اللهُ عليه هذه الآياتِ ليزدادَ أمَلاً وثقةً وتصديقاً وإيماناً بتحقّقِ وعْدِ الله.

وكان ﷺ كلُّه يقينٌ بذلك، ولذلك وعدَ سراقةَ بنَ مالك بسواريْ كسرى!.

رد الله رسوله إلى مكة:

وأنزلَ اللهُ عليه ﷺ وهو في طريقِ الهجرة آيةً أُخرى، يَعِدُه فيها وعداً قاطعاً بالعودةِ إلى مكة، فاتحاً ظافراً. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥].

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: لرادك إلى مكة كما أخرجَكَ منها.

وقال الضحاك: لما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ من مكة، فبلغَ الجُحْفَة، اشتاقَ إلى مكة، فأنزلَ اللهُ عليه قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: يعني: إلى مكة.

وقد صَدَقَهُ اللهُ وعْدَه، فأعادَه إلى مكة، بعد حوالي تسعِ سنواتٍ من نزولِ هذه الآية، حيثُ عادَ إلى مكةَ فاتحاً، وجعلَها دارَ إسلامٍ وإيمانٍ.

ماذا قال الرسول ﷺ وهو يحطم الأصنام؟:

ولما صدقَ اللهُ رسولَه ﷺ وعْدَه، وأعادَه إلى مكةَ فاتحاً، في رمضان من السنةِ الثامنةِ من الهجرة، دخلَ رسولُ الله ﷺ الكعبة، وحطّم الأصنامَ التي فيها، وهو يتلو آياتِ الوعد، التي نَزَلَتْ عليه قبلَ حوالي تسع سنوات.

روى البخاري [برقم: ٢٤٧٨]، ومسلم [برقم: ١٧٨١] عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه قال: دخلَ النبيُّ ﷺ مكة، وحولَ الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، فجعلَ يطعنُها بعودٍ في يده، وجعلَ يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ

﴿ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وقالَ جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: دخلْنا مع رسولِ الله ﷺ مكة، وحولَ البيت ثلاثمئة وستون صنماً، تُعْبَدُ من دونِ الله، فأمرَ بها رسولُ الله ﷺ، فأُكِبَّتْ على وجوهِها، وهو يقرأُ قولَه تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٣].

إزهاق الحق للباطل الزهوق:

واللطيفُ أنَّ قوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ﴾ وعْدٌ نظريٌّ من الله لرسولِه ﷺ، بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، وقد حقّقَ اللهُ له هذا الوعدَ بعدَ سنواتٍ معدودة، عندما فتحَ له مكة، وحَطَّمَ الشركَ بها، المتمثّل في الأصنام التي كان المشركون يعبدونها!.

متى زَهَقَ الباطل؟ ومتى تحطَّمت الأصنام؟ ومتى حقَّقَ اللهُ هذا الوعد؟.

لقد تحقَّقَ ذلك بعدَ سنواتٍ عديدة، أمضاها الرسولُ ﷺ في مكة، بلغَتْ ثلاثَ عشرةَ سنة، كان يربّي فيها أصحابَه، وسنواتٍ في المدينة، قاربَتْ تسعَ سنوات، قضاها رسولُ الله ﷺ، في تربيةِ أصحابِه ومحاربةِ أعدائِه.

فلما وُجِدَ الجيلُ القرآنيُّ الفريدُ المجاهد، الذي صدقَ مع الله، وحملَ رسالةَ الإسلام، وجاهدَ أعداءَ الله، أنزلَ اللهُ عليه نصْرَه، وصَدَقَه وعْدَه.

عند ذلك تمَّ تحطيم الأصنام بسهولة، وبحركةٍ خفيفةٍ من عصا صغيرة، بيدِ رسولِ الله ﷺ. لقد حطَّمَ الرسولُ ﷺ الأصنامَ في قلوبِ الناسِ أوّلاً، واستغرقَ ذلك سنواتٍ طويلة، وبعد ذلك سهلَ تحطيمُ الأصنامِ داخلَ الكعبة، حيث لم يستغرِقْ ذلك إلاّ دقائق!.

إنَّ الباطلَ زهوقٌ زائل، ذاهبٌ هالكٌ مضمحل، لكن بشرطِ أنْ يتمثَّلَ الحقُّ في صورةِ وجودٍ فعليّ، مؤثّرٍ قوي، يعتمدُ فيه أصحابُه على اللهِ القويِّ القاهر!!.

* * *

الفصل الثامن

الوعد القرآني في سورة الأنبياء

سورةُ الأنبياءِ سورة مكية، سُميتْ بهذا الاسم لأنَّه ذُكِرَ فيها مجموعةٌ مباركةٌ من الأنبيـاء، عليهم الصلاة والسلام، وأُشيرَ إلى مشـاهدَ ولقطاتٍ سـريعةٍ من قصصهم، وهم إبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، وأيوب، وإدريس، وإسماعيل، وزكريا، ويحيى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

وتتحدَّثُ آياتُ السورةِ عن المواجهةِ المستمرةِ بين الحقِّ والباطل، وكان يقودُ أهلَ الحقِّ الأنبياءُ والرسلُ عليهم الصلاة والسلام، بينما يقودُ أهلَ الباطلِ الملأُ من الأقوامِ الكافرين.

وتركزُ آياتُ السورةِ على المواجهةِ بين خاتمِ المرسلين محمد ﷺ، وبين الكافرين من قريش، حيث تعرضُ لشبهاتِهم وإشاعاتِهم، وتردُّ عليها، وتعرضُ لحقائقَ عديدة، تتعلقُ بمسيرةِ الحقِّ وانتصارِه على الباطل.

ووردَ فيها وعودٌ قرآنيةٌ بانتصارِ الحقّ على الباطل، وإزهاقِ الباطلِ أمامَ الحق، تلقّاها الصحابةُ وهم مستضعفون معذَّبون مضطهدون، وتعاملوا معها بيقينٍ وثقة، وأملٍ وبشرى.. وثَبَتوا على الحق، وواجهوا الباطل، وقطعوا الفترةَ المكية، وهم موقنون بتحقّقِ هذه الوعودِ القرآنية. ولما ذهبوا إلى المدينةِ جاهَدوا في سبيلِ الله، وهزموا أعداءَ الله، وحققَ اللهُ لهم تلك الوعودَ المأمولة.

من أهم الوعود القرآنية في سورةِ الأنبياء ما يلي:

الله صدق رسله وعده:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ١٠].

تقدمُ هذه الآيـاتُ خلاصةَ المواجهةِ بين الرسلِ السابقين وبين أقوامِهم الكافرين، ليعرفَها أعداءُ النبيِّ ﷺ، ويعيها أتباعُه.

فاللهُ كان يختارُ رجالاً، ويجعلُهم رسلاً، ويُنزلُ عليهم وحياً، ويبعثُهم إلى أقوامِهم، فيدعونَهم إلى الله، ويُقَدِّمون لهم الآيات، وكان يستجيبُ لهم قلائلُ من أقوامِهم، ويكذّبُهم ويكفرُ بهم كثيرون، ويؤذونَهم وينالونَ منهم، ويضطهدون ويعذّبون أَتْباعَهم، فيصبرُ الرسلُ وأتباعُهم، ويَثبتونَ على الحق، وينتظرونَ حكمَ اللهِ بإنجائِهم، وإهلاكِ الكافرين المكذِّبين.. وعندما تنتهي المدةُ التي حدّدَها اللهُ بعلْمِه وحكمتِه، يُنهي اللهُ قصةَ الرسولِ مع قومِه، ويُنجي المؤمنين، ويُهلكُ المسرفين.

والشاهدُ في الآياتِ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

الإخبارُ في الآيةِ عن الرسلِ السابقين، حيثُ كان اللهُ يَعِدُهم وعْداً قاطعاً، بأنّه سوفَ يفتحُ بينهم وبينَ قومِهم الكافرين، ويُنهي المواجهةَ معهم، ويجعلُ العاقبةَ لهم، وكان الرسلُ واثقين من تحقّقِ وعْدِ الله، منتظرين وقوعَه.

وكانَ اللهُ يصدُقُهم الوعد، في الوقتِ الذي يحدّدُه سبحانه، وبالكيفيةِ التي يختارُها عزَّ وجلّ، فيُنْجيهم هم وأَتْباعَهم، ويُهلكُ أعداءَهم الكافرين المسرفين.

والقَصَصُ القرآنيُّ معرضٌ لهذه الحقيقة، حيثُ انطبقَتْ على قصصِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وغيرهم، عليهم الصلاة والسلام.

وذكْرُ هذه الحقيقةِ القرآنيةِ لتبشيرِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وتوجيهِ أنظارِهم إلى وعْدِ اللهِ القادم، بنصْرِهم على كفارِ قريش.. وقد وعى الصحابةُ هذه الإشارة، وتحرّكوا في دعوتهم صابرين ثابتين، ناظرين إلى تحقّقِ وعْدِ الله، الذي كانوا به موقنين!.

وذكْرُ هذه الحقيقةِ القرآنيةِ لتهديدِ كفارِ قريش، وإخبارِهم بأنَّ العذابَ قادمٌ إليهم، إنْ لم يتوقّفوا عن الكفرِ والتكذيب، والظلم والتعذيب، ولذلك عرضت الآياتُ اللاحقةُ مشهدَ إهلاكِ الظالمين السابقين. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا

يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

السنة الربانية في الصراع بين الحق والباطل:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

تُقررُ هذه الآيةُ حقيقةً قاطعة، تحددُ نهايةَ الصراع بينَ الحقّ والباطل، تلكَ النهايةُ التي يحددُها اللهُ بحكمتِه، في الزمانِ والمكانِ والأُسلوبِ المناسب، والتي يُزهَقُ فيها الباطل ويُنصَرُ الحق.

وسبقَ هذه الآيةَ آيتان تتحدّثان عن (الجدِّيَّة) في أفعالِ الله، وتَنفي عنها اللعبَ والعبثَ. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٧].

خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ لحكمة، ولم يكنْ لاعباً في خلْقِه لهما سبحانه، وأفعالُه منزّهةٌ عن اللهوِ والعبثِ! ولو أرادَ أنْ يتخذَ لهواً لاتّخذه من عندِه، وما كانَ ليفعلَ ذلك.

و﴿إنْ﴾ في قوله: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ حرفُ نفيٍ بمعنى (ما). أي: ما كنّا فاعلين ذلك اللهو.

ونفيُ اللعبِ واللهوِ عن أفعالِ الله، في سياقِ الحديثِ عن المواجهةِ بينَ الحقِّ والباطل، مقصود، ليبيِّنَ أنَّ اللهَ حكيمٌ في توجيهِ هذه المواجهة، ورسْمِ خطواتِها ومراحلِها وأحداثِها.

إنَّ الصراعَ بين الحقِّ والباطلِ سنّةٌ ربانية، وإنَّ إزهاقَ الباطلِ سنّةٌ ربانية، وإنَّ انتصارَ الحقِّ على الباطلِ سنّةٌ ربانية. وقد وعَدَ اللهُ المؤمنينَ بإنفاذِ هذه السنّة، لأنَّ سنَّةَ اللهِ لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّل، ووعْدُ اللهِ لا يُخلفُ أو يُنقض.

وكلُّ قصصِ القرآنِ معرضٌ عمليٌّ لإنجازِ هذا الوعد، وتحقيقِ هذه السنّة، وكلُّ حركةٍ للمسلمين الصادقين المجاهدين، على مدارِ التاريخِ الإسلامي،

معرضٌ عمليٌّ إسلاميٌّ لهذه السنّة، وتفسيرٌ إسلاميٌّ للوعدِ الجازمِ في هذه الآية: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾.

الحق يدمغ الباطل:

ولنستمتعْ بالصورةِ الفنيةِ العجيبةِ الحية، التي تعرضُها الآية، للصراعِ بين الحقِّ والباطل.

إنها صورةٌ عسكريةٌ صاروخيةٌ متحرّكة، نتخيَّلُها في خيالِنا الفاعل، ونحنُ نقرأُ الآية، وكأننا أمام (فيلم تلفزيوني مصوَّر) لمراسلٍ عسكريٍ، يبثُّه بثاً حياً على القناة الفضائية: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾!.

لِننظرْ في (الفيلم) الذي تعرضُه علينا الآية: إننا نرى على الشاشةِ (الباطل) في صورةِ جسمٍ عسكريٍّ مجسّم، كأَنْ يكونَ دبابة، أو حاملة طائرات، أو منصّة لإطلاق الصواريخ! ونلتفتُ إلى الجانبِ الآخر، معسكرِ الحق، فنرى قاعدةً ماديةً مجسَّمةً لهذا المعسكر، ونرى مجموعةً من (الصواريخ) جاهزةً للانطلاق لتدميرِ الباطل.. وما هي إلا لحظةٌ قصيرة، حتى يُصدرَ الآمِرُ أَمْرَه بإطلاقِ (صاروخ الحق) فينطلقَ الصاروخُ نحو هدفِه، ونراهُ في هذا الفيلم المصوّر متوجّهاً نحو معسكر الباطل.. ونراهُ وهو يُصيبُه إصابةً مباشرة، ونراه وهو يدمغُه ويدمِّرُه ويفجِّرُه.. ونرى الباطلَ زاهقاً مدمَّراً هالكاً، زالَ عنه انتفاشُه وادِّعاؤه!!.

لقد عَرَضت الآيةُ المعجزةُ انتصارَ الحقِّ على الباطل، في صورةٍ معبّرةٍ مؤثّرة، على أساسِ القاعدةِ الجمالية القرآنية: (التصوير الفني في القرآن)، التي عرضَ بها القرآنُ مختلفَ موضوعاتِه!.

الكفارُ نشيطون في نشرِ باطِلِهم والتمكينِ له، وينجحونَ في ذلك إلى حدٍّ ما، حيثُ يُقيمونَ لباطِلِهم وجوداً كبيراً، متمثِّلاً في أنظمةٍ وأجهزة، وكيانات ومؤسسات، ويمدّونها بكلِّ وسائلِ القوة، لتستمرَّ وتبقى.. وهم أيضاً جادّون في محاربةِ الحَقِّ وأهله، ويستخدمونَ في ذلك مختلفَ الوسائلِ والأساليب، ويُحققون بعضَ النجاح.

ويُعجَبُ الكفارُ بجهودِهم في التمكينِ لباطلهم، وفي حربِ الحقِّ وأهلِه، ويظنّون أنهم نجحوا في مُرادِهم، وحَقَّقوا أهدافَهم، فيفرحونَ ويرتاحون..

وفجأةً يأتيهم أَمْرُ الله، من حيثُ لا يحتسبون ولا يتوقَّعون، فيُقَوّي سبحانه جندَ الحق، وينصرُهم على جندِ الباطل، ويَقذفُ بقذائفِ وصواريخِ الحقِّ على مؤسساتِ الباطل، فيدمغُها ويدمّرُها ويهلكُها.

تحققَ هذا في إهلاكِ وتدميرِ قوى الباطلِ قبلَ الإسلام، على يدِ الرسلِ وأَتْبَاعِهم، وأنفذَ اللهُ فيها قدَرَه وإرادَتَه سبحانه.. وتحقَّقَ في إهلاكِ وتدميرِ قوى الباطلِ بعدَ الإسلام، وأنفذَ اللهُ فيها قدَرَه وإرادتَه، وقذفَ سبحانه قذائفَ الحقِّ على الفرسِ والرومِ وأهلكَهم، وقذَفَها على الصليبيين والتتارِ وأهلكهم..

وها هي قوى الباطلِ في زماننا منتفشةٌ طاغيةٌ باغية، تتمثّلُ في العالم الغربيِّ الصليبي، الذي تقودُه أمريكة، وتتمثّلُ في اليهودِ المفسدين. وإننا على يقين من أنَّ اللهَ سيقذفُ قذائفَ الحقّ الإسلاميةَ على هذه القوى الكافرة، فيدمغُها ويزهقُها ويدمِّرُها. ويقولون: متى هو؟ قل: عسى أنْ يكونَ قريباً!.

معنى إنقاص الأرض من أطرافها:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤ ـ ٤٥].

الكلامُ عن كفارِ قريش، وفيه إنذارٌ لهم، وتهديدُهم بالعقاب، إنْ لم يتخلَّوا عن الكفرِ والتكذيب، ومعاداةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

يُخبرُ اللهُ أنه أنعمَ على كفارِ قريش، ومتَّعَهم بمختلفِ أنواعِ المتَع، كما أنعمَ على آبائِهم ومتَّعَهم، ولكنَّهم قابلوا هذا الإنعامَ والإمتاعَ بالجحودِ والكفرانِ والعصيان، واستوجَبوا بذلك العقاب.

وسيكونُ العقابُ بإضعافِهم، وإزالةِ سلطانِهم، حيثُ سيُنقِصُ اللهُ عليهم الأرض من أطرافِها، وسيقلِّصُ نفوذَهم، وسيُضعفُ تأثيرَهم.. وهم ضعفاءُ أمامَ قوةِ الله، مغلوبون أمامَ أمْرِه، ولن تستطيعَ أيةُ قوةٍ مخلوقةٍ مهما عظمَتْ أنْ تقفَ أمامَ قوةِ الواحدِ القهار.

وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يُنذرَ الكفارَ العذاب، لعلَّهم يتراجعون عن ما هم

فيه، فإذا فتحوا قلوبَهم وحواسَّهم للإنذارِ استفادوا ونجوا، وإنْ أغلقوا قلوبَهم وحواسَّهم خسروا وهلكوا.

والشاهدُ في الآية قولُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

ويخطئ بعضُ الباحثين من المسلمين في فهمِ المقصودِ من إنقاصِ الأرضِ من أطرافِها، المذكورِ في هذه الآية، وفي الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. فيعتبرونَ حديثَ الآيتَيْن عن (شَكْلِ) الأرض البيضاوي، فاللهُ أنقصَ الأرضَ من أطرافِها، بأنْ صغَّرَ حجْمَها عن القطبين الشمالي والجنوبي، واللهُ مَدَّ الأرضَ وكَبَّرَها عند خطّ الاستواء!.

ونرى أنَّ هذا فهمٌ مرجوحٌ للآيتَيْن، و(شكلُ) الأرضِ قد يكون هكذا، مضغوطاً عند القطبين، و(منبعجاً) عندَ خطِّ الاستواء، لكنَّ إنقاصَ أطرافِ الأرض الذي تحدّثَتْ عنه الآيتان إنقاصٌ معنوي، وليس مادياً، وهو يتمثّلُ في إضعافِ قوى دولٍ وإمبراطوريات، وتقلُّصِ سلطانِها، وخروجِ بعضِ البقاعِ في أطرافِها عن سيادتِها، وانكماشِ رقعتِها الجغرافية.

الوعد بإزالة دول وإنشاء أخرى:

لقد مكَّنَ اللهُ لبعضِ الدولِ في الأرض، في الماضي والحاضر، فنشرَتْ سلطانَها، وبسطَتْ نفوذَها، واحتلَّتْ بلاداً لغيرِها، واستعمرَتْ أقواماً آخرين، وبقيتْ على هذا فترةً من الزمان.

ولكنَّ اللهَ أضعفَها، وأنقصَ أطرافَ سيادتِها، وجعلَها تتراجعُ عن بعضِ المواقع، وتنسحبُ من بعضِ البلدان.

تحققَ هذا في إنقاصِ أطرافِ الإمبراطورية اليونانية، والإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الهندية.

وتحققَ هذا في العصرِ الحديث، في الإمبراطوريةِ الإسبانية، ثم الإمبراطوريةِ الفرنسية، والإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية الإنكليزية، وأخيراً الإمبراطورية السوفياتية.

والآنَ تنشُرُ الإمبراطوريةُ الأمريكيةُ سلطانَها ونفوذَها على العالم، وتَطوي دولَه تحتَ أجنحتِها، وتخطط أنْ تبقى هكذا للأبد، ولكنَّ اللهَ سيضعفُ قوتَها، ويقلِّصُ نفوذَها، وسينقصُ أطرافَها، وتتراجعُ إلى ما وراءِ المحيط، وسيُفتتُ وحدَتَها، ويُفَرِّقُ ولاياتِها الخمسين، ويقسمُها إلى عدةِ دويلات!.

إنَّ إنقاصَ أطرافِ الدولِ الكبرى سنّةٌ ربانيةٌ مطَّردة، فاللهُ هو الذي يُقَوّي الدولة، ويمكّنُ لها، ويكتبُ لها التوسُّعَ والامتداد، وهذه الدولةُ تَستخدمُ قُوَّتَها ومواردَها وطاقاتِها في استعبادِ الآخرين واستعمارِهم، وتظلمُ وتطغى وتتجبَّر، وبذلك تستقدمُ عذابَ اللهِ وبأسَه؛ ويكونُ عقابُه لها بإنقاصِ أطرافِها، وانفصالِ أجزائِها، واستقلالِ الأقطارِ المستعمَرَة، وتحريرِ البلدان المحتلّة.. ولن تبقى دولةٌ ظالمةٌ قويةَ غالبةَ أبداً: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؟.

وراثة الأرض في التوراة والزبور:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٧].

الكلامُ في هذه الآياتِ عن وراثةِ الأرض، ومستقبلِ عبادِ اللهِ الصالحين، وعمومِ بعثةِ الرسولِ ﷺ للعالمين.

وتتضمنُ الآياتُ وعداً قرآنياً بالتمكينِ للإسلام، ونصْرِ أتْباعِه الصالحين.

وهذا الوعدُ ليس خاصّاً بالقرآنِ فقط، فقد وردَ في كتبِ اللهِ السابقة، وأُنزلَ على رسلٍ سابقين.

تخبرُ الآيةُ أنَّ هذا الوعدَ مذكورٌ في الزبور، وهو كتابُ اللهِ الذي أنزلَه على داودَ عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾.

والمرادُ بالذِّكْرِ في الآيةِ التوراة، التي أنزلَها اللهُ على موسى عليه السلام، وصفَها اللهُ بهذه الصفةِ في هذه السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقد كتبَ اللهُ في التوراةِ والزبورِ أنه يورِثُ أرضَه لعبادِه الصالحين، ويجعلُ العاقبةَ للمتقين.

وقد وردَ هذا الوعدُ صريحاً، في حديثِ سورةِ الأعرافِ عن ما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون. وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

الإيمانُ بالله، والاستعانةُ به، والصبر، طريقٌ وسبيلٌ لوراثةِ الأرض، لأنَّ الأرضَ لله، يورثُها عبادَه المؤمنين الصابرين، ويجعلُ العاقبةَ للمتقين.

هذا وعدُ اللهِ الذي كتبَه في التوراة، وهو وعْدُه الذي كتبَه في الزبور، وكتبَه في القرآن.

لماذا الوعد في الزبور؟:

وذكرُ الزبورِ في الآيةِ مقصودٌ ومراد، لأنّه أنزلَه اللهُ على داودَ عليه السلام، وكان داودُ ملكاً على بني إسرائيل، ورسولاً لهم، وأنشأَ لهم مملكةً كبيرة، زادت امتداداً وقوةً في فترةِ حكْمِ ابنِهِ الرسولِ الملكِ سليمان، عليهما السلام، وكان حكمُهما في الأرضِ المقدّسة.

ويتباهى اليهودُ ويتفاخرونَ في فترةِ مُلْكِ سليمانَ وداودَ عليهما السلام، ويَزعمون أنهما أقاما في الأرضِ المقدّسةِ حكماً يهودياً، وأنَّ اللهَ أعطى الأرضَ المقدّسة (فلسطين) لليهود إلى الأبد!.

وآياتُ سورةِ الأنبياءِ تكذِّبُهم، حيثُ تذكُرُ بعضَ ما كتبَه اللهُ في الزبور، النازلِ على داودَ عليه السلام، وهو يتناقضُ مع ما يزعمُه اليهود.

الأرضُ لله، هو الذي يَملكُها في الحقيقة، ويُمَلِّكُها لمن يشاءُ من عبادِه، وفقَ إرادتِه وحكمتِه، ويورثُها عبادَه المؤمنين المتقين الصالحين، فيأخُذونَها من أيدي الآخرين.

وراثة الأرض للعابدين:

وهذا الوعدُ في الآيةِ بلاغٌ لقومٍ عابدين متّقين، يسمعونَه ويُبلِّغونَه، ويثقونَ به، ويُحققون شروطَه لينالوه.

وقد تلقّى الصحابةُ هذا الوعدَ القرآنيَّ، وهم مستَضْعَفونَ معذَّبون في مكة ـ لأنَّ سورةَ الأنبياءِ مكية ـ فوثقوا به، وأيْقَنوا أنّه لا بدَّ من تحقّقِه وإنجازِه، ولهذا كانوا يستقبلون أذى واضطهادَ الكافرين، وهم على يقينٍ من وراثتِهم للأرض، وأنه لا بدَّ منْ أنْ يزولَ الكفرُ عن مكةَ وغيرِها، ولا بدَّ من أَنْ ينتشرَ فيها الإسلام، ويرثَها المسلمونَ الصالحون. . وهذا ما تحقّقَ بعدَ أكثر من عشرِ سنوات من نزولِ هذه الآيات.

ثم قامَ الصحابـةُ المجاهِدون بجهادِهم الكبيـر، في بلادِ الشامِ والعراقِ ومصر وفارس وغيرها، ونَشَروا فيها الإسلام، وورثوها بأمْرِ الله، وتحقّقَ على أيديهم الوعدُ القرآنيُّ الناجز: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾.

وبمناسبةِ الحديثِ عن وراثةِ عبادِ اللهِ الصالحين للأرض، يأتي تقريرُ عمومِ رسالةِ الرسولِ محمد ﷺ للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. وهذا وعدٌ قرآنيٌّ آخر، بانتشارِ رسالتِه في العالمين، واستمتاعِ الناسِ برحمةِ الله.

وتقريرُ هذا الوعدِ والمسلمون مستضعَفون في مكة، ملأَ قلبَ الرسولِ ﷺ ثقةً ويقيناً بنصرِه وانتشارِ دينِه.

والآياتُ الأخيرةُ من سورةِ الأنبياءِ تأكيدٌ قاطعٌ على إنجازِ هذا الوعدِ القرآني، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨ ـ ١١٢].

* * *

الفَصْل التَّاسِع

الوعد القرآني في سورة الرّوم

سورةُ الرومِ مكية، كان نزولُها في منتصفِ عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ في مكة، التي استمرَّتْ ثلاثَ عشرةَ سنة، وسُميتْ بهذا الاسمِ لورودِ كلمة (الروم) فيها. وهي دولةُ (الروم) القوية، التي كانت أقوى دولةٍ في العالمِ عصرَ نزولِ القرآن، وتتنازعُ السيطرةَ على العالمِ القديمِ مع دولةِ الفُرسِ المجاورة لها.

وتحدّثَت الآياتُ الأُولى من السورة، عن الحربِ بين الفرسِ والروم، وأشارتْ إلى هزيمةِ الروم أمامَ الفرسِ في جولةٍ سابقة، وأخبرتْ عن انتصارِ الرومِ على الفرس، خلالَ بضْعِ سنين.

وقد تحدَّثْنا عن جزمِ آياتِ السورةِ بنبأ مستقبلي، حدَّدَتْ له بضعَ سنين، وقد وقعَ في نهايةِ المدة التي حدّدَتْها الآيات، وأشرنا إشارةً سريعةً إلى ذلك، في مبحث (تحقق الأخبار المستقبلية في القرآن).

وحديثُنا هنا عن تحققِ الوعدِ القرآني الذي قرّره مطلعُ السورة، وعن الوعدِ القرآني في آخرِ السورة.

الوعد بانتصار الروم على الفرس:

أولاً: قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٧].

المعنى الإجماليُّ لهذه الآياتِ هو: أخبرت الآياتُ عن هزيمةِ الرومِ أمامَ خصومِهم الفرس، في المعاركِ التي وقعَتْ في أدنى الأرض، وأقربها إلى الجزيرة

العربية. . ثم جزمت الآياتُ أنَّ الرومَ سيهزمونَ الفرسَ، بعد انهزامِهم أمامَهم، وأنَّ انتصارَ الرومِ على الفرسِ سيكونُ في بضْعِ سنين، وأقصى مدةٍ لها ستكونُ تسع سنوات، لأنَّ البضعَ من الثلاث إلى التسع.

وفي الوقتِ الذي سينتصرُ فيه الرومُ على الفرس، سينصرُ اللهُ المسلمينَ أيضاً، وبذلك سيفرحون بنصْرِ الله الذي مَنَّ به عليهم. وهذا وعدٌ قاطعٌ نافذٌ من الله، لا بدَّ أنْ يتحقّق، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ وعْدَه.

وقد كانت الحروبُ طاحنةً مستمرةً بين الدولتيْن القويتيْن: الروم والفرس، وكان من أعنفِها الحربُ التي وقعَتْ بعدَ بعثةِ رسولِ الله ﷺ.

ففي منتصفِ عهدِ الدعوةِ في الفترةِ المكية، شَنَّ الفرسُ حرباً قويةً ضدَّ الروم، حيثُ توجَّهوا غرباً فاحتلّوا بلادَ الشام، ودخلوا بيتَ المقدس سنة (٦١٤م)، وتوجَّهوا شمالاً فاتحين مختلفَ المدنِ الرومية، حتى حاصَروا العاصمة القسطنطينية.

وسمعَ العربُ أخبارَ هزيمةِ الرومِ أمامَ الفرس، وكان هذا في السنةِ السادسةِ للبعثة، فحزنَ المسلمونَ لهزيمةِ الروم، لأنّهم أهلُ كتاب، بينما فرحَ المشركونَ لانتصارِ الفرس، لأنهم مثلهم يعبدون الأوثانَ والنار، ويُشركونَ بالله.

وأنزلَ اللهُ في تلك السنةِ سورةَ الروم، وفيها الخبرُ بانتصارِ الفرس، والوعدُ بانتصارِ الرومِ عليهم في بضعِ سنين. ولم يكنْ في الأُفُقِ ما يدلُّ على قربِ انتصارِ الروم على الفرس، فالرومُ مهزومون، وجيشُهم محطّم، والفرسُ يحاصرونَ القسطنطينية، فكيفَ يجزمُ القرآنُ أنَّ الرومَ المغلوبين سينتصرون على الفرس، الغالبين في بضع سنين؟.

مراهنة أبي بكر للمشرك على انتصار الروم:

تلقّى المسلمون هذا الوعدَ القرآنيَّ باليقين، وصاروا ينشرونَه بين المشركين، وكانَ من أكثرِهم فَرَحاً أبو بكر الصدّيق، الذي صارَ يُنادي في شوارعِ مكة أنَّ الرومَ سينتصرون على الفرسِ في بضعِ سنين.

واستبعدَ المشركونَ ذلك وأنكروه، وأمامَ جزْمِ أبي بكر بتحققِه جاءَ أَحَدُ

المشركين لمراهنتِه، فراهنَه أبو بكر، على أنَّ الرومَ سينتصرونَ على الفرسِ بعدَ خمسِ سنين، فإنْ لم يتحقّقْ ذلك، دفعَ أبو بكر لصاحبِه عدداً من الإبل، وكان هذا قبلَ تحريمِ الرهان في الإسلام، لأنّه حُرِّمَ بعد الهجرة.

وانقضت السنواتُ الخمس، ولم ينتصرِ الروم، وجاءَ الرجلُ يطالبُ بالرهانِ، وأخبرَ أبو بكر رسولَ الله ﷺ بالأمْر، فأمَرَه أنْ يجعلَ المدةَ تسعَ سنين، لأنّ الآيةَ حدّدَتْها ببضعِ سنين، والبِضْعُ من الثلاثِ إلى التسع، ففعلَ أبو بكر رضي الله عنه.

وفي السنةِ التاسعةِ لنزولِ الآيات، قامَ هرقلُ قيصرُ الرومِ بحربٍ عنيفةٍ، هَزَمَ فيها الفرس، ودخلَ عاصمتَهم المدائن، وبذلك تحقّقَ الوعدُ القرآني، وكسب أبو بكر الرهان، وكان هذا سنةَ (٦٢٣م).

لقد حدّدت الآيات موقعَ المعركة، التي هُزِمَت فيه الروم: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

والأدنى هو الأقرب، والمرادُ به الأرضُ الأقربُ إلى أهلِ مكة، الذي أنزلَ اللهُ إليهم الآيات. والأرضُ الأدنى إلى أهلِ مكة هي بلادُ الشام، والمتاخمةُ للجزيرةِ العربية.. وقد احتلَّ الفرسُ الأرضَ الأدنى للجزيرةِ العربية، ودخلوا القدس سنة (٦١٤م).

في الآيات وعدان تحقّقا:

ونرى أنَّ الآياتِ الأولى من سورةِ الرومِ تضمّنَتْ وعدَيْن اثنَيْن، وليس وعداً واحداً، وهذان الوعدان تحقَّقا في سنةٍ واحدة.

الوعدُ الأولُ: انتصارُ الرومِ على الفرس، بعد بضعِ سنينَ من هزيمتهم أمامهم. وهو ما جزمَ به قولُه تعالى: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾.

وقد تحققَ هذا الوعدُ في السنةِ التاسعةِ لنزولِ الآيات، وكان ذلك سنة (٦٢٣م)، حيث دخلَ هرقلُ المدائنَ عاصمةَ الفرس.

الوعدُ الثاني: انتصارُ المسلمين على المشركين، في المعركةِ الأولى

الفاصلة، في غزوةِ بدر، وهو الذي أخبرَ عنه قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لقد كانتْ غزوةُ بدرٍ في السنةِ الثانيةِ من الهجرة، بعدَ تسعِ سنواتٍ من نزولِ سورةِ الروم، الذي كانَ في السنةِ السادسةِ من البعثة.

بين الغلبة والنصر:

لا تسمى غلبةُ الرومِ على الفرس نصراً من الله، لأنَّ نصْرَ اللهِ كرامةٌ وتشريفٌ منه، ولا يكونُ هذا النصرُ إلا لعبادِ اللهِ المؤمنين الصالحين، والرومُ ليسوا عباداً مؤمنين صالحين! صحيحٌ أنّهم نصارى أهلُ كتاب، وأنهم أقربُ للمسلمين من الفرسِ عبدةِ النار، لكنّهم ليسوا مؤمنين، ولذلك أخبرت الآياتُ عن كسبهم المعركةَ بلفظ الغلبة: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾. وفرقٌ بين الغلبةِ والنصر، لأنَّ للنصرِ ظلالَ التكريم والتشريف من الله، وهذا خاصٌّ بالمؤمنين الصالحين!.

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ ينطبقُ على نصْرِ اللهِ للمؤمنين في غزوةِ بدر، ولا ينطبقُ على غلبةِ الرومِ على الفرس.

وهو يتفقُ مع قولِه تعالى في غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ومن تقدير اللهِ الحكيمِ العليمِ، أن يتحقّقَ الوعدان في سنةٍ واحدة، هي سنة (٦٢٣م)، وهي السنة الثانية للهجرة، تغلّب فيها الرومُ على الفرس، وانتصرَ فيها المسلمونَ على المشركين في غزوة بدر.

واللطيفُ في الآياتِ التي تحدَّثَتْ عن الوعدَيْن أنها ربطت الأُمورَ كلَّها بيدِ الله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. فاللهُ يدبِّرُ أَمْرَ الكونِ كلِّه، ويُقدرُ كلَّ شيء يَجري فيه، ولا يقعُ حَدَثٌ سياسيٌّ أو عسكريٌّ إلاّ بأَمْرِ الله، ولا تنشبُ معركةٌ إلاّ بأمرِ الله، ولا تغلبُ دولةٌ غيرَها إلاّ بأمرِ الله.

نظرة المؤمنين والكافرين إلى وعدِ الله:

ونصّت الآيـاتُ على أن غلبـةَ الـرومِ للفرس، وانتصارَ المسـلمين على

المشركين، وعْدٌ من اللهِ الحكيم الخبير، واللهُ لا يُخلفُ وعْدَه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. والمؤمنون يتعاملونَ مع وعْدِ اللهِ باليقينِ والثقة، ويَجزمونَ بأنَّ اللهَ منجزٌ وعْدَه.

أما الآخرونَ فإنهم يشكّونَ في وعْدِ الله، لأنهم لا يعلمونَ قدرةَ اللهِ المطلقة، وأنه سبحانه فعّالٌ لما يُريد، ولا يُعجزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

لقد كان المشركونَ في مكةَ يستبعدونَ انتصارَ الرومِ على الفرسِ في بضعِ سنين، لأنَّهم حلّلوا الأحداثَ تحليلاً مادياً بشرياً، وهذا التحليلُ الماديُّ يجعل من المستحيلِ انتصارَ الرومِ بعدَ تسع سنين، وهم الدولةُ المهزومة، التي تحطّمَ جيشُها، واحتُلَّتْ بلادُها، وحوصرتْ عاصمتُها!.

لكنَّ المسألةَ في التحليلِ الإيمانيِّ لها بُعدٌ آخر، فإذا أرادَ اللهُ تقويةَ الرومِ المهزومين في بضعِ سنين فعل، وهيأ لذلك الأسباب، وإذا وَعَدَ بذلك أَنجزَ وعْدَه!.

وكان المشركونَ في مكة يستبعدونَ انتصارَ الصحابةِ المستضعفين عليهم، لأنَّ قوةَ الصحابةِ لا تُذْكَرُ أمامَ قوتِهم، وذلك وفقَ التحليل الماديِّ البشري القاصر. أما في التحليلِ الإيمانيِّ فليسَ الأمرُ مستبْعَداً أو مستحيلاً! لأنَّ اللهَ إذا أرادَ شيئاً فعلَه، وإذا وعدَ بشيءٍ أنجزَه، ولذلك نصرَ الصحابة في بَدْرٍ، مع كونِهم أذلة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

الصبر على انتظار تحقق وعد الله:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٥٨ ـ ٦٠].

ذَكَرَ اللهُ أمثلةً عديدةً منوعةً في القرآن، وفصَّلَ فيه الآيات، ونَوَّعَ فيه الحججَ والأدلّةَ والبراهين، ليفهمَها الناسُ ويَعوها، ويُحسنوا التعاملَ معها.

ولكنَّ الكفارَ جاهلون، مطبوعٌ على قلوبهم، يُقابلونَ الأمثالَ والآياتِ

القرآنيـةَ بالعنادِ والإصرار والتكذيب! وإذا قُدّمتْ لهم خـوارقُ ومعجـزاتٌ لا يُصدقون بها، ويتَّهمون الرسولَ ﷺ بأنه ساحرٌ سَحَرَهم، وأنَّ المسلمين على باطل: ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾.

وقد أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بالصبرِ على عنادِ وتكذيبِ المشركين، وحربِهم وعداوتِهم له، فالصبرُ زادٌ عظيم، يتزوّدُ به الرسولُ ﷺ، إلى أنْ يحكمَ اللهُ بينه وبين أعدائه.

عدم استعجال تحقق وعد الله:

وبعد الأمرِ بالصبر، تؤكدُ الآيةُ تحققَ وعْدِ الله: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ والمرادُ بوعْدِ اللهِ هنا، وعْدُه سبحانه بانتصارِ الحقِّ وأهلِه، وهزيمةِ الباطلِ وأهلِه.

ومعنى أنه حقّ، أنه سيتحقّقُ في عالمِ الواقع، وسيرى الناسُ انتصارَ المؤمنين، وهزيمةَ الكافرين.

واللطيفُ أنه بعد تقريرِ تحققِ وعْدِ اللهِ بالنصر، جاءَ التحذيرُ من الذين لا يوقنون بهذه الحقيقة: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾. فالذين يَشُكُّونَ بوعدِ اللهِ، أو يستَبْعِدونَ وقوعَه، قـد (يستخفون) بالمؤمنين، ويقذفونَ في قلوبهم اليأس، أو يدفعونَهم لبعضِ الأعمالِ والتصرفاتِ المرتجلةِ المندفعة، التي تقودُ إلى نتائجَ خاطئة، والسببُ في ذلك هو استعجالُ تحققِ وعْدِ الله.

على المؤمنِ أنْ يوقنَ بأنَّ وعْدَ اللهِ حق، وأنه لا بدَّ أن يتحقَّقَ، وأنْ يصبرَ على انتظارِ تحقّقه، وأنْ لا يتعجّلَ وقوعَه، وأنْ لا يستخفَّه أو يستفِزَّه المتعجّلون، وأنْ يَدَعَ الأَمْرَ إلى حكمةِ اللهِ الحكيمِ الخبير، الذي يحققه متى شاء سبحانه!.

* * *

الفَصل العَاشِر

الوعد القرآني في سورة القمر

سورةُ القمرِ مكية، نزلَتْ في جَوٍّ اشتدادِ أذى قريشٍ للمسلمين، وتكذيبِهم لرسولِ الله ﷺ. وكان المسلمون في مكةَ قلائل مستضعفين، يستقبلونَ أذى واضطهادَ وتعذيبَ الكفارِ بصبرٍ وثبات.

وكان من أهدافِ سورةِ القمرِ تثبيتُ المؤمنين على الحقّ، وتعريفُهم بطريقِ الدعوة، ودعوتُهم إلى الصبر، وتبشيرُهم بالفرَج، وملءُ قلوبِهم ونفوسِهم بالأملِ الكبيرِ بالنصر. . وتهديدُ الكافرين الظالمين بالعذاب، عن طريق عرضِ بعضِ النماذج والأمثلة، لمن سبقَهم من الكافرين، ليَعْتَبروا ويتَّعِظوا، ويتخلَّوا عن ما هم فيه من كفرٍ وطغيان.

موضوع السورة:

بدأت السورةُ بالحديثِ عن معجزةٍ باهرة، معجزةِ انشقاقِ القمرِ أمامَ المشركين، وتكذيبِهم بها، وزعمِهم أنها سِحْرٌ لا حقيقةَ له، وتهديدِهم بالعذاب.

ثم عرضتْ مشاهدَ سريعةً من قصصِ الأنبياءِ السابقين، مع أقوامِهم المكذّبين، كان التركيزُ فيها على كفرِهم وتكذيبِهم واستهزائِهم، ثم إهلاكِهم وتدميرِهم.

والأقوامُ الذين تحدَّثَتْ عنهم آياتُ السورة: قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون.

وعقبت السورةُ على إهلاكِ كلِّ قومٍ منهم بآية: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ التي ذكرت أربع مرات [آيات: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

والتعقيبُ بهذه الآيةِ على القصصِ الأربعِ مقصود، الهدفُ منه تقريرُ حقيقةِ

تيسيرِ القرآنِ للذكر، وهذه من أهمِّ خصائصِ القرآن، فاللهُ يَسَّرَ تلاوتَه وفهمَه وحفظَه وتطبيقَه، كما يسَّرَ التذكُّرَ والعبرةَ والعِظة، بما يَعرضُ فيه من قصصٍ وأمثلةٍ، ونماذجَ وحوادث، وسننٍ وحقائق.

وتحثُّ الآيةُ على التذكرِ والاعتبار: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. أي: هل يوجدُ شخصٌ واعٍ بصير، يقفُ عند العظاتِ القرآنيةِ متدبّراً متذكّراً؟!.

و﴿مُّدَّكِرٍ﴾: اسمُ فاعل على وزن (مُفْتَعِل)، فعلُه الماضي خماسي هو: (ادَّكَرَ) على وزنِ (افْتَعَلَ). وقد وردَ هذا الفعلُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٤٥].

وأساسُ: (ادَّكَرَ): اذْتكرَ، على وزنِ: افْتَعَلَ.

الثلاثي منه: ذَكَرَ. أُدْخِلَت تاءُ الافتعالِ لمزيدٍ من التأكيد، فصارَ اذْتكرَ، وأُبدلت التاءُ دالاً للتسهيلِ، فصارت: اذْدَكر. وأُدغمت الذالُ في الدالِ إدغامَ المتقاربَيْن، فصارَت: ادَّكر. واسمُ الفاعل منها: مُدَّكِر، على وزن: مُفْتَعِل!.

تهديد الكفار بالهزيمة:

وبعدما انتهت آياتُ السورةِ من الحديثِ عن الهالكين، الْتَفَتَتْ إلى كفارِ قريش، وهدَّدَتْهم بالعذاب، وتوعَّدَتْهم بالهزيمةِ أمامَ المسلمين، ووعدت المسلمين بالنصرِ عليهم، قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٤٣ ـ ٥٣].

الخطابُ في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ لكفارِ قريش، والهمزةُ في ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ للاستفهامِ الإنكاريّ، والآيةُ تُنكرُ على كفارِ قريشٍ عدمَ اعتبارِهم بما جرى للكافرين السابقين.

و﴿أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾: اسمُ إشارةٍ للبعيد، والمرادُ به الكفارُ السابقون المذكورون

في ما سبقَ من آياتِ السورة، وهم قومُ نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون.

تسألُ الآيةُ كفارَ قريش: لقد سمعْتُم عن إهلاكِ الكفارِ السابقين، فلماذا لم تَتّعظوا وتَعتبروا؟ هل كفّاركم خيرٌ من أولئك الكفارِ السابقين؟ وهل أنتم أقوى منهم؟ لستُم خيراً منهم، ولستُم أقوى وأكثر أموالاً وأولاداً منهم!.

وقد ذَكَرَتْ هذه الحقيقةَ آياتٌ عديدة، منها قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

وبما أنَّ الكفارَ السابقين أقوى من كفارِ قريش، ولم تدفَعْ عنهم قوتُهم العذابَ، فإنَّ كفارَ قريش أكثرُ ضعفاً وعَجْزاً عن دفعِ العذاب، فلماذا لا يَعتبرونَ ويتخلَّون عن كفرِهم؟.

وتسألهم الآيةُ سؤالاً ثانياً: ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ والمرادُ بالزُّبُرِ هنا: الكتبُ الربانيةُ التي أنزلَها اللهُ على رسله، مفردُها (زبور) بمعنى كتاب.

والمعنى: لماذا أنتم آمِنون من العذابِ مع كفرِكم وتكذيبِكم؟ هل أعطاكُم اللهُ أماناً وبراءةً في كتبه؟.. الجوابُ بالنفي، فلا يملكون تلك البراءة، لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّ في كتبه كافراً على كفره، ولا يُعطيه الأمانَ بالنجاةِ إنْ وقعَ به عذاب!.

وتُوجِّهُ لهم الآياتُ سؤالاً ثالثاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. أي: هل يظنُّ كفارُ قريش أنهم متّفقون مجتمعون، وأنَّ تجمُّعهم وتعاوُنَهم واتفاقَهم يحققُ لهم النصر؟ ويدفعُ عنهم العذاب؟.

وتقذفُ الآياتُ الرعبَ في قلوبهم، وتهددُهم بالهزيمة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. أي: سيهزمُ جمعُ الكفار المجتمعين في المستقبل، عندما تنشبُ المعاركُ بينهم وبين المسلمين، وسيولّونَ الأدبارَ منهزمين.

وبعدَ جزمِ الآيةِ بهزيمةِ الكفارِ في الدنيا، توعَّدَتْهم الآيةُ التاليةُ بالعذابِ الشديدِ في الآخرة: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

وقدمتْ لهم الآياتُ التاليةُ مشهداً لذلِّهم وعذابهم في الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

نصرُ المؤمنين وهزيمةُ الكافرين بقدر من الله:

وفي هذا السياقِ وما فيه من الوعدِ للمؤمنين، والوعيدِ والتهديدِ للكافرين، تقرِّرُ آيةٌ محكمةٌ حقيقةَ القَدَر. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾.

فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ مخلوق، خلَقَه اللهُ بقَدَرِه، وأَوجدَه في الزمانِ المحدَّد، والمكانِ المحدَّد، بحكمتِه سبحانه، فهو الذي يُقَدِّرُ الأشياءَ ويوجدُها.

ومن ذلك تحققُ الوعدِ بهزيمـةِ الكفار، وانتصارِ المسـلمين عليهم في الدنيا، فاللهُ الذي يحددُ الزمانَ والمكانَ والكيفية، بحكمتِه وقَدَرِه سبحانه.

وإذا جاءُ الوقتُ المحدّدُ، فإنّه سبحانَه يحقّقُ قَدَرَه ويُمضي إرادتَه، والأمرُ هينٌ عليه سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾. أيْ: نحققُ أَمْرَنا بكلمةٍ واحدة، هي كلمة: (كُن) فيوجَدُ الشيءُ الذي أردناه كلمحِ البصر. وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وعادت الآياتُ إلى تهديدِ كفارِ قريش: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾. أيْ: أهلكْنا أشباهَكم وأَمثالَكم من الكفار السابقين، كعادٍ وثمودَ ومدين، فهل منكم مَنْ يتذكَّرُ ويتّعظُ ويَعتبر؟.

وتستمرُّ الآياتُ في تهديدِ كفارِ قريش، بإخبارِهم أنَّ كلَّ شرٍّ وسوءٍ وكفرٍ وتكذيبٍ حصلَ من الكفار وصدرَ عنهم، فإنَّ اللهَ قد سجَّلَه وأحصاه، وأثبتَه في الزبرِ والكتب، التي يُثبتُ فيها أفعالَ الناس، صغيرَها وكبيرَها: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾.

وعد المؤمنين بالنصر على الكافرين:

والتهديدُ الصريحُ للكفار في قوله: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾. وهذا وعيدٌ لهم، بهدفِ قتْلِ هممِهم، وإضعافِ عزائمِهم، وتحطيمِ معنوياتِهم، وهو ضمنَ (الحربِ النفسية) التي يشنُّها القرآنُ على الأعداءِ بقوةٍ وجدارة، ويهزُّ فيها نفسياتِهم، ويقضي على إراداتهم!.

وتقدمُ هذه الآيةِ وعداً قرآنياً للمؤمنين، بأنَّهم سوفَ يهزمون جمعَ قريشٍ في المستقبل، بحيثُ يولّي الكافرون الأدبار.

وهدفُ هذا الوعـدِ هو رفعُ معنويـاتِ المؤمنين، ومـلءُ نفوسِهم أمـلاً بالمسـتقبل، وتبشيرُهم البشرى المشرقةَ العظيمة، وبذلك يزدادون ثباتـاً على الحق، وتصميماً على تحدّي الباطل، وثقةً بأنَّ المستقبلَ لهم، وإعداداً للمرحلةِ القادمةِ من الصراعِ مع الكفار، وهي مرحلةُ قتالِهم وهزيمتِهم.

ولا ننسى أنَّ الصحابةَ تلقَّوا هذا الوعدَ القرآني: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وهم مُستضعَفون في مكة، معذَّبون مضطهدون فيها.

لقد كانت القوةُ والغلبةُ وقْتَ نزولِ الآيةِ التي أَطلقَتْ ذلك الوعدَ للكفار، الذين هم قادةُ مكة وزعماؤُها، وبيدِهم الأمْرُ والمالُ والجاهُ والقرار، والناسُ أتبـاعٌ لهم.. بينما كان المسلمون في مكةَ أقليةً ضعفـاء، لا يملكـون مالاً ولا سلطاناً ولا متاعاً، إلا القليلَ من ذلك الذي لا يكادُ يُذْكَر.

وفي هذا الجوِّ الخاصّ، الذي لم تكنْ فيه القوَّتان متكافئَتَيْن ـ قوةُ الكفار وقوةُ المسلمين ـ حيث كانتْ قوةُ الكفار غالبةً مستعلية، وقوةُ المسلمين مبتدئة، تشقُّ طريقَها بصعوبة، وسطَ العقباتِ والحواجزِ التي يضعُها الكفارُ أمامَها.

في هذا الجوِّ ينزلُ اللهُ آيةً تقدّمُ وعداً لهذه القوةِ الإسـلاميةِ الناميـة، بأنّها سوفَ تقوى وتشتدّ، وتقفُ أمامَ قوةِ الكافرين، وتحطّمُها وتهزمُها!.

إنَّ الجزمَ بهذا الوعدِ القرآنيِّ يدلُّ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، لأنه لا يَجزمُ بشرٌ بهذا الجزم، لعدمِ وجودِ مؤشّرٍ ماديٍّ على هزيمةِ جمعِ الكفار، في تلك الفترةِ الزمنيةِ المتقدمة، من بداياتِ عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ في مكة!.

ولما سمعَ الكفارُ الوعيدَ والتهديدَ في الآية، والجزمَ بأنهم سينهزمونَ أمامَ المسلمين ويولّونهم الأدبار، صاروا يسخَرون ويستهزِئون ويتندَّرون، ويَعتبرون ذلك مستحيلاً!.

أما المؤمنون فإنهم تلقَّوا عن الآية وعْدَها، واستبشَروا به، وأَيْقَنوا أنّه سيتحقّقُ لا محالة، وإنْ لم يعرفوا كيفَ ولا متى ولا أينَ سيتحقق؟.

وثقوا بتحقّق الوعد، وتركوا كيفية إنجازه وإمضائه إلى الله الحكيم الخبير.

متى حقق الله لهم وعده؟:

ومضت السنواتُ المكيةُ من عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ تِباعاً، وانتهت الفترةُ المكيةُ والقوةُ الماديةُ الغالبةُ لكفارِ قريش. . وهاجرَ المسلمون إلى المدينة، وأقاموا فيها كيانَهم. .

وبعدَ سنتيْن من الهجرة، جاءَ وقتُ إنجازِ الوعدِ القرآنيِّ الذي أطلقتْه آيةُ سورةِ القمر، قبلَ أكثرَ من تسعِ سنوات.

كان ذلك في غزوةِ بدر، في شهرِ رمضان من السنةِ الثانيةِ من الهجرة، وهي أولُ مرةٍ يلتقي فيها الجمعان، جمعُ المؤمنين بقيادةِ رسولِ الله ﷺ، وجمعُ المشركين بقيادةِ أبي جهل.

وكلُّنا يعرفُ نتائجَ غزوةِ بدر، التي نصرَ اللهُ فيها المسلمين، وهزمَ جمْعَ الكافرين القرشيين، الذين قُتِلَ منهم سبعون رجلاً، في مقدّمتِهم زعيمُهم أبو جهل وأُسِرَ سبعونَ آخرون، وفرَّ الآخَرون من الميدان، مولّين الأدبار.

ولْنقفْ أمامَ موقفِ الصحابةِ الإيجابيِّ من هذا الوعدِ القرآنيِّ، وإخبارِهم عن تحقّقِه على أرضِ بدر.

الرسول يسأل ربَّه إنجاز وعده:

روى البخاري [برقم: ٤٨٧٧] عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال ـ وهو في قُبَّةٍ له يومَ بدر: «اللهمَّ إنّي أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعْدَكَ، اللهمَّ إنْ شئتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليومِ أبداً». . فأخذَ أبو بكر رضي الله عنه بيدِه، وقال: حسْبُكَ يا رسولَ الله، فقد ألححْتَ على ربِّكَ! وهو في الدرع، فخرجَ وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

يُخبرُ ابنُ عباس رضي الله عنهما في هذا الحديث: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا اللهَ وتضرَّعَ إليهِ واستغاثَه، قُبَيْلَ خوضِ المعركة، ونَشَدَ اللهَ إنجازَ وعْدِه، ونَصْرَ العبادِ المؤمنين المجاهدين، لتستمرَّ عبادتُه في الأرض.

وأكثرَ الرسولُ ﷺ من تضرّعِه ودعائِه، حتى أشفقَ عليه أبو بكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه، وقالَ له: حسْبُكَ يا رسولَ الله، فإنَّ اللهَ منجزٌ لك ما وعد.

وعندما رجا الرسولُ ﷺ ربَّه إنجازَ وعْدِه . كان يتذكَّرُ آيةَ سورةِ القمر ، التي نزلَتْ قبلَ بضع سنوات ، بدليلِ أنه بعدَ تضرُّعِه ، خرجَ من قُبَّتِه ، وهو يثبُ في الدرعِ ويتلو الآيةَ نفسَها : ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ . وهو مستبشِرٌ بتحققِ وعْدِ الله ! .

وقد فصَّلَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه تضرُّعَ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بدرٍ بألفاظٍ أُخرى .

روى مسلم [برقم : ١٧٦٣] عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال : حَدَّثَني عمرُ بن الخطاب ، قال : «لما كانَ يومُ بدر ، نظرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المشركين ، وهم ألف ، وأصحابُه ثلاثُمئة وتسعةَ عشرَ رجلاً ، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ ﷺ القبلة ، ثم مَدَّ يدَيْه ، فجعلَ يهتفُ بربِّه : «اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدْتَني ، اللهمَّ آتِني ما وعدْتَني ، اللهمَّ إنْ تهلكْ هذه العصابة من أهلِ الإسلام لا تُعبدُ في الأرض» .

فما زالَ يَهتفُ بربِّه ، ماداً يَديْه ، مستقبلَ القبلـة ، حتى سـقطَ رداؤُه عن منكبيه .

فأتاهُ أبو بكر ، فأخذَ رداءَه ، فألقاهُ على مَنْكِبَيْه ، ثم التزمَه من ورائِه ، وقال : يا نبيَّ الله : كفاكَ مناشدَتك ربَّك ، فإنه منجزٌ لك ما وَعدَك . .

فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] . فأمدّه الله بالملائكة» .

الرسولُ ﷺ ـ من خلالِ هذه الروايةِ ـ يهتفُ بربّه ، ويَدْعوه ويتضرّعُ إليه ، ويَرجوه أنْ يُنجزَ له ما وعَدَه ، ويؤتيهِ ما وعدَه ، وهو الوعدُ الذي قرّرتْه آيةُ سورةِ القمر وأمثالِها ، بانتصارِ المؤمنين وهزيمةِ الكافرين .

وقد أشفقَ عليه أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه ، وطمأنَه أنَّ اللهَ منجزٌ له ما وعدَه .

لقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ على يقينٍ أنَّ اللهَ سينجزُ له ما وعدَه ، ولم يشكّ في ذلك لحظةً ، لكنَّ دعاءَه وتضرُّعَه من بابِ الأخذِ بالأسباب ، والدعاء إلى الله ، لاستجلابِ موعودِ الله .

وكانَ أبو بكر رضي الله عنه على يقين ، بأنَّ اللهَ سينجزُ وعْدَه ، لأنَّه لا يُخلفُ الميعاد ، ويوقنُ بالنصرِ في المعركة ، رغمَ عدمِ توازنِ وتكافؤ الجمعَيْن ! .

عمر يخبر عن إنجازِ الوعدِ في بدر:

واللطيفُ أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه صارحَ عبدَ اللهِ بنَ عباس رضي الله عنهما، بما حدَّثَ به نفسَه، عند نزولِ الآيةِ المذكورة، حاملةً ذلك الوعدَ الرباني.

قال السيوطيُّ في [الدر المنثور: ٧/ ٦٨١]: «أخرجَ ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنزلَ اللهُ على نبيّه بمكةَ قبلَ يومِ بدر: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. فقالَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: يارسولَ الله! أيُّ جمعٍ سيُهْزَم؟.

فلمّا كان يومُ بدر، وانهزمَتْ قريش، نظرتُ إلى رسولِ الله ﷺ في آثارِهم مُصْلِتاً بالسيف، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. وكانتْ ليومِ بدر».

وأخرجَ ابنُ جرير عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ جعلْتُ أقول: أيُّ جَمْعٍ سيُهْزَم؟.

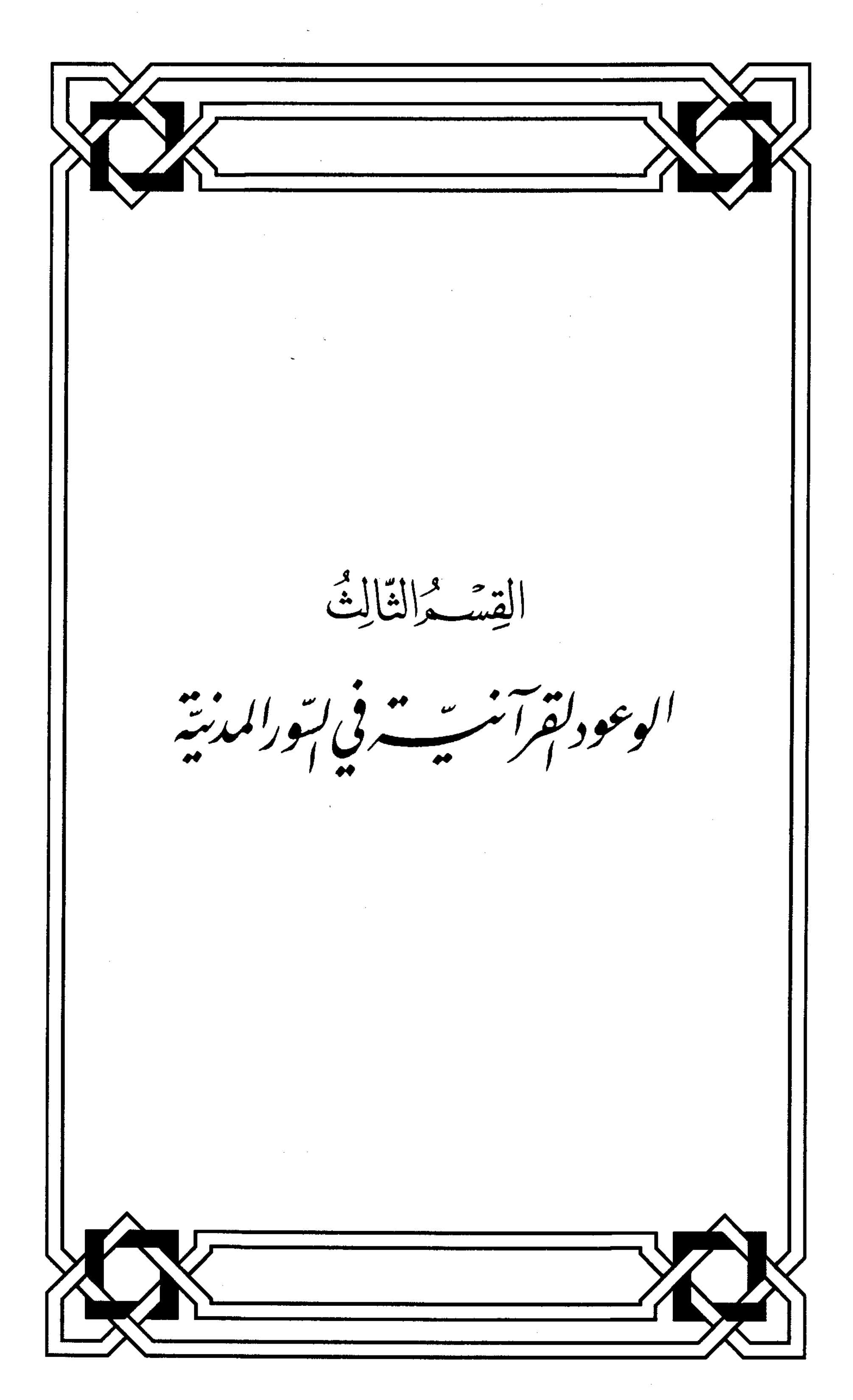
حتى كان يومُ بدر، رأيتُ النبيَّ ﷺ يَثِبُ في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، فعرفْتُ تأويلَها يومئذٍ.

يخبرُ عمرُ رضي الله عنه أنّه لما أُنزلَت الآيةُ في مكةَ عرفَ معناها، وأيقَنَ بما فيها من وعْدٍ ربّانيٍّ قادم، وأنه لا بدَّ أَنْ يتحقَّق.. لكنَّه لم يعرف كيف ولا متى ولا أين! فآمَنَ بالوعد، وتركَ وقْتَ تحقيقِه لحكمةِ الله.

وبعدَ سنوات، وفي معركةِ بدر، سمعَ الرسولَ ﷺ يتلو الآية وهو يلاحقُ الكفارَ المنهزمين، فعرفَ أنَّ تحقيقَ ذلك الوعدِ كان في بدر.

واللطيفُ في كلامِ عمر رضي الله عنه، أنه اعتبرَ تحققَ الوعدِ النظريِّ في صورتِه العملية التطبيقية: (تأويلاً) للآية، لأنَّ التأويلَ هو بيانُ النهايةِ والمآلِ والمصير: «فعرفْتُ تأويلَها يومئذٍ»!.

* * *



القِسمُ الثّالِثُ

الوعود القرآنيّة في السّور المدنيّة

الفَصْلُ الأوّل

الوعد القرآني في سورة البقرة

الأمة الوسط الشاهدة على باقي الأمم:

ذكرتْ آياتُ سورةِ البقرة وعوداً قرآنية، وتحققَت تلك الوعود؛ من تلك الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

أخبرَ اللهُ المسلمينَ في هذه الآيةِ أنّه جعلهم الأمةَ الوسط، والحكمةُ من ذلك أنْ يكونوا شهداء على الناس والرسولُ ﷺ شهيداً عليهم.

وتظهرُ (وَسَطِيَّةُ) الأُمةِ في كلِّ شيء. وسطيةُ المكانِ والموقعِ الجغرافي، فهي في وسطِ الكرةِ الأرضية، ووسطيةُ الزمان، فهي بعدَ اليهودِ والنصارى، والأهمُّ من هذا وسطيةُ المنهجِ والرسالة، فالإسلامُ هو الدينُ الوسط، والمرادُ بوسطية الإسلام (التوازنُ) بينَ مناهجه، و(الاعتدالُ) في تشريعاته، و(التكاملُ) بين توجيهاته، فلا إفراطَ فيه ولا تفريط، ولا مبالغةَ ولا تفلُّت، ولا غُلوَّ ولا تَهاون.

ووسطيةُ الأُمةِ في منهاجِها ورسالتِها جعلَ لها مهمةً حضاريةً كبيرة، ومسؤوليةً عالميةً خطيرة.

لقد جعلَ اللهُ الأُمةَ الوسَط شاهدةً على باقي الأمم، وهي المرجعُ الأساسيُّ للأُمم، والحَكَمُ لما ينشبُ بينها من خلاف، والأصلُ في هذه الأُمةِ الوسَطِ أنْ تؤدّيَ شهادتَها، وتَقومَ برقابتِها، وتُحققَ ريادتَها وأُستاذيّتَها.

وقد تحققَ هذا الوعدُ القرآنيُّ في عالمِ الواقع، عندما عاشت الأُمةُ بإسلامِها، وتحرّكتْ بقرآنها، واستقامَتْ على طريقِها، فقدّمتْ للعالمِ النورَ والهدى، والمدنية والحضارة، والمنهجَ والريادة.

وكانت الحواضرُ الإسلاميةُ مراكزَ إشعاع وهدى، في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغيرها، وكان الخليفةُ القويُّ مرهوبَ الجانب، مسموعَ الكلمة، وكانَ قادةُ العالمِ يتقرَّبون إلى النظامِ الإسلاميِّ القوي.

ولم تتحوَّل الأُمَّةُ في هذا الزمانِ إلى ذيلِ القافلة، إلا بعدما ابتعدَتْ عن إسلامِها، وقَلَّدَت الأُممَ الأُخرى في انحرافاتِها وسيئاتِها.

وما تعيشُه الأُمةُ الوسطُ الآن من ذلٍّ وضعفٍ وتبعيةٍ، لا يعني تخلُّفَ الوعْدِ القرآنيِّ لها، بالوسطية والأُستاذيةِ والشهادةِ والريادة، لأنَّ السببَ في ما تعانيه هو قصورُها وانحرافُها. والوعدُ القرآنيُّ ما زالَ قائماً وجاهزاً، ولكنه لا يَعملُ في حياةِ المسلمين، ولا يتحقّقُ فيهم، إلا إذا أَوْفوا هم بالعهد، وحقَّقوا الشرط، وأدّوا الواجب!.

المؤمنون فوق الكفار إلى يوم القيامة:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٢].

تُعَرِّفُنا الآيةُ على حقيقةِ ما عليه الكافرون، فهم لا يؤمنونَ بالآخرة، ولذلك زُينتْ لهم الحياةُ الدنيا، وهم يؤمنونَ بها، ويعملونَ لها، وهي هدفُهم وسعْيُهم، ومحطُّ اهتمامِهم، تجدُهم حريصين عليها، مُقبِلين على ملذّاتها ومُتعِها وشهواتِها.

ونظرتُهم للمؤمنين تقومُ على السخريةِ والتهكّمِ والاستهزاء، لا يعجبُهم المؤمنون في ترفُّعِهم عن متَع وشهواتِ الدنيا، وفي نظرتِهم للآخرة، وفي سعيِهم لها، وفي خوفِهم من الله، الذي يدفعُهم إلى تركِ ما حَرَّمَ الله.

وشتّانَ بين المؤمنين والكافرين، فالفريقانِ لا يستويان، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وذَكرت الآيةُ حقيقةً قرآنيةً قاطعة، وقدّمَتْ وعداً قرآنياً مُنْجزاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾.

المؤمنون المتّقون فوقَ الكافرين، ويَبقونَ فوقَهم إلى يومِ القيامة. هذا ما

قدَّرَهُ اللهُ وأرادَه، ولا رادَّ لأمْرِهِ سبحانه.

والمرادُ بالفوقيةِ هنا فوقيةٌ معنويةٌ نفسية، وليستْ فوقيةً مكانيةً مادية. إنها فوقيةٌ تملأُ شُعورَ المؤمنين، فهم المتميّزون على الكافرين في كلِّ شيء، متميِّزون بدينِهم ومنهاجِهم، ومتميِّزون بمهمتِهم ووظيفتِهم ودورِهم، متميِّزون بأفكارِهم وتصوُّراتِهم، وبسلوكِهم وتصرُّفاتِهم، وبآمالِهم وتطلُّعاتِهم واهتماماتِهم. متميِّزون في دنياهم وآخرتِهم.. ولهذا يوقنُ المؤمنون أنهم أفضلُ من الكافرين، وأنهم الأعْلَوْن المتفوقون. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وشعورُ المؤمنين بأنّهم الأعلى، وأنهم فوقَ الذين كفروا إلى يومِ القيامة لا يَعني تكبُّرَهم على غيرِهم، لأنَّ التكبُّرَ محرَّمٌ في دينِ الله.

إنما يعني اعتزازَهم بالإسلام، وافتخارَهم بالانتسابِ إليه، وشكْرَهم للهِ على ما ميَّزَهم به، وحرْصَهم على الالتزامِ به، وقيامَهم بواجبِ الدعوةِ إليه، وتقديمَ نورِهِ إلى الذين يتخبَّطون في ظلماتِ الكفرِ والجاهلية.

كما يعني هذا استغناؤُهم بالإسلام، واكتفاؤُهم به، ويقينُهم بعدمِ حاجتِهم لغيره، ولذلك لا يأخذونَ من الكافرين شيئاً من أفكارِهم ومذاهبِهم، وقوانينِهم وتشريعاتِهم، وقيمِهم وعاداتِهم، وسلوكياتِهم وتصرّفاتِهم، لأنَّ هذا كلَّه نتاجُ كفرِهم، وانغماسِهم في الحياةِ الدنيا وإنكارِ الآخرة.

لا بدَّ أنْ يشعرَ المؤمنونَ بأنَّهم فوقَ الذين كفروا، فلا يجبُنوا ولا يضعُفوا أمامهم، ولا يذلّوا لهم.

وقد حققَ اللهُ للمسلمين وعْدَه، فجعلَهم فوقَ الذين كفروا، حيثُ نصرَهم عليهم، ومكَّنَ لهم في الأرض.

شرط كون المؤمنين فوقَ الكفار:

وكون المسلمين فوق الذين كفروا مشروطٌ بالتزامِهم الصادقِ الجادِّ بالإسلام، وتطبيقِه والحركة به، فإن أخلّوا بهذا الشرطِ فَقَدوا هذه الصفة، ونَزلوا عن هذه المنزلة، ولا يَرتقونَ إليها إلاّ إذا عادوا إلى إسلامِهم.

والمسلمونَ في هذا الزمانِ ليسوا فوقَ الذين كفروا، وإنما صاروا في أوضاعهم العامةِ دونَ الذين كفروا، وهم الذين جَنَوْا بذلك على أنفسِهم، وهم السببُ في ما أصابَهم، لأنَّه انفكَّتْ صلةُ كثيرين منهم بالإسلام، وضَعفَتْ صلةُ آخرينَ به، وبذلك لم يلتزموا بشرطِ الفوقيةِ المشروط.

ونحنُ على يقينٍ أنَّ المسلمينَ سيعودونَ عودةً جادّةً للإسلام، وبذلك يعودونَ إلى المنزلةِ العاليةِ التي وضعهم اللهُ فيها، ورفعَهم إليها، وجَعلَهم فوقَ الذين كفروا.

نحن جازمونَ أنَّ هذا الوعدَ القرآنيَّ سيتحقَّقُ لهم في المستقبل، عندما يُغَيِّرون ما بأنفسِهم من سوء، كما تحقّق هذا الوعدُ لآبائهم الصالحين!.

إصابة المؤمنين بالبأساء والضراء:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

تتحدَّثُ الآيةُ عن طريقِ الدعوة، وضريبةِ الإيمانِ والالتزامِ والسيرِ في الطريقِ الموصلِ إلى الجنةِ.

والخطابُ في الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ للمسلمين، وإنَّ الآيةَ تُعرِّفُهم على ما ينتظرُهم من الابتلاءاتِ والمحن، في طريقِهم إلى الجنة، فطريقُ الجنةِ ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وهو ليسَ سَهْلاً معبَّداً، إنّه مليءٌ بالعَقَباتِ والأخطارِ والمفاجآت، وكلُّ مَنْ سارَ فيه لا بدَّ أنْ يُصيبَه الأذى والألم.

وللمسلمين في ذلك قدوةٌ وأسوةٌ بالمؤمنين الذين خَلَوا من قبلِهم، من أتباعِ الرسلِ السابقين، فقد عاشوا كثيراً من الابتلاءاتِ والمحن، أخبرَ اللهُ عنها بقولِه: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾.

البأساءُ هي الشدة، والضراء هي الضَّرُّ والألم، والزلزالُ قائمٌ على الإيذاءِ والابتلاءِ، والتهديدِ والتخويفِ، والحصارِ والمعاناة.

لا بدَّ أنْ يمرَّ المؤمنون بهذا الطريق، وأنْ يذوقوا هذه الابتلاءاتِ والمحن، وأن يَدْفعوا هذا الثمن.

وأكَّدتْ على هذا آياتٌ عديدة، منها قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

معنى التساؤل: متى نصر الله؟:

وبلغَ من شدةِ ما أصابَ المؤمنينَ السابقينَ قبلَ الإسلام أنَّ الرسولَ وأتباعَه كانوا يقولون: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾؟ فيأتيهم الجوابُ محققّاً ومؤكِّداً قربَ وقوعِه: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

وقولُ الرسولِ وأَتْباعِه المؤمنين: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾؟ ليس شكّاً منهم، ولا إنكاراً لنصْرِ اللهِ لهم، ولا يأساً أو ظنّاً أنَّ اللهَ تخلَّى عنهم، فهم موقنونَ بأنَّ اللهَ معهم، وأنّه سينصرُهم ويَهزمُ أعداءَهم.

إنَّ تساؤُلَهم ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾؟ تضرُّعٌ ودعاءٌ إلى الله، واستجلابٌ واستقدامٌ لنصْرِه، وإعلانٌ بأنّه قد أصابَهم الكثير، وقد تحمَّلوا الكثير، ودَفَعوا الكثير، وأنهم صابرون محتسبون، لكنهم يريدون أنْ ينْعَموا بالنصر.

الوعد بقرب نصر الله:

وقد علمَ اللهُ صدقَهم، في بذلِهم وصبرِهم وتساؤلهم، فبشَّرَهم بقربِ وصولِ النصر إليهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

وقد أُكِّدَتْ هذه الحقيقةُ بعدَّةِ مؤكداتٍ في الآية. وهي: حرفُ الاستفتاح: (ألا). وحرفُ التوكيد: (إنّ). والجملةُ الاسميةُ بعدها: ﴿نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾. وإضافةُ النصرِ إلى اللهِ إضافةُ تشريفٍ له. وصيغةُ المبالغة: ﴿قريب﴾.

وهذا وعدٌ قاطعٌ من الله، صيغَ هذه الصياغة، وأُكِّدَ بهذه المؤكِّدات.

وكان الرسلُ السابقونَ وأَتْباعُهم واثقين من نصْرِ الله، وموقنين بقربِ تحقُّقِه وقدومِه، وقد أنجزَ اللهُ لهم وعْدَه، في الوقتِ الذي اختارَه سبحانه بحكمتِه، فأنجاهم من الهلاك، ودَمَّرَ أعداءَهم الكافرين.

وبمعنى هذه الآية قولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

وهذا وعْدٌ من اللهِ بنصْرِ عبادِه المؤمنين، الصابرين المجاهدين الصادقين، وهذا الوعْدُ ليسَ مقيّداً بزمان، ولا خاصّاً بمكان، ولا محصوراً بالرسلِ السابقين وأتباعِهم، إنما هو وعْدٌ مطلقٌ عامٌّ شامل، للمؤمنين المجاهدين الثابتين على اختلافِ الزمان والمكان.

نَصْرُ اللهِ قريبٌ من الرسلِ السابقين وأَتباعِهم، وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه وأنزلَ عليهم نصْرَه، ونصْرُ اللهِ قريبٌ من رسوله محمد ﷺ وأصحابِه، وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه، وأنزلَ عليهم نصْرَه.

وإنَّ نَصْرَ اللهِ قريبٌ من المؤمنين المجاهدين من هذه الأُمة، وسيَصدُقُهم اللهُ وعْدَه، ويمنُّ عليهم بنصرِه، في الوقتِ الذي يحدّدُه، والكيفيةِ التي يختارُها.

ومن الواجبِ أنْ نوقنَ أنَّ اللهَ لا يحجبُ نصْرَه عن عبادِه المؤمنين المجاهدين الصادقين، لأنه جعلَ ذلك حقاً عليه، فقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].. ولكنَّ صورَ النصرِ وألوانَه عديدة، وليس محصوراً بالغلبةِ الماديةِ والانتصارِ العسكري. قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

استمرارُ قتال الكفار للمسلمين:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الآيةُ نازلةٌ في معالجةِ آثارِ قتْلِ مجموعةٍ من المجاهدين الصحابةِ رجلاً مشركاً في الشهرِ الحرام، وكان قتْلُهم له خطأً، وذلك في سَرِيَّةِ عبد الله بنِ جحش

رضي الله عنه . . وقد أثارَ كفارُ قريشٍ حرباً إعلاميةً دعائيةً ضخمةً ضدَّ المسلمين، واتَّهموهم فيها بانتهاكِ حرمةِ الشهرِ الحرام، فأنزلَ اللهُ آيةً في رَدِّ شبهاتِهم وإشاعاتِهم، وتسجيلِ جرائمهم، وختَمَها بتقريرِ حقيقةِ استمرارِ حربِهم وقتالِهم للمسلمين. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وليستْ وقفتُنا أمامَ الآيةِ بكاملِها، وبيانِ معناها، واستخراجِ دلالاتِها، لأنَّ هذا لا يتفقُ مع موضوعِ هذا البحث، إنما وقفَتُنا مع الجزءِ من الآيةِ الذي يتحدّثُ عن استمرارِ الحربِ والمواجهةِ بين المسلمين والكافرين.

الخطابُ في قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ للمسلمين، والإخبارُ في الجملةِ عن الكفار.

وتخبرُ الآيةُ عن استمرارِ قتالِ الكفارِ للمسلمين بفعل ﴿لا يزالون﴾، الدالَّ على الاستمرار، وعدمِ التوقّفِ والانقطاع. وإذا ما أعلنَ الكفارُ رغبتَهم في وقفِ القتال، وحرصَهم على تحقيقِ «السلام العادلِ والشاملِ والدائم!»، فإنهم كاذبون في هذا الإعلان، يريدونَ منه خداعَ المسلمين؛ فالسلامُ الذي يريدُه الكفارُ هو الذي يضمنُ لهم إخضاعَ وإذلالَ واستعبادَ المسلمين، واحتلالَ بلادِهم، ونهبَ خيراتِهم ومواردِهم وثرواتِهم، وإبعادَهم عن إسلامِهم وقرآنهم.

وهدفُ الكفارِ من قتالِ المسلمين محدّدٌ في الآية: ﴿ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ فإذا ما حقَّقوا هدفَهم، وأبعدوا المسلمين عن دينهم، توقَّفَ قتالُهم لهم.

وعاشَ المسلمونَ في مختلفِ فتراتِ تاريخهم مصداقَ هذا الوعدِ القرآني، وابْتُلوا بقتالِ الكافرين المستمرِّ لهم. . ويعيشُ مسلمو هذا الزمانِ أمثلةً حادةً واضحةً من استمرارِ قتالِ اليهودِ والصليبيين لهم. ولن يتوقّفَ ذلك القتالُ إلاّ باستيقاظِ الإيمانِ والجهادِ في نفوسِ وحياةِ المسلمين، عند ذلك ينصرُهم اللهُ على أُولئك الكافرين!.

* * *

الفصل الثاني

الوعد القرآني في سورة آل عمران

خسارة وحسرة الكفار:

في سورةِ آل عمران عدةُ آياتٍ، تتضمنُ وعوداً بهزيمةِ الكفار وانتصارِ المسلمين. من هذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٠ ـ ١٣].

تقررُ هذه الآياتُ حقيقةً قرآنيةً قاطعة، هي خسارةُ الكفارِ وحسرتُهم، فهم لا يُفلحونَ ولا يَنجحون، لا في الدنيا ولا في الآخرة. إنهم في الدنيا مهزومون مغلوبون هالكون، لا تنفعُهم أموالُهم ولا أولادُهم، ولا تدفعُ عنهم عذابَ الله، وفي الآخرةِ هم وَقودُ النار، مخلَّدون فيها.

وتقدّمُ الآياتُ نموذَجيْن من الكفار، تمثّلتْ فيهما هذه الحقيقة: نموذج آلِ فرعون، ونموذج كفارِ قريش.

آلُ فرعون والذين من قبلِهم، كَذَّبوا بآياتِ الله، وحاربوا رسلَ الله، وأشركوا بالله، وحارَبوا دينَ الله، فخابوا وخسروا، وأخذهم اللهُ بذنوبهم، وأهلكَهم ودمَّرهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم شيئاً.

هزيمة الكفار في بدر عبرة:

أما كفارُ قريش، فإنهم يعلمون ماذا جرى لهم على أرضِ بدر. ولذلك أَمَرَ

اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ لهم: أيها الكفار! لا جدوى من محاربتِكم للحقّ، فالحقُّ منصورٌ بـإذنِ الله، والمؤمنـونَ غالبونَ بـإذنِ الله، وأنتم مهزومـون فاشـلون، ومغلوبون خاسرون، وفي الآخرةِ ستُحشَرون إلى جهنَّم، وبئسَ المهادُ والمصيرُ والقرار.

وتذكُرُ الآياتُ ما جرى في غزوةِ بدرٍ بين المسلمين وبين الكافرين، وتجعلُ ذلك آيةً وعبرة، وتُخاطبُ الناسَ قائلةً: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾.

الْتَقَت الفئتانِ على أرضِ بدر، ووقعَتْ بينهما أولُ معركةٍ بين الحقّ والباطل في تاريخ المسلمين. فئةُ المسلمين بقيادةِ رسولِ الله ﷺ، وكانتْ هذه الفئةُ تقاتلُ في سبيلِ الله، وفئةُ الكافرين بقيادةِ أبي جهل (عمرو بن هشام)، وكانتْ تقاتلُ في سبيلِ الطاغوت.

وكانَ الكافرونَ مِثْلَيْ عددِ المؤمنين: ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾. أيْ: يَرى المسلمونَ الكافرينَ مِثْلَيْهم، عندما ينظرونَ إليهم بعيونهم.

ومعلومٌ أنَّ عددَ الكفار في غزوةِ بدرٍ كان ضعْفَي عددِ المسلمين، فبينما كان عددُ المسلمين ثلاثمئة وبضعةَ عشرَ رجلاً، كان عددُ الكفارِ حوالي ألْف رجل.

ومع قلةِ عددِ المسلمين في غزوةِ بدر إلاّ أنَّ اللهَ نصرَهم على أعدائِهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وعد الله بنصر عباده المجاهدين:

ومن سنَّةِ اللهِ المطردة، أنه ينصرُ عبادَه المجاهدين على أعدائِهم الكافرين، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

ولا يَلتفتُ إلى هـذه الآيات، ولا يَعتبرُ بما فيها من العِبَرِ والعظات، إلاّ أصحابُ البصائر الإيمانية.

ونـأخذُ من هذه الآياتِ وعداً إيمانيـاً قرآنياً، بنصْرِ اللهِ لعبادِه المؤمنين المجاهدين، في أيـةِ صورةٍ من صورِ النصر، التي يختارُهـا بحكمتِه سـبحانه

وتعالى. ونتعاملُ مع الكافرين من اليهودِ والصليبيين وغيرهم على ضوء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾. ونوقنُ أنهم خاسرونَ في النهاية، في أَيِّ معركةٍ يخوضونَها ضدَّ إسلامِنا العظيم.

ونخاطبُ هؤلاء اليهودَ والصليبيين بما أَمَرَنا اللهُ أنْ نخاطبهم: يا أيها الذين كفروا: ستُغْلَبون وتُحْشَرون إلى جهنّمَ وبئسَ المهاد، ولا فائدةَ لكم من محاربةِ الإسلام، فقد حاربَه كفارٌ قبلَكم، ففشلوا في القضاءِ عليه، واقرؤوا التاريخَ لتعتَبِروا.

أتباع عيسى فوق الكفار:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران: ٥٥].

وهذا وعدٌ آخرُ لنصْرِ المؤمنين، والتمكينِ لهم في الأرض، وَعَدَه اللهُ عيسى ابنَ مريم عليه السلام، عندما كان عيسى عليه السلام يعيشُ الخطرَ المباشرَ من قِبَلِ اليهودِ والرومانِ، حيث أرادوا قَتْلَه وصلْبَه، فأنقذَهُ اللهُ ونجّاهُ منهم.

وقبل أنْ يُنجيَهُ اللهُ منهم أوحى إليه أنه سيحميه ليطمئنَّ ويأْمَن، حيثُ قال له: يا عيسى إني سأتوفّاك، بأنْ أُلقيَ عليك النوم، وعندما تنامُ سأرفعُكَ إليّ، وأُصْعِدُكَ إلى السماء، وأنتَ نائم، وبذلك سأحميكَ وأُطهّرُكُ من الكافرين، الذين أرادوا قَتْلَكَ وصلْبَك.

وأنجزَ اللهُ لعيسى عليه السلام ما وَعَدَه، فأنجاهُ وطَهّرَه من أيدي الكافرين اليهودِ والرومانيين.

ووَعَدَ اللهُ عيسى عليه السلام أنْ يجعلَ الذين اتّبَعوه فوقَ الذين كفروا إلى يوم القيامة: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

من هم الذين اتبعوا عيسى عليه السلام:

والذين اتبعوه هم الحواريون والنصارى، الذينَ دَخلوا في دينِه، وكانوا مسلمين خاضعين لله، الذين قالَتْ عنهم الآياتُ السابقة: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

هم الذين آمنوا أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وصَدَقوا ما عاهَدوا اللهَ عليه، وصَبَروا على كلِّ ما صبَّ عليهم من صورِ العذابِ والاضطهاد.

وليس الذين اتَّبعوه الذين كفروا بالله، وألَّهوا عيسى عليه السلام، وقالَ فريقٌ: إنّه إلـه، وقال آخرون: إنّه ابنُ الله، وقال آخرون: إنّه ثالثُ آلهة ثلاثة، الآبِ والابنِ والروحِ القُدُس. هؤلاء كفارٌ بالله، وعيسى عليه السلام يتبرأُ منهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

والذين اتَّبَعوه حقاً وصِدْقاً أمةُ محمدٍ ﷺ، الذين آمَنوا أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ اللهِ ورسولُه، وأنزلَ اللهُ عليه كتابَه الإنجيل، وأحبّوه ووقَّروه، ودافعوا عنه ونزَّهوه، ونظروا له نظرةً إيمانيةً إيجابية، كنظرتِهم إلى كلِّ أنبياءِ اللهِ ورسلِه، عليهم الصلاةُ والسلام.

هؤلاء هم الذين اتّبعوه حقاً، وهؤلاء أعزَّهم اللهُ وأيَّدَهم، وجعلَهم فوقَ أعدائِه الكافرين، من اليهودِ الذين حاولوا قتْلَه، والنصارى الذين ألَّهوهُ وغالوا فيه، وبقيَ هؤلاء المؤمنون الصالحون الأعلى إلى يوم القيامة. كما قال اللهُ عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وَوَعْدُ اللهِ منْجَز، فالمسلمونَ أَتْباعُ عيسى عليه السلام الحقيقيّون فوقَ الكافرين، ظاهرونَ عليهم بالحجّة والمنطق، والإسلام ظاهرٌ بأدلّته وبراهينِه، ولا تقفُ أمامه فكرةٌ أو دعوة. و الداعيةُ العالمُ المفكِّرُ غالبٌ ظاهر، في أيِّ حوارٍ أو نقاشٍ أو ندوة، لأنَّ الحقَّ واضحٌ غالب، والباطلَ ضعيفٌ مغلوب.

الأمة المسلمة خيرُ الأمم:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١١٠ـ ١١٢].

تبدأُ الآياتُ بتقرير حقيقة قاطعة، حولَ خيرية هذه الأمة، والخطابُ في الآية للأمة المسلمة، بجَميعِ أجناسها وشعوبها، فالله الحكيمُ أخرجَ هذه الأمةَ للناسِ إخراجاً، وأنشأها على إسلامِها، الذي ميَّزها به، وعلَّقَ قوَّتَها وعزَّتَها على التزامِها به.

الأمةُ المسلمةُ هي خيرُ الأمم وأفضلُها، وهي الأمةُ الوسَط، الشاهدةُ على ما سواها من الأمم، المتميزةُ عنها بالمنهج والرسالة. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وذكرت الآيةُ وظيفةَ الأمة، التي تميَّزَتْ بها، فكانَتْ خيرَ أمّة، وذلك في قولها: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.. فهي خيريةُ وظيفة ومهمة، تقومُ على الالتزام بالإسلام، والحركة به، والدعوة إليه، من خلالَ الإيمانِ باللهِ والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر.

حاجة الأمم المعاصرة لمنهاج الأمة المسلمة:

وأوضح ما تكونُ خيريةُ الأمةِ المسلمةِ في هذا الزمان، الذي شَهِدَ إقصاءَ الإسلامِ عنَ الوجودِ الفعليِّ المؤثِّرِ في بلادِ المسلمين، وإزاحةَ الأُمةِ المسلمةِ عن مكانتِها العالمية الحضارية، والذي شـهدَ سيطرةَ الكفارِ على العالم، وقيـادة الجاهليةِ للبشرية!.

رأَيْنا في هذا الزمانِ الأفكارَ والمذاهبَ الجاهليةَ الكافرة، وسيطرتَها على الناسِ، في أفكارِهم وتصوراتِهم، ومشاعرِهم وخواطرِهم، وأقوالِهم وأفعالِهم، وتصرفاتِهم وسـلوكياتِهم، واهتماماتِهم ورغباتِهم.. رَأَيْنـا السـوءَ والخبثَ في ما تفرزُه وتُنتجُه الحياةُ الغربيةُ الجاهلية، في الفكرِ والعلم، والإنتاجِ والصناعة،

والمالِ والاقتصاد، والسياسةِ والاجتماع، والخُلُقِ والسلوك.. رأَيْنا القيمَ والمبادئَ الشيطانيةَ تُغرقُ البشريةَ في أوحالِ الإباحيةِ والشهوات.. وتُحَوِّلُ الرجالَ والنساءَ إلى حيواناتٍ، عبيدٍ للشهوةِ والهوى والشذوذ!!.

لقد حَوَّلَ الجنسُ والمخدّراتُ الأُممَ إلى (شرٍّ) أُمَمٍ عاشتْ على وجْهِ الأرض، ومَسَخَتْ فيها إنسانيةَ الإنسان، وسحقَتْه إلى أدنى من مرتبةِ الحيوان.. وصارَ البقيةُ من العقلاءِ عند الغربيّين يَبحثونَ عن الرصيد المتبقي من الإنسانية عندَ الإنسان الغربيّ الكافر المعذَّب، فلا يجدونَ لها أثراً.

مما جعلَ البشريةَ بأمَسِّ الحاجةِ إلى هذه الأُمةِ المسلمة، الخيِّرةِ الفاضلة، المتميّزةِ بأخلاقِها ورسالتها، لتُعيدَ للبشريةِ المعذَّبةِ إنْسانيّتَها المسلوبة.

هدف الكفار القضاء على المسلمين:

وأهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى يَحسدونَ هذه الأُمة، ويَحقدونَ عليها بسببِ خيريّتِها، ولذلك كَفروا بدينِها، ولو آمنوا به وكانوا مسلمين لكانَ خيراً لهم: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ولم يكتفوا بالكفر، وإنّما أعلنوها حرباً شرسةً عنيفةً ضدَّ هذه الأمة، على مَدارِ قرونِ التاريخِ الإسلامي، بهدفِ ردةِ المسلمين عن دينهم، كما قالَ اللهُ عنهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقد جَزَمَ اللهُ أنّهم لن يحقّقوا هدفَهم هذا ضدَّ المسلمين، ولن ينجحوا في القضاءِ عليهم، وستبقى الأُمةُ في مواقعِها، تواجههُم وتَصُدُّ كيدَهم، وكلُّ ما يمكنُ أنْ يقْدِروا عليه هو (إيذاءُ) المسلمين. قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾.

أَيْ: لن ينجحَ الأعداءُ في تحقيقِ أهدافِهم ضدَّكم، ولن يوصِلوا الضررَ إلى دينكم، ولن يقتلعوهُ منكم، وسيبقى قوياً راسخاً ثابتاً، كالشجرة الصلبةِ الممتدة، وهي التي شَبَّهَ اللهُ بها قوةَ الإسلامِ ورسوخَه، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

ضر الكفار مجرد أذى سطحي:

إنَّ الكفارَ سيؤذونَ المسلمين، مجردَ أذى، وهو أذى سطحيٌّ خارجيّ، يُصيبُ الجانبَ الماديَّ من الإنسان، كأعضاءِ جسمِه، بحيثُ يعذِّبونَ بعضَ المسلمين، وقد يَقْطَعون بعضَ أطرافِهم، وقد يأخذونَهم أسرى ويضعونَهم في السجون، ويَحكمونَ عليهم بأكثرَ من سجنٍ مؤبَّد، وقد يحاربونَهم في أموالِهم وممتلكاتِهم، وتجاراتِهم وأعمالِهم، ولكنَّ هذا كلَّه مجردُ (أذى) خارجيٌّ سطحي، سرعانَ ما يزال، حتى لو طالَ فترةً من الزمانِ فإنّه يمكنُ تحمُّلُه واحتمالُه، والصبرُ عليه، واحتسابُ آلامِه.

أما الإيمانُ في القلب، واليقينُ والثقة، وقوةُ العزيمةِ والإرادة، والتصميمُ على التحدّي والمواجهة، والصبرُ والثباتُ، فإنَّ الأعداءَ لن يصلوا إليها في كيانِ المؤمنين الصادقين المجاهدين الثابتين.

وكلّما ازدادَتْ هجمةُ الأعداءِ على الأُمة شدةً وعُنفاً، كلما ازدادَ المؤمنونَ المجاهدونَ الثابتون عزيمةً وهمّةً وتصميماً وجهاداً ومواجهة.

ونرى في أيامِنا مصداقَ هذا الوعدِ القرآنيِّ في عجْزِ اليهودِ والصليبيين عن القضاءِ على إرادةِ الجهادِ والمواجهة في نفوسِ المجاهدين الصادقين، وكلُّ ما يَقدرون عليه إصابةُ أبدانهم وممتلكاتِهم بالأذى!!.

هزيمة الكفار أمام المجاهدين الصادقين:

وتقدمُ الآياتُ وعداً قرآنياً آخر، بهزيمةِ الكفارِ أمامَ المؤمنين الصادقين: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وعندما كان الكافرون يواجهونَ جيوشَ المؤمنين الصادقين كانوا يَنهزمونَ أَمامَهم، ويتحقّقُ هذا الوعدُ القرآنيُّ القاطع.

ولا قياسَ على الفترةِ الحرجةِ التي يعيشُها المسلمون المستضْعَفون في هذا الزمان، والتي انهزمَ فيها المسلمون أمامَ الكافرين، وولَّوْا أَدبارَهم أعداءَهم، وانتصرَ الأعداءُ في حروبِهم المستمرةِ ضدَّهم. فهذه فترةٌ خاصة، ولا يتحملُ الوعدُ القرآنيُّ مسؤوليتَها، ولم يتخلَّفْ هذا الوعدُ بسببِها، لأنَّ المسلمينَ

المعاصرينَ هم السببُ في ما أصابَهم، لأنّهم أخلُّوا بشرطِ النصرِ الذي شرطَه اللهُ عليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

وسيعودُ المسلمونَ إلى دينِهم، وسيعودُ هذا الوعدُ القرآنيُّ إلى التحققِ في حياتِهم، وسيَرونَ انهزامَ الأعداءِ أمامَهم، هذا عندنا يقين، وهو قادمٌ بإذْنِ الله.

ذلة اليهود والحبال الممدودة لهم:

وأخبرَنا اللهُ عن الذلّة التي أوقعَها باليهودِ بالذات: ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ﴾.

ولا يتعارضُ ما عليهِ اليهودُ في هذه الأيامِ من مظاهرِ قوةٍ وتمكين، وهيمنةٍ وسيطرةٍ على العالم، مع الوعدِ القرآنيِّ بإيقاعِ وضربِ الذلّةِ والمسكنةِ عليهم.

فقد نصَّت الآيةُ على استثناءِ ذلك من حالةِ الذلَّةِ العامة، وجعلَتْه فترةً قصيرة، وجعلتْهُ حبلاً ممدوداً إليهم من الله: ﴿ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾، لكنه حبلٌ قصير، سرعانَ ما يُقْطَع، ولكنها فترةٌ قصيرةٌ لن تزيدَ عن عشراتِ السنين، وماذا تُساوي عشراتُ السنين أمامَ عشراتِ القرون، التي عاشَها اليهودُ في الماضي، بالذلةِ والمسكنةِ واللعنِ والغضب؟ وإنَّ اليهودَ الملعونين ينتظرُهم مستقبلٌ أسودُ مظلم، يَعيشونَه بالذلّة والمسكنة، والضعفِ والعجزِ والهوان، على أَيْدي المؤمنين الصادقين المجاهدين، الذين سيصدُقُهم اللهُ هذا الوعد، ويمكّنُهم من أعدائِهم!.

عداوة الأعداء للمسلمين:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

تنهى هذه الآياتُ المؤمنينَ عن موالاةِ الأعداءِ واتخاذِهم بطانةً وخبراء

ومستشارين للمؤمنين، وتُرينا شدةَ عداوتِهم لنـا، وتُقدّمُ لهم صوراً كاشفـة، وتحليلاتٍ صائبة.

الأعداءُ الكافرونَ لا يُقَصِّـرونَ في إصابـةِ المؤمنين بالخَبـالِ والضعفِ والعجز، وهم حريصونَ على إصابةِ المؤمنين بالعنتِ والشدةِ والمشقةِ والأذى.

ومهما حاولوا إخفاءَ عداوتِهم عن المسلمين، والتحلّي بالدبلوماسيةِ والخداعِ تجاههم، فـإنَّ ألسـنتَهم تخونُهم أحيانـاً، فتتكلَّمُ ببعضِ الكلمـاتِ والعباراتِ، التي تُصرّحُ بالكراهيةِ والبغضاءِ للمسلمين، والتي تشيرُ إلى ما تُخفي صدورُهم من ذلك.. إنهم حاقدونَ كارهون، مبغضون للمسلمين.

ولن ينجحَ المسلمونَ في إزالةِ العداوةِ والبغضاءِ من قلوبِهم وصدورِهم، وإذا حاولوا حسنَ التعاملِ معهم ومحبتهم، والنظرَ إلى إنسانيتهم، فإنَّ الأعداءَ لا يُمكنُ أنْ يحبّوهم، وأنّى يوجدُ مكانٌ صغيرٌ للحبِّ في قلبٍ امتلأ حِقْداً وكرهاً وعداوةً وبغضاء؟!.

تحليل قرآني لنفسيات الكفار:

وهؤلاء الأعداء المبغضون يحاولونَ التجمُّلَ والتمثيلَ أمامَ المسلمين، فإذا لقوهم زَعَموا اتفاقَهم معهم على الإيمان، والتعاونِ لخدمةِ الأدْيان، والتنسيقِ لمحـاربـةِ الفسـادِ والإلحـاد. ولكنّهـم إذا خَلَـوْا ببعضِهـم صـرَّحـوا بكـرههـم للمسلمين، وعَضُّوا عليهم الأناملَ من الغيظ.

ومن بغضِهم للمسلمين وحقدِهم عليهم، أنهم لا يحبونَ أنْ ينالَ المسلمونَ خيراً، ولا أَنْ تتحسَّن أحوالُهم، أو تُحَلَّ مشكلاتُهم، وإنْ أصابت المسلمين حسنةٌ استاؤوا وتألّموا، وإن أصابَتْهم سيئةٌ فرِحوا واستبشَروا بها!!.

لقد كانت هذه الآياتُ صادقةً في تحليلِها لنفسياتِ الكافرين، وكشْفِها لعداوتِهم وبغضِهم وكرهِهم للمسلمين. وهي لا تتحدّثُ عن فريقٍ خاصٍّ من الكافرين، ولا عن صنفٍ خاصٍّ منهم، عاشوا في زمانٍ معين، أو مكانٍ معين! إنها تنطبقُ على الكافرين في كلِّ زمانٍ ومكان. وابتُليَ المسلمونَ في كلِّ فتراتِ تاريخِهم الماضي والحاضر بهؤلاءِ الكافرينَ الحاقدين!.

وصدقَ اللهُ العظيم، فإننا نرى هذه الآيات، تتحدّثُ حديثاً تحليلياً كاشفاً، عن الكافرينَ الحاقدينَ علينا في هذا الزمان، من اليهودِ والهنودِ والروسِ والأمريكان، وغيرِهم من الأعداءِ الحاقدين المحاربين.

الصبر والتقوى لمواجهةِ الكفار:

وبعدما قدَّمت الآياتُ هذه الصورَ الكاشفةَ للكفار، دلَّت المسلمين على الطريقةِ التي يُبْطِلون بها كيدَهم، وذلك في قولها: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾.

وهذا وعدٌ قرآنيٌّ قاطع، يجبُ على المؤمنينَ أنْ يأْخُذوهُ بيقين، وأَنْ يتعامَلوا معه بثقة، وأنْ يلتزموا بالشَّرْطِ لينالوا الجزاءَ والنتيجة.

الخطةُ القرآنيةُ المضمونةُ لإبطالِ كيدِ الأعداءِ تقومُ على عنصرَيْن:

الأول: الصبرُ المطلَق، بمعناه العامِّ الشامل، باعتبارِه زاداً إيمانياً ضرورياً، للثباتِ على الحق، والتصميمِ على استمرارِ التحدّي للباطل.

الثاني: التقوى المطلقةُ لله، بمعناها العامِّ الشامل، باعتبارِها حالةً إيمانيةً دائمةً، لا تفارقُ المسلمَ في أيِّ لحظةٍ من حياتِه.

بالصبرِ والتقوى يواجهُ المسلمونَ الكافرين، ويُبطلونَ عداوتَهم، ولا يضرُّهم كيدُهم شيئاً، وبذلك يفشلُ الكافرونَ في حربِهم ضدّ المسلمين، وعند ذلك يمكنُ للمسلمين أنْ يُخاطِبوا الكافرين المغتاظين بما أمرَهم اللهُ به في قوله: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾.

ولا بدَّ أنْ يتزوَّدَ المسلمونَ المعاصرونَ بزادِ الصبر، وأنْ يَعيشوا دائماً حالةَ التقوى، وأنْ يَلتزموا بكلِّ أحكامِ الإسلام، ويُحققوا كلَّ شروطِه، ليواجِهوا بذلك حقدَ وكراهيةَ كفارِ هذا الزمان، الذين صَعَّدوا حربَهم ضدَّ المسلمين، وعَمَّقوا حقدَهم عليهم.

وعندما نقرأُ قولَه تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ نتذكَّرُ ونستحضرُ الوعدَ القرآنيَّ القاطع في قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: ١١١].

ونتذكَّرُ قولَه تعالى في أواخرِ سورةِ آل عمران: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وعندما تشتدُّ عداوةُ كفارِ هذا الزمان، نتذكَّرُ هذه الآياتِ الكاشفة، ونقول: هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه. ونلتزمُ بالخطةِ القرآنيةِ حتى ننالَ النتيجة: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾!

* * *

الفصل الثالث

الوعد القرآني في سورة المائدة

البشرى بإكمالِ الدين وإتمامِ النعمة:

من الآياتِ التي وعدت المسلمينَ بالنصرِ والتمكين، وإظهارِ إسلامِهم، ويأسِ الكافرينِ من القضاءِ عليه، واستمرارِ حربِهم للمسلمين، هذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣].

تقدمُ هذه الآيةُ بشرى للمسلمينَ بإكمالِ دينِهم، وإتمامِ نعمةِ اللهِ عليهم، كما تقدّمُ لهم وعداً قاطعاً برسوخِ أَمْرِ دينهم، وقوتِه واستقرارِه، بحيثُ يئسَ الكفارُ من القضاءِ عليه.

وقد عرفَ المسلمونَ قيمةَ وعظمةَ معنى هذه الآية، وجَعَلوا يومَ نزولِها عيداً!.

روى البخاريُّ [برقم: ٤٥]، ومسلمٌ [برقم: ٣٠١٧] عن طارقِ بنِ شهاب: «أنَّ رجلاً من اليهودِ قال لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين! آيةٌ في كتابِكم تقرؤونَها، لو علينا ـ معشرَ اليهودِ ـ نَزَلت، لاتّخذْنا ذلك اليومَ عيداً!.

قال له عمر: أيُّ آية؟.

قال: قولُه تعالى: **﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾**.

قال عمر: قد عرفْنا ذلك اليوم، والمكانَ الذي نزَلَتْ فيه على النبيِّ ﷺ، نزَلَتْ عليه وهو قائمٌ بعرفَةَ يومَ جمعة».

يريدُ ذلك اليهوديُّ أنْ (يتعالَم) على عمر رضي الله عنه، ويُظهرَ له معرفتَه

بالقرآن، ولذلك قالَ له: إنَّ آية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ. . . ﴾ عظيمة، ولو أنَّها أُنزلَتْ علينا نحن اليهود، لاتّخذْنا يومَ إنزالِها عيداً! .

فردَّ عليه عمر رضي الله عنه، وبَيَّنَ له أنَّ المسلمينَ يَعرفونَ معنى هذه الآيةِ وعظمتِها ودلالتِها، وأنَّ اللهَ أنزلَها في أعظمِ أيامِ السنة، وهو يومُ عرفة، وقد كان يومُ عرفةَ يومَ جمعة، وكان رسولُ اللهِ ﷺ واقفاً بعرفات يوم أنزلها اللهُ عليه.

ويريدُ عمرُ رضي الله عنه أنْ يقولَ لليهودي: لقد جعلْنا يومَ نزولِها عيديْن، وليس عيداً واحداً، فيومُ الجمعةِ الذي أُنزِلتْ فيه عيدٌ أُسبوعي للمسلمين، ويومُ عرفة الذي أُنزلَتْ فيه عيدٌ سنويٌّ للمسلمين.

وقد امتنَّ اللهُ على المسلمين في هذه الآيةِ بالمنّةِ العظيمة، وهي منّةُ إكمالِ دينِهم، وإتمامُ نعمتِه عليهم، حيثُ رضيَ لهم الإسلامَ ديناً، فاكْتَفوا واستَغْنَوا به، ولم يعودوا محتاجين إلى استعارةٍ أو استيرادِ غيره.

ووقفَتُنا مع قولِه: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ .

إنَّ هذه الجملةَ تقدّمُ لنا حقيقتيْن عظيمَتَيْن:

يأس الكفار من القضاء على الإسلام:

الحقيقة الأولى: يأسُ الكافرين من القضاء على الإسلام، الذي رضيَه اللهُ ديناً للمسلمين، رغمَ إعلانِهم الحربَ الطاحنةَ ضدَّه، واستخدامِهم كلَّ الأسلحةِ الممكنةِ فيها، ورغمَ استمرارِ هذه الحربِ طيلةَ تاريخِ المسلمين، على اختلافِ أزمانِهم وأوطانِهم.

منذُ بعثةِ رسولِ اللهِ ﷺ، والكفارُ يُعادونَه ويُحاربونه، وطيلةَ الفترةِ المكية من عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ، التي استمرّتْ ثلاثةَ عشرَ عاماً، والكفارُ يحاربونَ رسولَ اللهِ ﷺ حرباً شرسة، ليس فيها قتالٌ وإطلاقُ نار، لكنها حربٌ بمختلفِ الأسلحةِ الأُخرى، بهدفِ قتْلِ دعوتِه، والقضاءِ على دينِه، ولكنهم فشلوا، وعجزوا عن تحقيقِ هدفِهم! .

ولما هاجرَ الرسولُ ﷺ، اجتمعَتْ أحزابُ الكفرِ من اليهودِ والمنافقين والمشركين، للقضاءِ على دينِه، وحاربَه المشركونَ حرباً عسكريةً، بالإضافةِ إلى

الأساليبِ الأُخرى، واستمرّتْ هذه الحربُ عشرَ سنوات. . ولم يُقَصِّروا في استخدامِ كلِّ ما يَقْدِرون عليه. . ولكنَّهم فَشلوا وخَسروا، وانهزموا أمامَ الإسلامِ.

وقبلَ أنْ يُقْبَضَ رسولُ اللهِ ﷺ نَصَرَ اللهُ دينَه، وأَقَرَّ عينَه بدخولِ كلِّ الجزيرةِ العربيةِ في الإسلام، وفي الشهورِ الأخيرةِ من حياتِه ﷺ حَجَّ حَجَّةَ الوداع، وأنزلَ اللهُ عليه وهو واقفٌ بعرفة هذه البشرى، التي فيها الإخبارُ عن يأْسِ الكافرين من القضاءِ على هذا الدين.

استمرار حربِهم الفاشلة ضدّه:

ومنذ نزولِ هذه الآيةِ وحتى اليوم، أمضَت الأُمةُ المسلمةُ أربعةَ عشرَ قرناً من عمرِها الممتدِّ حتى قيامِ الساعة، ولم تتوقَّفْ محاولاتُ الأعداءِ على اختلافِ أصنافِهم للقضاءِ على الإسلام، فماذا كانت النتيجة؟ عرف كلُّ فريقٍ من الكافرين يأسَه من القضاءِ على هذا الدين، بعدَ أنْ ظنّوا أنَّ القضاءَ عليه قريبٌ سهلٌ ميسور، وشنّوا عليه حرباً شاملةً طاحنة، عَرَفوا في نهايتِها عجزَهم وفشلَهم، وخرجَ الإسلامُ من المعركةِ قوياً عزيزاً منصوراً.

وأجزمُ أنّه لم يحارَبْ أيُّ دينٍ كما حُوربَ الإسلام، ولو أنَّ الحربَ التي شُنَّتْ عليه شُنَّتْ على أيِّ مذهبٍ آخر، لأبادَتْه ودفنَتْه، ولكنّ الإسلامَ القويَّ الحيَّ كان يخرجُ من كلِّ معركةٍ قوياً غالباً منصوراً بإذنِ الله.

ويشهدُ الإسلامُ اليومَ حرباً صليبيةً عالمية، يقودُها اليهودُ والأمريكان، بهدفِ اجتثاثِه والقضاءِ عليه! ولن يكونوا أحسنَ حالاً ومآلاً من الكافرين السابقين، بل سيَنْتَهون إلى ما انتهى إليه مَنْ سبَقوهم من العَجَزةِ المهزومين، وسيبقى الإسلامُ قوياً محفوظاً، وسيخرجُ من هذه الحربِ الصليبيةِ غالباً ظافراً منصوراً بإذنِ الله.

ويبقى الوعدُ القرآنيُّ الذي يقطعُه قولُه تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ نافذاً مُنْجزاً، ويبقى ماضياً محقَّقاً، على اختلافِ الزمانِ والمكان.

لا يخشى المسلمون الكافرين:

الحقيقة الثانية: بما أن الكافرينَ يائسونَ مهزومون، فلماذا يَخشاهم

المسلمون، ويَخافونَهم على دينِهم؟ لا يَجوزُ أنْ يخشوهم، لأنَّ العاجزينَ لا يَخْشاهم أَحَد، والكفارُ عاجزون: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

صحيحٌ أنَّ حربَ الكفارِ للمسلمينَ مستمرةٌ، لكنَّها حربُ يائسين عاجزين، ويجبُ على المسلمين أنْ يُواجهوها ويخوضوها، مع يقينِهم أنّهم الغالبون المنصورونَ فيها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

إنَّ الآيةَ تُقَوِّي المؤمنين على مواجهةِ وتحدّي الكافرين، وترفعُ نفسياتِهم وهِمَمهم ومعنوياتِهم أمامَهم، وتَدْعوهم إلى إحسانِ النظرِ إليهم.. إنهم ليسوا غالبين قاهرين، قادرين على كلِّ شيء، كما يُحاولونَ أنْ يوهموا المسلمين بذلك، وإنهم مهما ملكوا من قوة لن يجاوزوا قَدْرَهم، ولَنْ يزيدوا عن حجمِهم، فهم يائسون عاجزون! وكيف يخشى المسلمون عاجزين يائسين؟!.

ردة معاصرة عن الإسلام:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٦].

تتحدَّثُ الآيةُ عن صفاتِ المؤمنين الصالحين، الذين يَحملونَ هذا الدين، إذا تخلَّى بعضُ أَهلِه عنه، وهذا وعدٌ صادقٌ من اللهِ، باستمرارِ وجودِ الدعاةِ الصالحين، الذين يَحملونَ لواءَ الإسلام، ويَدعونَ إليه، ويواجهون أعداءَه.

إذا ارتدَّ بعضُ المسلمين عن دينهم فهم الخاسرون، ولن يتأثَّرَ الإسلامُ بهم، وإذا تخلَّى بعضُ المسلمين عن الدعوةِ إلى الإسلام، والحركةِ به ورفعِ رايتِه، فهم الذين يَخسرون، ولن يضُرُّوا اللهَ شيئاً.

لقد شاءَ اللهُ أنْ يبقى عَلَمُ الإسلام مرفوعاً، وأنْ تبقى مهمتُه قائمة، وأنْ يبقى أَثرُه في الحياةِ مستمراً، وإذا تخلَّى أُناسٌ عنه فسوفَ يأْتي اللهُ بآخرينَ أفضلَ منهم يَحملونَه ويتحرَّكون به.

ونعترفُ أنه قد ارتدَّ كثيرٌ من ملايين المسلمين عن إسلامِهم، في صورةٍ من صورِ الردةِ الكثيرة، وأنه قد ابتعدَ كثيرٌ من المسلمين عن إسلامِهم، وقد تخلّى كثيرٌ من المسلمين عن إسلامِهم، وتأثَّرَ كثيرٌ منهم بالحياةِ الغربيةِ الجاهليةِ المخالفةِ للإسلام.

لكن هلْ توقَّفَتْ مهمةُ الإسلامِ ودورُه في حياةِ البشرية؟ وهل توقَّفَ المسلمون جميعاً عن التوجُّهِ إلى الإسلام والحركةِ به؟.

شباب الصحوة المجاهدون:

لقد وعدَ اللهُ أنْ يأتيَ بقومٍ ربّانيين، دعاةٍ مجاهدين، يَحملونَ الإسلامَ إذا تخلّى عنه بعضُ أهلِه، ووَعْدُه نافذٌ ماضٍ، لأنه سبحانه لا يُخلفُ الميعاد.

وفي الوقتِ الذي ظنَّ فيهِ اليهودُ والصليبيُّون، أنهم تمكَّنوا من إماتةِ الإسلام، في بلادِ ونفوس المسلمين، وفي الوقتِ الذي يئسَ فيه كثيرٌ من المسلمين من العودةِ إلى الإسلام، في هذا الوقتِ العصيبِ المعاصر، حقَّقَ اللهُ وعْدَه الذي جزمَ به في هذه الآيات، فألهمَ مجموعاتٍ مباركةً من الشبابِ الإسلاميِّ التوجُّهَ إلى الإسلام، ووفَّقَهم إلى حملِه والدعوةِ إليه والحركةِ به، ووُجِدَتْ صحوةٌ إسلاميةٌ مباركة، في الربعِ الأخيرِ من القرنِ العشرين المنصرم، وقامَتْ حركاتٌ وجماعاتٌ إسلامية في مختلَفِ بلادِ العالم، وسَجّلتْ ظاهرةُ العودةِ إلى الإسلامِ كثيراً من الظواهرِ والأمثلةِ والنماذج.

وانتشرتْ ثقافةُ الجهادِ والاستشهادِ عند الشبابِ الإسلامي، ونشأَتْ حركاتٌ جهاديةٌ في المناطقِ الجهاديةِ الساخنةِ في بلادِ المسلمين، في فلسطينَ والشيشان، والبوسنة وأفغانستان وكشمير، والعراق ولبنان، وغيرها من بلاد المسلمين.

وسوفَ تستمرُّ هذه الصحوةُ الإسلاميةُ المباركةُ بإذْنِ الله، حتى تصحوَ قطاعاتٌ كبيرةٌ من المسلمين، وتُعيدَ بلادَ المسلمين إلى الحكمِ بالإسلام، وجهادِ أعداءِ الإسلام!.

فقد رأَيْنا في حياتِنا تحقّقَ الوعْدِ القرآنيِّ بالإتيانِ بهؤلاءِ القومِ الصادقين، والحمدُ للهِ على فضْلِه وإنْعامِه.

وقد صَبَّ اليهودُ والصليبيّون حربَهم وغضبَهم على شبابِ الصحوةِ الإسلامية، ورجالِ الانتفاضةِ المجاهدة، بحجةِ مقاومةِ الإرهاب، وهَيَّجوا العالمَ ضدَّهم، ولكنَّ ذلك لا يُضيرُهم شيئاً، ويَكفيهم أنَّ اللهَ معهم.

صفات حزب الله الغالبين:

إنَّ صفاتِ شبابِ الصحوةِ الإسلامية، ومجاهدي الانتفاضةِ الإسلامية المذكورة في الآيات هي:

١ ـ اللهُ يحبُّهم، ومن محبّتِه لهم أنّه ألهمَهم حملَ الإسلامِ والحركةَ به، في وقْتٍ تخلَّى عنه كثيرٌ من أبنائِه، وحاربَه كثيرٌ من أعدائِه، وقد حقّقَ هؤلاء الربانيون العزّة والسعادةَ والخيرَ كلَّه بمحبّةِ اللهِ لهم، وماذا عليهم لو كرههم الآخرونَ وحارَبوهم، ويَكفيهم أنَّ اللهَ يحبُّهم، ومَنْ أحبَّهُ اللهُ لم يخسرْ شيئاً، ولو لم يملكْ شيئاً من الدنيا، ومَنْ خسرَ محبةَ اللهِ لم يربَحْ شيئاً ولو ملكَ كلَّ شيء في الدنيا.

٢ ـ هم يحبونَ الله، ومِن مظاهرِ محبتِهم له إكثارُهم من ذكْرِه وشُكْرِه، وحُسن عبادتِه، والتزامُ طاعتِه، وتركُ مخالفتِه، واستمرارُ صلتِهم به، ومِن محبَّتِهم لله محبتُهم لرسولِه محمدٍ ﷺ، واقتداؤُهم به، ومحبّتُهم لدينِه، والغيرةُ عليه، والانتصارُ له، والدعوةُ إليه، والتصدّي لأعدائِه.

٣ ـ هم أذلّةٌ على المؤمنين، لأنهم يجتمعون معهم على عبادةِ اللهِ والأُخوةِ فيه، والتعاونِ على الدعوةِ إليه وجهادِ أعدائِه.

٤ ـ أَعِزَّةٌ على الكافرين، والعزةُ هنا معناها قوةُ البراءةِ والمفاصلةِ من الكافرين، إنهم يكرهونَ الكافرينَ ويُبغضونَهم، لكفرِهم وحربِهم للمسلمين، ويَحرصونَ على عدمِ موالاتِهم ومحبتِهم، وعلى الشدَّةِ عليهم، فليس في قلوبِهم مودةٌ ولا رحمةٌ بهم.

٥ ـ هم مجاهدونَ في سبيلِ الله، جهاداً ربّانياً شاملاً مبروراً، في مختلفِ صورِ الجهادِ وميادينِه وأساليبِه، لأنهم يعلمونَ خطورةَ الهجمةِ الشرسةِ التي يشنُّها اليهودُ والصليبيون على الإسلامِ والمسلمين، وأنّه لا يصدُّها ويردُّها إلا الجهادُ الكبيرُ المستمرُّ المتواصل!.

٦ ـ هم لا يَخافونَ لومةَ لائم، لأنّهم يستمدّون علْمَهم وثقافتَهم من الإسلام، ويَحتكمونَ إليه، ويَعتبرونَه المرجعيةَ الأُولى لهم، ويَحرصونَ على عدمِ مخالفتِه، والمهمُّ عندَهم أنْ لا يغضبَ اللهُ عليهم. . وعلى الدنيا ومَنْ فيها السلامُ بعد ذلك. فلا يَحسبون للآخَرين حساباً، ولا يَخافونَ لومَهم واعتراضَهم وإدانتَهم وذَمَّهم، لأنّه لا قيمةَ للآخَرين الكافرين عندَهم، ولا وزنَ لاعتراضِهم أو لومِهم أو إنكارِهم.

٧ ـ هم مُوالونَ لله ولرسولِه وللمؤمنين الصالحين العابدين، متبرِّئون من أعداءِ الله، ومن مظاهرِ موالاتِهم للمؤمنين محبتُهم والذلةُ عليهم، ومن مظاهرِ براءَتِهم من الكافرين جهادُهم، والوقوفُ أمامَ مخططاتِهم ومكائدِهم.

٨ ـ هم عابدونَ لله، مستمتعونَ بذكْرِه وشكْرِه، يُقيمونَ الصلاة، ويُؤتونَ الزكاة، ويكونون مع الراكعين الساجدين، يَلتزمون بالإسلام، ويتحرّكونَ به، ويَدْعونَ إليه، بذلك صاروا أولياءَ لله.

٩ ـ هم حزبُ اللهِ الغالبونَ، فالصفاتُ الإيمانيةُ السابقةُ أوصَلَتْهم إلى هذه النتيجةِ المشرقة. إنهم غالبونَ لأنّ اللهَ معهم، ومنتصرونَ في جهادِهم لأعدائِهم.

إننا نرى هذه الإيجابية، في شبابِ الصحوةِ الإسلامية والانتفاضةِ الجهادية، الذينَ أتى اللهُ بهم في هذا العصر، ووفَّقَهم للقيامِ بواجبِهم، والمستقبلُ الإيمانيُّ المشرقُ لهم بعونِ الله.

وعلى كلِّ مسلمٍ صالحٍ يحبُّ الإسلام، ويحبُّ له النصرَ والتمكين، أنْ يكون من هؤلاءِ القومِ الربّانيين، وأنْ يحقّقَ في نفسِه الصفاتِ الجليلةَ التي ذكرَتْها هذه الآيات، ليُقرِّبَ وعْدَ اللهِ بالغلَبَةِ والنصرِ، الذي هو آتٍ لا محالةَ بإذنِ الله.

* * *

الفصل الرابع

الوعد القرآني في سورة الأنفال

أُنزلَتْ سورةُ الأنفالِ في أعْقابِ غزوةِ بدر، في السنةِ الثانيةِ من الهجرة، وقد عرضَتْ مشاهدَ من أرضِ المعركة، وقدمَتْ حقائقَ إيمانيةً قاطعةً، في المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، ووعوداً قرآنيةً منجزَةً، في انتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل.

من آياتِها التي قدّمت الحقائقَ وقطعَت الوعودَ ما يلي:

استجابة دعاء قريش سخرية بهم:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩].

تتحدَّثُ الآيةُ عن غزوةِ بدر، وتُشيرُ إلى بعضِ ما قالَه مشركو قريش، وتهدّدُهم وتتوعَّدُهم، وتُحطّمُ معنوياتِهم، وترفعُ معنوياتِ وعزائمَ المجاهدين، فالخطابُ في الآيةِ لكفارِ قريش.

قالَ الإمامُ الحافظُ ابنُ كثير في تفسيرِ الآية: «يقولُ اللهُ للكافرين: إنْ تَستَفْتِحوا وتَسْتَنْصِروا وتسْتَقْضوا الله، وتَستَحْكِموه أنْ يَفصِلَ بينكم وبينَ أعدائِكم المؤمنين، فقد جاءَكُم ما سألْتُم.

كما قالَ ابنُ إسحاقِ وغيرُه عن عبدِ اللهِ بن ثعلبة: أنَّ أبا جهلٍ قالَ يومَ بدر: اللهمَّ أيُّنا كانَ أقطعَ للرَّحِم، وأتانا بما لا يُعْرَف، فأَحْنِهِ الغداةَ! وكان ذلك استفتاحاً منه، فأنزلَ اللهُ الآيةَ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾.

وقال السّدّيّ: كان المشركونَ حين خرجوا من مكةَ إلى بدرٍ أخذوا بأستارِ الكعبة، فاستَنْصَروا الله، وقالوا: اللهمَّ انصُرْ أعلى الجندَيْن، وأكرمَ الفئتَيْن، وخيْرَ القبيلَتَيْن، فقالَ الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾. أيْ: قد نصرتُ ما قلْتُم، وهو محمدٌ ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾: عما أنتم فيه من الكفرِ بالله، والتكذيبِ لرسولِه ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: في الدنيا والآخرة.. وقولُه: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ أيْ: وإنْ تَعودوا إلى ما كنتم فيه من الكفرِ والضلالةِ، نَعُدْ لكم بمثلِ هذه الواقعةِ.. وقولُه: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعْتُم من الجموعِ ما عسى أَنْ تجمعوا، فإنَّ مَنْ كانَ اللهُ معه فلا غالبَ له. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وهم الحزبُ النبويُّ والجنابُ المصطفويُّ...» [تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٧ـ ٢٩٨].

فَسَّرَ الإمامُ ابنُ كثير الآيـةَ على أساسِ خطابِها لكفارِ قريش، وتهديدِها ووعيدِها لهم، وتحطيمِها لنفسياتِهم وعزائمِهم، وتيئيسِهم من إمكانيةِ الانتصارِ على المؤمنين، وهذا كلامٌ صحيح، متفقٌ مع سياقِ السورةِ، وسببِ نزولِ الآية.

ولكنَّ الآيةَ ليستْ خاصةً فيما جرى للمشركينَ يومَ بدر، والخطابُ فيها ليس خاصاً بأبي جهلٍ ومَنْ معهُ من المشركين، ومن بدهياتِ أسبابِ النزولِ أنَّ «العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السبب». أيْ: لا يجوزُ قَصْرُ معنى الآيةِ على سببِ نزولِها، والواجبُ الانطلاقُ من سببِ النزولِ إلى الدلالةِ العامةِ للآية، وبيانِ شمولِها للحوادثِ المشابهةِ لسببِ النزول.

والآيةُ التي أمامَنا، يجبُ أنْ نبينَ معناها من خلالِ نزولِها، وحديثِها عن المشركين في بدر، كما فعلَ الإمامُ ابنُ كثير، ثم تعميمُ معناها ودلالتِها، لتشملَ كلَّ حربٍ يعلنُها الكفارُ على المسلمين المجاهدين الصادقين، في أيِّ زمانٍ ومكان.

الآيةُ تخاطبُ الكفارَ، في أيةِ حربٍ يشنّونَها على الإسلامِ والمسلمين، وتُهدّدُهم وتتوعَّدُهم بالهزيمة، وتقذفُ في قلوبِهم اليأسَ من إمكانيةِ تحقيقِ أهدافِهم، في القضاءِ على الإسلامِ والمسلمين.

ولذلك نستشرفُ من الآيةِ وعْداً قرآنياً للمؤمنين بالتمكين، ووعيداً وتهديداً للكفار بالهزيمةِ في النهاية.

ونرى أنَّ هذا الـوعدَ القرآنيَّ قـد تحقّقَ في فتـراتِ التاريخ الإسـلاميِّ المنصرمة، وما زالَ الوعدُ قائماً، يملأُ قلوبَ المسلمين المجاهدين المعاصرين بالثقةِ والأمل، كما يملأُ قلوبَ الأجيالِ القادمةِ من المسلمين بذلك!.

ما نقوله لأعدائنا المعاصرين:

ونعتبرُ هذه الآيةَ الواعدةَ المتوعدة، خطاباً من اللهِ الواحدِ القهارِ إلى اليهودِ والصليبيين، يهدّدُهم فيه بالهزيمةِ والخسارةِ في النهاية. ونقولُ لهؤلاء الأعداءِ المحاربين المعاصرين: كان عليكم أنْ تعتبروا بما جرى لمن سبقكم من الكفار، الذين خَسِروا وانهزموا في حربِهم لهذا الدين، فإنْ تَستفتحوا اللهَ وتدعوهُ أَنْ يهزمَ الكفارَ ـ لأنكم تعتبرون المسلمين هم الكفار ـ فقد جاءَكم الفتحُ، واستجابَ اللهُ لكم، وسيرتدُّ دعاؤُكم عليكم، لأنَّكم أنتم الكفارُ في الحقيقة.

ونقولُ لليهودِ والصليبيين: إنْ تَنتهوا وتَتَوقَّفوا عن حربِ الإسلامِ والمسلمين فهو خيرٌ لكم، لأنّكم بحربكم لنا تقدّمون الخيرَ لنا، حيثُ تفتحونَ عيونَ أبنائِنا على عداوتِكم، فيختارونَ الإسلام، ويُصمّمونَ على مواجهتِكم، وعندما تتوقّفون عن حربِنا تُريحون أنفسَكم.

ونقولُ لهم: إنْ لم تستمعوا النصيحة، وعُدْتُم إلى الحرب، فإنَّ اللهَ يعودُ إلى إذلالِكم، وتطبيقِ سنّتِه المطردةِ عليكم، فقد شاءَ سبحانَه أنْ يحفظَ دينَه، وينصرَ أولياءَه، ويهزمَ أعداءَه.

يَطمئنُّ المؤمنون المجاهدون الصادقون، ويتوكّلون على الله، ويَثقونَ ويوقنون بوعْدِ الله، وأنّه معهم سبحانَه بتأييده وعونِه ورعايتِه، ولهذا يقولون للكافرين المعاصرين: لن تُغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثُرَت.. فمهما ملكتُمْ من أموالٍ وأسلحةٍ متطورةٍ متقدّمة، ومهما جَنَّدْتُم من الجنود، وعقدتُم من التحالُفات واستَنْفَرْتم من الناس، فلن ينفعَكم هذا في النهاية!.

إنكم قد تَهزمونَ مسلمين ضعفاء، وقد تَنْجَحُون في احتلالِ بلاد، كما حصلَ مع اليهودِ في فلسطين، ومع الروسِ في الشيشان، ومع الأمريكان في العراق وأفغانستان، لكنْ مَنْ يضمنُ لكم الاستمرارَ في احتلالِ البلادِ واستعمارِها، ونهبِ خيراتِها وثرواتِها، واستعبادِ أهلِها؟.

لن تستمرّوا في جرائِمِكم، وإنَّ يومَ الجهادِ والتحريرِ قادم، وعند ذلك لن تُغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثُرت، لأنَّ اللهَ مع المؤمنين، فلا تنخدعوا باحتلالِكم واستعمارِكم، لأنَّ العبرةَ إنما هي بالخواتيم، والعاقبةُ دائماً للمؤمنين المجاهدين الصادقين!!.

خسارة الكفار في حربهم للمسلمين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦ـ٣٧].

تتحدَّثُ الآيتان عن حربِ كفارِ قريشٍ للمسلمين، ورصدِهم الأموالَ لقتالِهم، والثأرِ لما جرى لهم في غزوةِ بدر.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير في معناهما ومناسبةِ نزولِهما: «قال محمدُ بنُ إسحاق: حدَّثَني الزهري وغيره، قالوا: لما أُصيبَتْ قريشٌ يومَ بدر، ورَجَعوا منهزمين إلى مكة، ورجعَ أبو سفيان بالعير، مشى عبدُ اللهِ بن أبي ربيعة، وعكرمةُ بن أبي جهل، وصفوانُ بنُ أُمية، في رجالٍ من قريش، أُصيبَ آباؤُهم وأبناؤُهم وإخوانُهم ببدر، فكلَّموا أبا سفيان بنَ حرب، ومَنْ كانتْ له في تلكَ العير تجارة، وقالوا: يا معشرَ قريش: إنَّ محمداً قد وَتَرَكم، وقتَلَ خيارَكم، فأعينونا بهذا المالِ على حربه، لعلَّنا أنْ ندركَ منه ثأراً، بمنْ أُصيبَ منا! ففعلوا.. ففيهم أنزلَ اللهُ الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ﴾.

وقالَ مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما: نزلت الآيةُ في أبي سفيان، ونفقتِه الأموالَ في أُحُد، لقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقال الضحاك: نزلَتْ في أهلِ بدر.

وعلى كلِّ تقديرٍ فهي عامة، وإن كان سببُ نزولِها خاصّاً، فقد أخبرَ اللهُ أنَّ الكفارَ يُنفقونَ أموالَهم ليصُدُّوا عن اتّباعِ طريقِ الحقّ، فسيَفْعلون ذلك، ثم تذهبُ أموالُهم، ثم تكونُ عليهم حسرةً وندامة. لأنّهم أرادوا إطفاءَ نورِ الله، وظهورَ كلمتِهم على كلمة الحقّ.. واللهُ متمُّ نورِه، وناصرُ شرعه، ومعلنُ كلمتِه، ومظهرُ دينِه على كلِّ دين. جعلَ اللهُ الخزيَ لهم في الدنيا، ولهم في الآخرةِ عذابُ النار، ومَنْ عاشَ منهم رأى بعينِه وسمعَ بأذنه ما يسوؤه، ومَنْ قُتِلَ منهم أو مات، فإلى الخزيِ الأبَديّ، والعذابِ السرمدي...» [تفسير ابن كثير: ٢/٣٠٨].

الآيةُ نازلةٌ في جمعِ قريشٍ الأموالَ، وإنفاقِها على حربِ الإسلامِ، والصَّدِّ

عن سبيلِ الله، وذكَرَتْ أنّهم لن ينجحوا في هدفِهم، وأنّهم سيُغْلَبون ويَنْهزمون، وسيَخْسَرون تلك الأموال، ويَندمونَ ويتحَسَّرون عليها.

ووقعَ ما جزمَتْ به الآية، فقد خسرتْ قريشٌ في معاركِها ضدَّ رسولِ الله ﷺ، في أُحُدٍ والخندق وغيرهما، وخَسِروا أموالَهم التي رَصَدوها وأَنْفَقوها، وانتهت الحربُ بإزالةِ الكفر، وفتحِ مكة، وإسلامِ أهلِها.

كذلك فعلَ اليهودُ والمنافقونَ في المدينة، حيثُ رَصَدوا وأنفقوا الأموالَ الكثيرة، وبذلوا كلَّ جهودِهم للقضاءِ على الإسلامِ والمسلمين، لكنّهم فشلوا في مَسْعاهم، ولم يخرجوا إلا بخسارةِ تلكَ الأموالِ التي أنفقوها.

والآيةُ ليستْ خاصةً بإنفاقِ الكافرين أموالَهم على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنما هي عامة، تنطبقُ على الكفارِ في كلِّ زمانٍ ومكان، يُنفقونَ أموالَهم ليصدّوا عن سبيلِ الله، وتجزمُ بخسارتِهم وحسرتِهم.

الأموال المعاصرة المرصودة لحربِ الإسلام:

الكفارُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يُنفقونَ أموالَهم ليصُدّوا عن سبيلِ الله، وأوضحُ ما يكونُ هذا في هذه الأيام، حيثُ منحَ اللهُ الكفارَ المعاصرين أموالاً طائلة، امتحاناً وابتلاءً لهم، ولكنّهم استخدموا تلك الأموالَ في الفسادِ والإفساد، وفي الصّدِّ عن سبيل الله.

الدولُ الغربيةُ الغنيةُ، وضعت الكثيرَ من الخططِ والبرامجِ لإفسادِ المسلمين، ونشْرِ الانحلالِ بينهم، ولمحاربةِ الإسلام، والقضاءِ على جنودِه ورجالِه، ورصدوا لتلكَ الخططِ والبرامجِ الميزانياتِ الضخمة، التي تُقَدَّر بعشراتِ المليارات من الدولارات، وقدَّموا لها ما استطاعوا من الطاقاتِ والجهودِ، واستخدموا فيها ما قَدروا عليه من الأسلحة، وحَقَّقوا بعضَ الإنجازات!.

لكنَّهم لم يتمكَّنوا من تحقيقِ هدفِهم الكبير، في القضاءِ على الإسلام، والصَّدِّ عن سبيلِ الله، ولن يتمكَّنوا من ذلك في المستقبلِ أيضاً!.

إنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ تقدِّمُ لنا وعداً قرآنياً، بانتصارِ الإسلامِ في معركتِه مع الباطل، وبعدمِ نجاحِ الكفارِ في الصَّدِّ عن سبيلِ الله، رغمَ إنفاقِهم أموالَهم

الطائلة، وهذا الوعدُ القرآنيُّ يتحقّقُ في كلِّ جولةٍ من جولاتِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، وتتجلّى فيه نتيجةُ كلِّ خطةٍ من خططِ الكفار، وتَؤولُ إليه كلُّ ميزانيةٍ ضخمةٍ من ميزانياتِ الكفار.

اسْأَلوا الفرنسيين والإنكليز، عن مصيرِ ميزانياتِهم الضخمةِ لحربِ الإسلام، والصّدِّ عن سبيلِ الله، واسْأَلوا اليهودَ والأمريكان، عن مصيرِ عشراتِ المليارات من الدولارات، التي رَصدوها لحربِ الإسلامِ والصّدِّ عن سبيلِ الله! وانظروا إلى قوةِ الإسلامِ الزاحف، وتمكُّنِه من قلوبِ وحياةِ كثيرٍ من المسلمين الصالحين.

كلما نقفُ على خطةٍ شيطانيةٍ كافرةٍ لحربِ الإسلامِ، نتذكَّرُ هذه الآيـة، وكلّما نطلعُ على ميزانيةٍ ضخمةٍ لتمويلِ تلك الخطة، نتذكَّرُ هذه الآية، ونَعيشُ معناها، ونثقُ بالوعْدِ القاطع المنجز الذي تُقدّمُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

* * *

الفَصْلُ الخامِسُ

الوعد القرآني في سورة التوبة

سـورةُ التوبـةِ من آخرِ ما نـزلَ من القرآن، وكانَ نزولُها في التعقيبِ على أحداثِ غزوةِ تبوك، في السنةِ التاسعةِ من الهجرة، وفيها تقريرُ الأحكامِ النهائية، للمواجهة بين الحقِّ والباطل.

وقدَّمَتْ آياتُ السورةِ وعوداً قاطعةً، لانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، وفقَ سُنَّةِ الله التي لا تتبدَّل. من هذه الآيات:

وجوب قتال الكفار:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢ـ٣٣].

تُخبرُ الآيةُ عن جهودِ الكافرين، على اختلافِ الزمانِ والمكان، في محاربةِ دينِ اللهِ، وعـدم نجاحِهم في تلك الجهود. وتقدمُ وعـداً قاطعاً مـن اللهِ بإظهارِ الإسلام على ما سواه من الأديان، رغمَ أنفِ الكافرين.

والآيتان في سياقِ آياتٍ تتحدّثُ عن المشركين، وأهلِ الكتابِ من اليهودِ والنصارى، تُعرِّفُ المسلمين عليهم، وتأمُرهم بقتالِهم، وتُبيِّنُ سببَ اعتبارِ أهلِ الكتابِ كافرين.

المشركون أعداءٌ نَجَس، لا يجوزُ للمسلمين أنْ يَأْذنوا لهم بالاقترابِ من المسجد الحرام.. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى كافرون أعداء، ويَجبُ على المسلمين

قتالُهم، حتى يُذِلّوهم، ويأْخُذوا منهم الجزية، وتُبينُ الآياتُ الأسبابَ التي تَدْعو المسلمين إلى قتالِهم. قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورغمَ أنَّ أهلَ الكتابِ يملكونَ كتباً من عندِ الله؛ التوراة والزبور عند اليهود، والإنجيل عن النصارى، إلاّ أنهم ألَّهوا غيرَ الله، وزعموا لله ابناً، وعَبَدوا أحبارَهم ورهبانَهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١].

حرص الكفار على إطفاء نور الله بأفواههم:

وتنتقلُ الآياتُ من بيانِ فسادِ عقيدةِ المشركين وأهلِ الكتاب، وبيانِ كفرِهم والدعوةِ إلى قتالِهم، إلى الحديثِ عن عداوتِهم لهذا الدين، وسعْيِهم للقضاء عليه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

الكلامُ في الآيةِ على أصنافِ الكفارِ الثلاثة، المذكورين في الآياتِ السابقة، وهم: المشركون، واليهود، والنصارى.

والمصدرُ من ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعل ﴿يُرِيدُونَ﴾. أَيْ: يُريدونَ إطفاءَ نورِ الله.

والمرادُ بنورِ الله: الإسلام. الذي ختمَ اللهُ به الأديان، وجعلَه الدينَ الوحيدَ المقبولَ عنده حتى قيامِ الساعة، وهو نورٌ ينيرُ للناسِ طريقَهم، وهدى يهديهم إلى الحق، ويدلُّهم على ما يريدُه اللهُ منهم.

والكفارُ على اختلافِ أصنافِهم، يَكرهونَ هذا النورَ الكاشفَ الهادي، ولذلك يَحرصون على القضاء عليه.

صورة مضحكة للكفار في حربهم:

وترسمُ الآيةُ صورةً شاخصةً ساخرةً لهؤلاء الكفار، في محاولاتِهم اليائسةِ

المتعدّدةِ لحرب الحق: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ . . إننا نتخيلُ بخيالِنا منظراً مضحكاً، نرى فيه مجموعةً من الناس، لم يُعجبهم ضوءُ الشمسِ وقتَ الظهر، في يومٍ صيفيٍّ حارّ، وأرادوا القضاءَ على الشمسِ وضيائِها! ولكنْ كيف؟ صاروا ينفُخونَ على ضوءِ الشمسِ بأفواهِهم، ويُخرجون الهواءَ من صدورِهم، ويوجِّهونَه للشمس لإطفائها!!.

وعندما نَراهم على هذه الصورةِ المضحكة، نَعجبُ من بلاهتِهم وسذاجتِهم، ولو أنَّ البشريةَ كلَّها قامَتْ بالنفخِ على الشمسِ لما أطفأَتْها، وأَنْفاسُهم لا تمتدُّ لأبعدَ من أمتارٍ قليلة، فضْلاً عن أنْ تمتدَّ إلى الشمس! فلْيَنْفُخوا ما شاؤوا أنْ يَنْفُخوا!!.

وهكذا محاولاتُ الكافرينَ جميعاً للقضاءِ على الإسلام، إنها لا تخرجُ عن هذه الصورةِ البلهاءِ الساذجة، ولن تكونَ محاولاتُهم اليائسةُ أحسنَ من نفخاتِ سُذَّجٍ لإطفاءِ ضوءِ الشمس!.

إننا نعترفُ أنَّ كفارَ هذا الزمانِ من اليهودِ والصليبيين والأمريكان، يشنّونَ على الإسلامِ حرباً شرسةً فظيعةً عنيفة، يستخدمون فيها مختلفَ الأسلحةِ والأساليبِ والوسائل، ليسَ السلاحُ العسكريُّ المتطوِّرُ إلاّ واحداً منها، ونعترفُ أنَّ هؤلاءِ الأعداءَ نجحوا في تحقيقِ بعضِ المكاسبِ في بلادِ المسلمين. .

لكننا نَجزمُ أنهم لن ينجحوا في القضاءِ على الإسلام، ولن يتمكَّنوا من إطفاءِ نورِ الله، لا بأَفواهِهم ولا بأيديهم ولا بأموالهم، ولا بغير ذلك. وهم في هذه الحربِ الشرسةِ، كتلك المجموعة التي تنفخُ على الشمسِ لإطفاءِ ضوئها.

يأبى الله إلا أن يتم نوره:

إنهم لن ينجحوا في ذلك لأنهم يحاربونَ اللهَ، ويَقفونَ أمام إرادتِه، وقد أرادَ اللهُ إتمامَ نورِه، وأبى إلاّ أنْ يفعلَ ذلك: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وكل كلمةٍ في هذه الجملةِ تؤكِّدُ على إتمامِ اللهِ لنورِه، وعَبَّرَتْ عن ذلك بالإباء، والإباءُ دالٌّ على الرفضِ والامتناع، فاللهُ يرفضُ عدمَ إتمامِ نورِه، ويمنعُ أَعداءَه الكافرين من تحقيقِ مرادِهم ضدَّه، ولذلك لن يُحققوا ما يُريدون.

والمرادُ بإتمامِ نورِه انتصارُ دينِه الإسلام وانتشارُه، وظهورُه والتمكينُ له، فاللهُ متمُّ نورِه، وناصرُ دينِه، حتى لو كرهَ الكافرون ذلك، ولو حاولوا تعطيلَ إرادةِ الله، فمحاولاتُهم فاشلة، وكراهتُهم لا قيمةَ لها، ولا وزْنَ لهم ولا اعتبار عند الله، فلا يهمُّ كرهُهم أو رضاهم.

وجوابُ الشرط في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ محذوف، دلَّ عليه ما قبلَه. والتقدير: ولو كره الكافرونَ إتمام النور وانتصار الدين، فاللهُ متمُّ نورِه وناصرُ دينه.

الإسلام وحده دين الحق وما سواه باطل:

وتخبرُ الآيةُ الثانيةُ عن إظهارِ الإسلام، والتمكينِ له: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

أرسلَ اللهُ رسولَه محمداً ﷺ بالهدى، وقَصَرَ الهدى على دينه، فلا هُدى في غيرِه من الأديانِ والأفكار. وجعلَ اللهُ دينَه الإسلامَ هو الدينَ الحق، أي الدينُ الوحيدُ المقبولُ عند الله، وهو الدينُ الحَقُّ لأنّه محفوظٌ بحفْظِ الله، لا يمكنُ أنْ تمتدَّ إليه يدٌ بشريةٌ بالتحريفِ أو التزوير، وكلُّ ما فيه حقٌّ وصواب، لأنّه من عندِ الله.

وإذا كانَ الإسلامُ وحدَه هو الدينَ الحق، الذي يَدينُ به المسلمُ لله، فإنَّ الأديانَ الأخرى كلَّها أديانٌ باطلة، لأنها طالَتْها يدُ التحريفِ والتبديل.

وبما أنَّ الإسلامَ هو الدينُ الحق، وغيرُه أديانٌ باطلة، فإنَّ الإسلامَ سينتصرُ عليها، لأنَّ سنَّةَ اللهِ تقررُ انتصارَ الحقِّ على الباطل.

وصْفُ الإسلامِ في هذه الآيةِ بأنه: ﴿دِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو نفسُه وصْفُه بآيةٍ سابقة بأنه دينُ الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، فأهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى، يَدينونَ بدينٍ، أَصْلُه سماويٌّ من عند الله، ولكنهم عَدَوْا على ذلك الدينِ فحرَّفُوه وغَيَّروه وبدَّلوه، وبذلك صاروا يَدينون دينَ الباطل، وليس دينَ الحق.

دينُ الحقِّ في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو نفسُه دينُ الحَقِّ، المذكورُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ . . وهذه لفتةٌ مقصودةٌ في كتاب الله.

إظهار دين الله على الدين كله:

وقد قدَّرَ اللهُ الحكيمُ إظهارَ الإسلامِ على الدينِ كلِّه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

اللامُ في ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ لامُ العاقبة، التي تدلُّ على العاقبةِ والنتيجة، فعاقبةُ ونتيجةُ إرسالِ الرسولِ ﷺ بالدينِ الحق، هي إظهارُ هذا الدينِ على الدين كله، فالهاءُ في ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ تعودُ على الإسلام الدينِ الحق. والمرادُ بالدينِ كلِّه أيُّ دينٍ آخر غيرِ الإسلام، ويَدخلُ فيه الأديانُ ذاتُ الأصلِ السماوي، كاليهودية والنصرانية.

لقد كانت اليهوديةُ في الماضي السحيق دينَ الحق، الذي أرسلَ اللهُ به رسلَه إلى بني إسرائيل، ولما حَرَّفَها اليهودُ بعدَ ذلك لم تَعُدْ دينَ الحقّ، وأصبحتْ بذلك التحريفِ الدينَ الباطل. . وكانت النصرانيةُ زمنَ عيسى عليه السلام دينَ الحق، ولما حَرَّفَها النصارى بعد ذلك لم تَعُد الدينَ الحق.

سيُظهرُ اللهُ الإسلامَ الدينَ الحق، على الدينِ الباطلِ كلِّه، ولو كره المشركون المتَّبِعون للدينِ الباطل، فكراهيتُهم لا قيمةَ لها عندَ الله، فسواءٌ كَرِهوا أو رفضوا، وسواءٌ وافقوا أو عارضوا، فلا وزْنَ لهم عندَ الله.

وجوابُ شرطِ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ محذوف، دلَّ عليه ما قبلَه، أَيْ: لو كرهَ المشركونَ إظهارَ الإسلامِ على الدينِ كلِّه، فإنَّ اللهَ سيُظهره.

مظهران لإظهارِ الإسلام على غيره:

وإظهارُ الإسلامِ على الدينِ كلِّه له مظهران:

المظهرُ الأول: مظهرٌ معنويّ، إظهارُ الإسلامِ فيه بمعنى وضوحِ حججِه وأدلّتِه وبراهينِه، وقوةِ منطقِه، وصدقِ حقائقِه وموضوعاتِه ومضامينه.

المظهرُ الثاني: مظهرٌ ماديٌّ؛ يقومُ على انتصارِ الإسلام على الكفر، وانتصارِ المسلمين على الكافرين في الجهادِ والقتال، وفتْحِ البلدانِ والممالك، ودخولِ الناسِ في الإسلام.

وهذا وَعْدٌ صادقٌ من الله، يتعاملُ معه المؤمنُ بثقةٍ ويقين، ويعتقدُ أنه لا بدَّ من أنْ يتحقَّقَ، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وقد تحقَّقَ المظهرانِ المذكورانِ لإظهارِ الإسلامِ على الدينِ كلِّه، في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه، فكانت حجةُ الإسلامِ بالغة، وآياتُه ساطعة، وفتحَ اللهُ له البلاد، في الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر وغيرها، ودخلت الشعوبُ المختلفةُ في هذا الدين.. وعاشَ المسلمونَ سعداءَ بالإسلامِ قروناً عديدة.

ولكنَّ المسلمين في هذا العصرِ تخلَّوا عن الإسلامِ، ولم يلتزموا بما أمرَهم اللهُ به، فذلّوا وضعُفوا، وهزمَهم الأعداء، وطمعوا في بلادِهم وثرواتِهم.

الإظهار الفكري المعاصر للإسلام:

ورغمَ انحسارِ الإسلامِ عن الوجودِ الماديِّ المؤثّر، وعدمِ تحققِ المظهرِ الماديِّ لإظهارِه على الدينِ كلِّه، بسببِ تقصيرِ المسلمين، وإخلالِهم بشروطِ هذا التمكين المادي، فإنَّ الإظهارَ المعنويَّ متحقّق، ومستمرٌّ طيلةَ قرونِ التاريخِ الإسلامي.

لقد أظهرَ اللهُ الإسلامَ على الكفر، المتمثلِ في دينِ المشركين واليهودِ والنصارى، على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وأيّدَه بالحججِ والآياتِ والبراهين، كما أظهرَه على كلِّ الأديانِ والأفكارِ والمبادئ الكافرة، طيلةَ قرونِ التاريخِ الإسلامي.

وإننا نرى تحققَ هذا الوعدِ القرآنيِّ الحق في عصرِنا الحاضر، الذي شهدَ هجمةً يهوديةً صليبيةً شرسةً ضدَّ إسلامِنا، ومع ذلك فإنَّ إسلامَنا ظاهرٌ غالبٌ بفضلِ الله، ونورُه منتشرٌ في مختلفِ البقاع، ولا يقفُ أمامَ منطقِه المقنعِ أيُّ دينٍ أو مذهب، ويفتحُ اللهُ له قلوبَ كثيرين من الباحثين والمفكّرين، في الشرقِ والغرب.

وإننا نوقنُ أنَّ المستقبلَ إنما هو للإسلام، وسيزيدُه اللهُ إظهاراً دعويّاً وإعلامياً، وسيكونُ هذا تمهيداً لإظهارِه الماديِّ القادم، حيث سيحكمُ الأرضَ كلَّها من جديد!.

المسلمون ينالون إحدى الحسنيين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

هذه الآيةُ في سياقِ آياتٍ تتحدَّثُ عن المواجهةِ بين المسلمين والكافرين، من المشركين واليهود والمنافقين، تُعلِّمُ المسلمينَ كيف يتحدَّوْنَ الأعداءَ ويواجهونهم، ويَصمدونَ أمامَهم، ويَثبتونَ على الحقّ.

يشنُّ الأعداءُ حربَهم الطاحنةَ على المسلمين بهدفِ قتالِهم وقتْلِهم والتخلصِ منهم، ولكنَّ المسلمين لا يخافونَ منهم، ولا من حربهم، لأنَّهم يؤمنون بالقَدَر، ويوقنونَ أنّه لا يقعُ بهم إلاّ ما قدَّرَه الله لهم أو عليهم، وأنَّ ما قدَّرَه اللهُ واقعٌ لا محالة، ولذلك يرضونَ به، ويشكرونَ اللهَ عليه إنْ كان خيراً، ويصبرونَ عليه إنْ كان شرّاً، ويصارحونَ الكفارَ بهذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

بهذا الإيمانِ واليقينِ يواجهُ المؤمنونَ مؤامراتِ الكفارِ ضدَّ الإسلام، وتخطيطهم للقضاءِ عليه، ويأمرهم اللهُ أنْ يقولوا لهم: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾. والتربُّصُ هو الانتظارُ!.

أيْ: ماذا تنتظرونَ أنْ يُصيبَنا من مؤامرتِكم ومخططاتِكم وحروبِكم؟ إنكم قد تنجحونَ في إيذائِنا وقتلِنا، ولا تظنّوا أننا خسرنا بذلك، فنحن قد نلْنا الحسنى، وهي الشهادةُ في سبيلِ الله، لأنَّ الشهداءَ ليسوا أمواتاً، بل أحياءٌ عندَ ربّهم يُرْزَقون، والشهادةُ في سبيلِ اللهِ أقصى أمانينا، ومَن نالَها نالَ الخيرَ كلَّه، ولم يخسَرْ شيئاً، حتى لو فاتَتْه الدنيا كلُّها.

وإذا نحنُ غلَبْناكم وهزمْناكم وانتصرْنا عليكم، كنا نحن الفائزين، وكنتم أنتم الخاسرين، وهذه حسنى ننالُها، حسنى النصرِ والظفرِ والتمكينِ في الأرض.

فأنتم لا تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، حسنى النصر في الدنيا، أو حسنى الشهادةِ في سبيلِ الله، فأنتم أعداء، ولكن لا يصيبُنا منكم إلا الخيرُ بفضْلِ الله، لأنَّ اللهَ لا يريدُ بنا إلا الخير، حتى الضرّ والأذى خيرٌ لنا في النهاية.

ماذا ينتظر الكفار من المسلمين؟:

لكن ماذا نتربّصُ بكم؟ وماذا ينتظرُكم من السوءِ والشّرِّ والعذاب؟ : ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ .

إنكم كفار، والكفرُ شرّ وخرابٌ وهلاكٌ لأصحابه، وليسَ للكفارِ عند الله إلا العذابُ والعقابُ والهلاك! وإنّ سنّةَ اللهِ هي إهلاكُ الكافرين وتعذيبُهم.

نحنُ نتربّصُ بكم أَنْ يُصيبَكم اللهُ بعذابٍ من عندِه، إما بزلزالٍ أو بركانٍ، أو عاصفةٍ أو صاعقةٍ، أو طوفانٍ أو جدبٍ ومَحْلٍ، أو ذهابِ أموالٍ وتدميرِ مزروعات، أو ارتفاعِ الأسعارِ وتفشّي البطالة، أو انتشارِ الأمراضِ والهمومِ والآلامِ والأحزان، أو أيّ صورةٍ من صورِ العذابِ لا تخطرُ ببالكم.

وإمّا أن يعذبَكم اللهُ بأيدينا، بأَنْ يُقَدِّرَ نشوبَ الحربِ بيننا وبينكم، ويوقعَ فيكم القتلى والجرحى والدمارَ والهلاك، وينصرَنا عليكم!.

إنَّ المستقبلَ ليس لكم، لأنَّ الكفرَ لا يأْتيكم إلاّ بالشرّ والعذاب، وإنه ينتظركم مستقبلٌ مظلم، مليءٌ بالعذابِ والضّرّ!.

ويقولُ المؤمنون للكافرين: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ : أيْ: تربّصوا بنا إحدى الحسنيين، النصرَ أو الشهادة، فالمستقبلُ لنا، وفيه التمكينُ لإسلامِنا، ونحنُ معكم متربصون، ننتظرُ أنْ يأْخذَكم اللهُ بأحَدِ العذابين، إما عذابٌ من عنده، وإمّا عذابٌ بأيدينا.

تحدّي الكفار بأن المستقبل للمسلمين:

وهذا التحدّي للكافرين يدلُّ على أنَّ المستقبلَ المشرقَ للإسلامِ والمسلمين، والمستقبلَ الأسودَ المظلمَ للكافرين، كما يدلُّ على النظرةِ الآملةِ التي ينظرُها المؤمنون للمستقبل، وهي نظرةٌ مليئةٌ بالثقةِ واليقينِ والأمل، فهم يوقنون أنه لا مستقبلَ لأعدائِهم الكافرين، وإنما هو لهم، فهم مفلحون فائزون، رابحون كاسبون، لا ينتظرُهم عندَ اللهِ إلاّ الخير.

وتقدمُ الآيةُ وعداً حقاً للمسلمين، ووعيداً وتهديداً للكافرين.. وقد حقّقَ اللهُ وعْدَهُ للمسلمين السابقين، وأوقعَ عقابَه بأعدائِهم الكافرين.

ونحنُ ننظرُ إلى المستقبلِ بعينٍ متفائلة، ونثقُ بوعْدِ الله، ونوقنُ بتحققِه، ونراهنُ على المستقبل، ونجزمُ بأنه لنا بعونِ الله، ونتحدّى أعداءَنا الكافرين من اليهودِ والصليبيين، ونقولُ لهم ما أَمَرَنا اللهُ به: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

* * *

الفَصْل السَّادِس

الوعد القرآني في سورة الحجّ

هناكَ خلافٌ بين المفسّرين في سورةِ الحج، هل هي مكيةٌ أو مدنية، ورغمَ أنّه ذهبَ كثيرٌ منهم إلى أنها مكية، إلا أنّنا مع الذين يرونَ أنّها مدنية، لأنَّ عليها طابعَ السورِ المدنية.

وقد قطعتْ آياتُ السورةِ وعوداً قاطعةً بنصرِ المؤمنين، وهزيمةِ الكفار، واستمرارِ المواجهةِ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطل.

ولْننظرْ في هذه (الوحدةِ) المتكاملةِ، ونقفُ على ما فيها من وعْدٍ صادقٍ واقع، تحققَ في الماضي، ولا بدَّ أنْ يتحقّقَ في المستقبل.

الوعد القرآني بالنصر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٨ ـ ٤١].

تُخبرُ الآياتُ عن كونِ اللهِ مع المؤمنين، بفضْله وتوفيقه، لأنّهم عبادُه وأولياؤُه، وهو يدافعُ عنهم أمامَ أعدائِهم، وقد أذِنَ اللهُ لعبادِه المؤمنين بالجهاد، ووعدَهم بالنصر، وقد أخرجَهم الكفارُ من ديارِهم بغيرِ حقٍّ أو ذنبٍ أو جريمةٍ، وكلُّ ما فعلوهُ أنّهم أعلنوا إيمانَهم باللهِ وحْدَه.

وتُخبرُ الآياتُ عن استمرارِ الحربِ والخلافِ والتدافعِ بين الناس، وهذه سنّةُ الله، ولولا هذا التدافعُ لفسدتِ الأرض، وتحكَّمَ الكافرون في الأرض، وهَدَموا بيوتَ الله، التي يُذكَرُ فيه اسمُ اللهِ كثيراً.

وتَعِدُ الآيةُ بنصرِ الله، لكنَّه لا يكونُ إلاّ لمنْ نَصَرَ اللهَ، والذينَ يَنصرون اللهَ هم عبادُه الصادقون المجاهدون، الذين يحافظون على النصرِ والتمكين، بإقامةِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنهي عن المنكر.

إنَّ قولَه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ هو أوّلُ آيةٍ فيها الإذنُ للمؤمنين بالجهاد، لأنَّ المؤمنين في مكة كانوا مأمورين بكفِّ أيديهم والإمساكِ عن القتال، ولم يأْذَن اللهُ لهم بالجهادِ إلاّ بعدَ الهجرة، وهذه حجةٌ قويةٌ لمنْ يرونَ أنَّ سورةَ الحجِّ مدنية.

ويمكنُ أنْ نأخذَ من هذه الوحدةِ الحقائقَ والوعودَ القرآنية التالية:

١ ـ الله يدافع عن المؤمنين:

وعدَ اللهُ أن يُدافعَ عن عبادِه المؤمنين الصالحين، لأنّهم أولياؤُه وجندُه، وأعداؤُهم الكافرون يحاربونهم حرباً شرسةً بدونِ هوادة، واللهُ القويُّ لا يتخلّى عن أوليائه، ولا يُسْلِمُهم إلى أعدائِهم، ليتغلّبوا عليهم ويَفتكوا بهم.

ودفاعُ اللهِ عن المؤمنين ليس مقيّداً بصورةٍ معينة، وإنما له صورٌ عديدة، فقد يأخذُ هذا الدفاعُ صورةَ النصرِ العسكريّ، أو الظهور الدعويّ، أو انتصار دينهم بعدَ استشهادِهم أو وفاتِهم.

وهذا الوعدُ القرآنيُّ الصادق، يشملُ المؤمنين في كلِّ زمانٍ أو مكان، يواجهونَ فيه الكفار، وقد دافعَ اللهُ عن المؤمنين السابقين، وهو يدافعُ عن المؤمنين المعاصرين، حتى لو قامَ الكافرونَ بسجْنِ وتعذيبِ بعضِهم، أو قتلِ آخرين، فدينُهم الإسلاميُّ ظاهر، ودعوتُهم الإسلاميةُ مستمرة، وهذا حفظٌ من اللهِ لهم، ودفاعٌ من اللهِ عنهم!.

٢ ـ الإذن للمؤمنين المظلومين بالجهاد:

ظَلَمَ الكافرون المؤمنين، واضطهدوهم وفَتَنوهم، وعَذَّبوهم بسببِ إيمانِهم، وقاتَلوهم من أجلِ دينهم، وأذِنَ اللهُ لهؤلاء المؤمنين المظلومين المقاتَلين بقتالِ أعدائِهم الكافرين الظالمين، وذلك لردِّ عدوانِ المعتدين، ودفعِ الظلمِ عن المظلومين.

ولا يجوزُ للكافرين المعتدين في أيِّ زمانٍ ومكانٍ اتّهامُ المؤمنين بالاعتداءِ أو الإرهاب، إذا ردّوا على عدوانِهم، وعملوا على دفْع ظلْمِهم، لأنَّ الكفارَ هم الذين بدؤوا بالعدوانِ والحرب، ومعروفٌ أنَّ البادئَ أظلم! ولا يَتوقعُ المعتدونَ الكافرونَ أنْ يُواصِلوا عدوانَهم على المسلمين، وأن يُقابلَ المسلمونَ ذلك بالسكوتِ والاستخذاءِ والاستسلام!.

٣ـ وعد الله للمظلومين بالنصر:

وعَدَ اللهُ نصرَ عبادِه المظلومين، الذينَ أَذِنَ لهم بقتالِ أعدائِهم المعتدين، وعليهم الأخذُ بالأسبابِ، وتحقيقُ شروطِ النصر، والصدقُ في الاعتمادِ والتوكّلِ على الله، والاستبسالُ في قتالِ أعداءِ الله، وعليهم الثقةُ الكبيرةُ بوعْدِ الله، وانتظارُ نصْرِه! وهو وعدٌ صادقٌ متحققٌ، لا يتخلّف، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد!.

٤ ـ الكفارُ معتدون مجرمون:

الكفارُ معتدون على المؤمنين، صادَروا أموالَهم، وأَكَلوا حقوقَهم، وجَرَّدوهم من ممتلكاتِهم، وأخرجوهم من ديارِهم، ولا ذنبَ للمؤمنين إلاّ إيمانُهم بالله، وهل الإيمانُ باللهِ وحْدَه ذنبٌ وجريمة؛ يُعتبرُ المؤمنُ بسببِه مجرماً، وتُصادَرُ جميعُ ممتلكاتِه، ويُطرَدُ من بلادِه؟! أيُّ عدالةٍ في هذه الممارساتِ الجاهليةِ الكافرة؟!: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

وبمعنى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]. وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٧ـ٨].

وهذا موقفُ الكفارِ من المؤمنين الموحِّدين على اختلافِ الزمانِ والمكان، الكفارُ السابقونَ قبلَ رسولِ اللهِ ﷺ، والكفارُ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، والكفارُ اللاحقون، والكفار المعاصرون، الذين يدَّعونَ العدالةَ و(الديمقراطية) والإنسانية، والحرصَ على حريةِ الإنسانِ وحقوقِه!.

٥ ـ سنّة الله في التدافع بين الناس:

من سنّةِ اللهِ التي لا تتخلّفُ: التدافعُ بين الناسِ على الأرض، منذُ عهدِ آدمَ

عليه السلام وحتى قيامِ الساعة، فاللهُ خلقَ الناسَ مختلفين متنازعين متدافعين، تصطدمُ مصالحُهم وشهواتُهم ورغباتُهم، فيتَصارعونَ ويتنافَسون ويَتَقاتلون ويَتَدافعون. ولا يبقى شخصٌ مخلَّداً في المسؤولية، ولا تبقى فئةٌ حاكمةٌ أبداً، ولا تبقى أُمةٌ أو دولةٌ هي الأقوى! فالحاكمُ يجدُ مَنْ يدفعُه ليحلَّ محلَّه، والفئةُ تجدُ مَنْ تُنافسُها وتدفعُها، والدولةُ القويةُ تفاجَأُ بدولةٍ أُخرى صاعدةٍ، تحاربُها وتدفعُها وتهزمُها.

وبهذا التدافع بين الأشخاصِ والأحزابِ والأُمم والدولِ تَصلحُ الأرض، ولولا ذلك لهُدِّمَتْ صوامعُ الرهبانِ الخاصة، وبِيَعُ النصارى وكنائِسُهم العامَّة، وصلواتُ اليهودِ في كُنُسِهم، ومساجدُ المسلمين التي يذكرونَ فيها اسْمَ الله كثيراً: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾.

وبمعنى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

٦ ـ سنة الله في نصر المؤمنين:

السنةُ الربانيةُ المطردةُ أنَّ اللهَ ينصرُ مَنْ ينصرُه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾. والذينَ ينصرونَ اللهَ هم المؤمنون الصالحون الصادقون، الذين يَلتزمونَ بدينِ الله، ويُنفذون أحكامَه، ويَدْعونَ إليه، ويُواجهونَ أعداءَ الله، ويَصبرون على قتالِهم.

هؤلاء يَمُنُّ اللهُ عليهم بنصْرِه وتأْييدِه، ويُمكِّنُ لهم في الأرض، ويُذِلُّ أعداءَهم.

وهذا وعدٌ قاطعٌ من الله، تَحقَّقَ وانطبقَ على المؤمنين الذين التزموا بشرطِ النصر، فلما نصرَ المسلمون السابقون من الصحابةِ والتابعين اللهَ، أكرمَهم اللهُ بنصْرِه.. ولما أَخلَّ مسلمون معاصرون بشرط النصر، لم يأْتِهم نصْرُ الله، وهم السببُ في ذلك، أمّا وعْدُ اللهِ فإنّه لا يتخلَّف.

وبمعنى هذه الآية قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

٧ ـ شرط النصر والتمكين:

المؤمنون الصادقون يحافظون على تمكينِ اللهِ لهم في الأرض، وشرطُ المحافظةِ على التمكينِ الالتزامُ بالإسلام، وتطبيقُ أحكامِه: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾.

إنَّ تمكينَ المؤمنين في الأرضِ لا يكونُ إلاّ من الله، فاللهُ هو مالكُ المُلك، يُؤْتي المُلكَ مَن يشاء، ويَنزعُ الملك ممنْ يشاء، ويُعزُّ مَنْ يشاء، ويُذِلُّ مَنْ يشاء، بيدِهِ الخير، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

والمؤمنونَ يشكرونَ اللهَ على إنعامِه عليهم بالتمكين، فيقيمونَ الصلاةَ، ويُؤْتونَ الزكاةَ، ويأْمُرونَ بالمعروفِ، وينهَونَ عن المنكرِ. وهذا الالتزامُ الصادقُ بأحكامِ الإسلام شرطٌ لاستمرارِ التمكين. فإنْ لم يُنَفِّذ المسلمونَ هذا الشرطَ لم يتحقّقْ لهم التمكين.

وهذا وعْدٌ آخر لعبادِه المؤمنين بالتمكين لهم في الأرض، وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه، وكانتْ بدايةُ ذلك دولة الإسلام في المدينة، التي جعلها اللهُ دارَ إسلامٍ وإيمان، ولما حقّقَ المسلمونَ السابقونَ شرطَ التمكينِ، فتحَ اللهُ لهم البلاد، زمنَ الخلفاءِ الراشدين.

٨ ـ لله عاقبةُ الأمور:

تقررُ الآياتُ حقيقةً إيمانيةً قاطعة، هي أنَّ اللهَ هو الذي يُقدِّرُ الأُمورَ، ويُسَيِّرُها بحكمتِه سبحانه، فينصُرُ مَنْ يشاء، ويَهزمُ مَنْ يشاء، وعاقبةُ الأُمورِ والأحداثِ والأشياءِ إنما هي لله: ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾.

اللهُ هو الذي يرتِّبُ الأحداث، ويجعلُ التدافعَ بين الأشخاصِ والأقوام والأُمم والدول، فيقوِّي شخصاً، ويُضعفُ آخر، ويعزلُ حاكماً، ويُنَصِّبُ مكانَه آخر، ويَهزمُ جيشاً، وينصرُ آخر، ويُزيلُ سلطانَ أُمة، ويُقيمُ مكانَها أُمَّةً أُخرى.. ولا شيءَ في هذا الكونِ يحدثُ مصادفة، إنما هو بقدرٍ من الله.

وبما أنَّ عاقبةَ الأُمورِ تكونُ لله، فـإنَّ اللهَ الحكيمَ جعلَ العاقبةَ لعبـاده المؤمنين المتقين، فهم قد يُعَذَّبون ويُؤْذَوْن، وقد يُصابونَ ويُقْتَلون، وقد يتسلَّطُ عليهم أعداؤُهم فترةً من الزمن، وقد يمرُّون بمرحلةِ الاستضعاف، لكنَّ هذا إلى حين، ولا بدَّ أنْ يعقُبَه النصرُ والتمكين.

ومهما كانتْ دولةٌ كافرةٌ قوية، فإنَّها قوةٌ موقوتة، ولا بدَّ أنْ يعقبَها زوالُ سلطانِ ونفوذِ تلك الدولة، لأنَّ عاقبةَ الأُمورِ لله، واللهُ جعلَ العاقبةَ والنهايةَ لعبادِه المتقين.

الكافرون خاسرون، وقوتُهم إلى زوال، وقد دمَّرَ اللهُ الكافرين السابقين، وأبقى آثارَهم عبرة، ودعا الكفارَ اللاحقين للاعتبارِ بها.

تحقّق وعود السورة:

ونشيرُ في ختامِ كلامِنا عن هذه (الوحدةِ القرآنيةِ) الواعدةِ في سورةِ الحج، إلى تحقُّقِ ما فيها من وعودٍ ربّانيةٍ قاطعةٍ للمسلمين السابقين، حيثُ دافعَ اللهُ عنهم، وأَذِنَ لهم بقتالِ أعدائهم، الذين ظلموا وأكلوا حقوقَهم، ومَكَّنَ لهم في الأرض، وجعلَ العاقبةَ لهم.

وقد ذَكَرَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ الآياتِ كلامَ الخليفةِ الراشدِ عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: «فينا نزلَ قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فأُخرجْنا من ديارِنـا بغيرِ حقّ، إلاّ أنْ قُلْنا: ربُّنا الله، ثم كُنّا في الأرض، فأَقَمْنا الصلاةَ، وآتَيْنا الزكـاة، وأَمَرْنا بالمعروف، ونَهَيْنا عن المنكر، ولله عاقبـةُ الأُمـور، فهي لـي ولأصحابي» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٣١].

وهي تشملُ كلَّ مسلمين صادقين مجاهدين، يجعلُ اللهُ العاقبةَ لهم، وينتظرُ المسلمون المعاصرون تحقُّقَ الوعدِ الصادق، كما تحقّقَ للمسلمين الصادقين السابقين.

* * *

الفصل السابع

الوعد القرآني في سورة النور

في سورةِ النورِ وعدٌ صادق، وهو من أشهرِ الوعودِ القاطعةِ في القرآن.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٥ـ٥٧].

كلام ابن كثير عن تحقق الوعد:

وخيرُ مَنْ تكلَّم على الوعدِ القرآنيِّ في هذه الآياتِ، وتحقُّقِه في واقعِ المسلمين، الإمامُ الحافظُ ابنُ كثير. قالَ رحمَه الله: «هذا وعدٌ من اللهِ تعالى لرسولِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، بأنه سيجعلُ أُمتَه خلفاءَ الأرض، أَيْ: أئمةُ الناسِ والولاةُ عليهم، بهم تصلحُ البلاد، وتَخضعُ لهم العباد، وليُبدلنَّهم من بعدِ خوفِهم من الناسِ أمناً وحكْماً فيهم.

وقد فعلَه تعالى، وله الحمدُ والمنّة، فإنّه لم يَمُتْ ﷺ حتى فتحَ اللهُ عليه مكةَ وخيبرَ والبحرين، وسائرَ جزيرةِ العرب، وأرضَ اليمن بكمالِها، وأخذَ الجزيةَ من مجوسِ هُجَر، ومن بعضِ أطرافِ الشام، وهاداه هرقلُ ملكُ الروم، وصاحبُ مصرَ وإسكندرية المقوقس، وملوكُ عُمان، والنجاشيُّ ملكُ الحبشة، الذي تملَّكَ بعدَ أَصْحَمَة، رحمه الله وأكرمَه.

ثم لما مات رسولُ اللهِ ﷺ، واختارَ اللهُ له ما عندَه من الكرامة، قامَ بالأمرِ بعدَه خليفتُه أبو بكر الصديق، فلَمَّ شَعْثَ ما وهى بعدَ موتِه ﷺ، وأخذَ جزيرةَ العربِ ومهَّدَها. وبعثَ جيوشَ الإسلامِ إلى بلادِ فارس، صحبةَ خالدِ بنِ الوليد

رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقَتَلوا خَلْقاً من أَهْلِها.. وجيشاً آخرَ صحبةَ أبي عبيدة رضي الله عنه، ومن اتَّبَعه من الأُمراء إلى أرضِ الشام.. وثالثاً صحبةَ عمرِو بنِ العاص رضي الله عنه إلى مصر.. ففتحَ اللهُ للجيشِ الشاميّ في أيّامِه بُصرى ودمشق ومخاليفهما من بلادِ حوران وما والاها، وتوفّاهُ اللهُ عزَّ وجل، واختارَ له ما عنده من الكرامة.

ومَنَّ على أهلِ الإسلامِ بأنْ ألهمَ الصّدّيقَ أن يستخلفَ عمرَ الفاروق، فقامَ بالأمرِ بعدَه قياماً تاماً، لم يَدُرِ الفُلْكُ بعدَ الأنبياءِ على مثْلِه في قوةِ سيرتِه وكمالِ عدلِه. وتمَّ في أيامِه فتحُ البلادِ الشاميةِ بكمالِها، وديارِ مصرَ إلى آخرِها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَرَ اللهُ كسرى، وأهانَه غايةَ الهوان، وقَصَّرَ قيصر، وانتزعَ يدَه عن بلادِ الشام، وانحدرَ إلى القسطنطينية، وأنفقَ أموالَهما في سبيلِ الله، كما أخبرَ بذلك ووعدَ به رسولُ الله، عليهِ من ربِّهِ أتمُّ سلامٍ وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولـةُ العثمانيـةُ؛ امتدَّت الممالكُ الإسلاميةُ إلى أقصى مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، ففُتِحتْ بلادُ المغرب، إلى أقصى ما هنالك، الأندلسُ وقبرص، وبلادُ القيروان، وبلادُ سَبْتَة، مما يَلي البحرَ المحيط.. ومن ناحيـةِ الشرقِ إلى أقصى بلادِ الصين، وقُتِلَ كسرى، وبادَ ملكُه بالكلية، وفُتحتْ مدائنُ العراقِ وخراسان والأهواز، وقتَلَ المسلمونَ من التركِ مقتلةً عظيمةً جداً، وخَذَلَ اللهُ مَلِكَهم الأعظم خاقان. وجُنيَ الخراجُ من المشارقِ والمغاربِ إلى حضرةِ أميرِ المؤمنين عثمانَ بن عفان، رضي الله عنه، وذلك ببركةِ تلاوتِه ودراستِه، وجمعِهِ الأُمةَ على حفظِ القرآن.

ولهذا ثبتَ في الصحيحِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ زوى لي الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وسيبلغُ ملكُ أُمَّتي ما زُوِيَ لي منها».

وها نحنُ نتقلّب فيما وعدَنا اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه.. ونسألُ اللهَ الإيمانَ به وبرسـولِه، والقيامَ بشكرِه على الوجهِ الذي يُرضيه عنّا» [تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٠٤ـ٣٠٥].

استمرار تحقق الوعد القرآني:

لقد ووجهَ المسلمونَ بهجماتٍ شرسةٍ من قِبَلِ الأعداء، منذُ عهدِ الصحابةِ حتى وفاةِ الحافظِ ابنِ كثير في نهايةِ القرن الثامن [توفي سنة ٧٧٤هـ]، من الفرسِ

والـروم، ثم من الصليبيين، وبعدَ ذلك من المغول . . وتغلَّبوا على الأعـداء، واجتازوا تلك الأخطارَ بإذْنِ الله، ولم يُحقق الأعداءُ أهدافَهم منهم، وحقَّقَ اللهُ لهم ما وعدَهم سبحانه.

ومضَتْ ستةُ قرون، منذُ قولِ ابنِ كثير كلامَه السابق، وُوجهَ فيها المسلمون بهجماتٍ شرسة، لكنَّ الأعداءَ لم يُحققوا أهدافَهم.

ويـواجـهُ المسلمـونَ فـي هـذه الأيـامِ عـدوانـاً همجيـاً، يقـودُه اليهـودُ والأمريكان، ويستهدفون دينَ المسلمين وأوطانَهم، وثرواتِهم وأموالَهم، وأخلاقَهم وأعراضَهم. . وقد حقّقَ الأعداءُ بعضَ المكاسبِ والنتائج، واحتلّوا بعضَ الأقطارِ والبلدان، فاحتلَّ اليهودُ فلسطين، واحتلَّتْ أمريكـا أفغانسـتان والعراق، واحتلَّ الروسُ الشيشان، واحتلّ الهنود كشمير.

ولكنَّ هؤلاء الأعداءَ لم ينجحوا في القضاءِ على الإسـلام، رغمَ عنفِ حربِهم له، كما أنّهم لم ينجحوا في القضاءِ على دعاةِ الإسلام ورجالِه وجنودِه، رغمَ عنفِ مواجهتِهم لهم.

إننا نعيشُ في هذا الزمان صوراً ونماذجَ من تحقُّقِ الوعدِ القرآني، في هذه الآيات. وسيعيشُ المسلمونَ القادمون صوراً ونماذجَ أُخرى، وسيبقى الوعدُ القرآنيُ الصادقُ قائماً، حتى قيامِ الساعة، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد!.

ولنلقِ نظرةً على حقائق ومعاني هذه الآيات:

الوعد لمن آمنوا وعملوا الصالحات:

قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الوعدُ صادرٌ من عندِ اللهِ للمؤمنين، وبما أنَّه وعدٌ من الله، فهو حقٌّ وصدق، لأنَّ اللهَ منجزٌ وعْدَه، ولا بدَّ أَنْ ننظرَ إلى وعودِ اللهِ بهذا المنظارِ الإيماني.

ووعْـدُ اللهِ مـوجَّـهٌ للـذيـن آمنـوا وعملـوا الصـالحـات، وهـذا تخصيصٌ للموعودين، فالموعودون ليسوا المسلمين على العموم، لأنَّ هناكَ مسلمون لا يلتزمونَ بالإسلامِ التزاماً صادقاً، وبعضُهم ليس لهم من الإسلامِ إلاّ اسمُه، وهؤلاء ليسوا موعودين بهذا الوعد!.

الموعودون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات: فالإيمانُ تصديقٌ وثقة، ويقينٌ وطمأنينة، والعملُ الصالحُ ثمرةٌ ونتيجةٌ للإيمان، لأنَّ الإيمانَ إذا استقرَّ في القلبِ، فإنّه يُسارعُ إلى إثباتِ نفسِه في الخارجِ، في صورةِ عملٍ صالح، أيْ أنَّ هذا الإيمانَ يؤثِّرُ في المؤمن، ويُنظِّمُ له حياتَه، ويوجِّهُ له تصرّفاتِه وأعمالَه، ويُطالبُه أنْ يكونَ كلُّ ما يصدرُ عنه من أقوالٍ وأعمالٍ، متوافقاً مع توجيهاتِ الإيمانِ وحقائقه!.

والعملُ الصالحُ هو العملُ الطيب، المتوافقُ مع شرعِ الله، والملتزمُ بما جاءَ به رسولُ الله ﷺ، والذي يتوجَّهُ به المؤمن إلى الله، مخلصاً له.

و﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ جمعُ مؤنث، وهذا الجمعُ يدلُّ على كثرةِ أصنافِ وأنواعِ ومظاهرِ هذه الأعمال وتنوُّعِها.. بحيثُ تشملُ كلَّ نشاطٍ يصدرُ عن المسلم الصالح، وكلَّ مجالٍ صالح في حياة المسلمين!.

الوعد باستخلاف المؤمنين في الأرض:

قوله تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

وعدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثلاثةَ أشياء: أنْ يستخلفَهم في الأرض، وأنْ يمكِّنَ لهم دينَهم، وأنْ يُبدِّلَهم بعدَ الخوفِ أَمْناً.

تخبرُ هذه الجملةُ من الآيةِ عن الوعْدِ الأول، فاللهُ سيستخلفُ المؤمنين الصالحين في الأرض، كما استخلفَ المؤمنين الذين من قبلِهم.

وقد أُكِّدَ فعْلُ ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ بمؤكِّدَيْن: لامُ القسم، ونونُ التوكيدِ الثقيلة، وذلك لتأكيد هذه الحقيقةِ وتقريرِها، ليزدادَ يقينُ المؤمنين بها.

وقد شاءَ اللهُ أَنْ يستخلفَ الإنسانَ في الأرض، وأنْ يجعلَ الأجيالَ خلائفَ. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَـٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَـٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والاستخلافُ في الأرضِ إنما هو لعبادِ اللهِ الصالحين، لأنَّ الاستخلافَ قائمٌ على تعميرِ الأرض وإصلاحِها، ونشْرِ الخيرِ فيها، وإحسانِ استخراجِ كنوزِها وبركاتِها، وهذا لن يتحقّقَ إلاّ بالإيمانِ والعملِ الصالح، والسيرِ في الأرضِ على أساسِ شرعِ اللهِ ومنهاجِه.

وقد استخلفَ اللهُ المؤمنين السابقين، أَتْباعَ الأنبياءِ والرسل، ولذلك بَشَّرَ موسى عليه السلام بني إسرائيل بالاستخلاف. قال تعالى: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ووعدَ اللهُ المسلمين أنْ يستخلِفَهم في الأرض، كما استخلفَ المؤمنين الذين من قبلِهم فيها. فأَتْباعُ النبيِّ نوحٍ عليه السلام كانوا خلفاء، وأَتْباعُ النبيِّ هودٍ عليه السلام كانوا خلفاء، ومؤمنو بني إسرائيل كانوا خلفاء، والمؤمنون أَتْباعُ عيسى عليه السلام كانوا خلفاء، وخُتمت الخلافةُ بهذه الأُمةِ المهتديةِ، الشاهدةِ على الأُمم، وستبقى الخلافةُ بهذه الأُمةِ حتى قيامِ الساعةِ، لأنَّ اللهَ خصَّها بالمنهجِ الصحيح.

والخلفاءُ متتابعونَ في هذه الأُمـةِ، على طولِ تاريخِها، منـذ الخلفاءِ الراشدين رضوانُ اللهِ عليهم إلى أيامِنا، وأصبحتْ أفضلُ بقاعِ الأرضِ بلاداً لهذه الأُمةِ من الفلبين وأندونيسية في أقصى المشرق، إلى المحيطِ الأطلسيِّ في أقصى المغرب، ومن أواسطِ روسية في الشمالِ إلى أواسط إفريقية في الجنوب.. وأصبحَتْ هذه البلادُ أرضاً إسلامية، استقرَّ بها الإسلامُ، وأشرقَ منها نورُ الإيمان.

وستبقى هذه البلادُ أرضاً إسلامية حتى قيامِ الساعة، لأنَّ اللهَ الحكيمَ وَعَدَ بذلك، ووَعْدُه حقٌّ وصدْق.

الوعد بالتمكين للدين:

قوله تعالى: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾.

هذا هو الوعدُ الثاني للمؤمنين الصالحين، وهو مبنيٌّ على الوعْدِ الأوَّل باستخلافِهم في الأرض. وقد أُكِّدَ هذا الوعدُ أيضاً بالمؤكِّدَيْن السابقَيْن: لامِ القَسَمِ، ونونِ التوكيدِ الثقيلة.

الإسلامُ هو الدينُ الذي ارتضاهُ اللهُ لهذه الأُمة. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

والتمكينُ للإسلام بإظهارِه واستقرارِه، ونشْرِ أنوارِه، وقد ثَبَّتَ اللهُ الإسلامَ في الأرض، وعَجَزَ الكافرون عن القضاءِ عليه، رغم استمرارِ محاولاتِهم، واختلافِ وتنوُّعِ أسلحتِهم، عَجَزَ العربُ المشركون عن ذلك قبلَ الهجرة، وعَجَزَ اليهودُ والمنافقون عن ذلك بعدَ الهجرة، وعَجَزَ الفُرسُ والرومُ عن ذلك في عهدِ الخلفاءِ الراشدين، وعجزَ الصليبيونَ والتتارُ والهندوس من بعدِهم، وسيعجزُ التحالفُ الصليبيُّ اليهوديُّ المعاصرُ عن ذلك، وسيعجزُ الكفارُ القادمون في القرونِ القادمةِ عن ذلك، وسيبقى جميعُ الكفارِ عاجزين حتى قيامِ الساعة.

مكَّنَ اللهُ الإسلامَ في الأرض، وصارَ كالشجرةِ الطيبةِ القويةِ الثابتة، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

الوعد بالأمن بعد الخوف:

قوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾:

هذا هو وعدُ اللهِ الثالثُ لعبادِه المؤمنين، بأَنْ يُزيلَ عنهم حالةَ الخوفِ التي كانوا يعيشونَها، وأَنْ يُحِلَّ محلَّها الأمن.

وقد أَكَّدَ اللهُ هذا الوعد بالمؤكِّدَيْن السابقَيْن: لامِ القَسَمِ، ونونِ التوكيدِ الثقيلة، ليزدادَ يقينُ المؤمنين بتحقق هذا الوعد.

لقد كان المسلمون مستضعفين في مكة، وكان المشركونَ يَضطهدونَهم ويُعذّبونهم، ومع أنَّ المؤمنينَ ثَبَتوا على دينِهم، وصَبَروا على الشدائدِ والمحَن، إلاَّ أنّهم كانوا يَخافونَ على أنفسِهم وأهلِيهم، لأنَّهم كانوا يعيشونَ وسطَ الخطر، وهذا الخوفُ خوفٌ فطريٌّ طبيعي، يَحصلُ لكلِّ إنسانٍ، إذا أقدمَ على أمرٍ عظيم، أو وُجِه بالخطر، وهو ليس خوفاً نفسياً، يقومُ على الجبن، ويقعدُ بصاحبِه عن الواجب!.

ولما هاجروا إلى المدينة، وأقاموا دولةَ الإسلام فيها، هاجمَهم الأعداءُ جميعاً، من المشركين واليهود والمنافقين، وكانوا مستَنْفرين دائماً، يَخافونَ هجومَ الأعداء، ويتوقَّعونَ الخَطَر، ويَنامونَ ويستيقظونَ وأيديهم على السلاح.

ففي غـزوةِ الأحزابِ مثـلاً، فوجئوا بهجوم أحـزابِ الكفرِ عليهم، من المشركين واليهود، حيثُ جاؤوهم من فوقِهم ومن أسفلَ منهم، فخافوا وزُلزلوا. وقال اللهُ عن خوفِهم: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

ولكنَّ خوفَهم كان لحظةً قصيرة، سرعانَ ما زالَ وحلَّتْ محلَّه الشجاعة، فثبَتوا في مواجهةِ أحزابِ الكفر.

وقالَ اللهُ عن ابتلائِهم بالخوف: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقـد أزالَ اللهُ كلَّ مظاهرِ الخـوفِ وأَحَلَّ محلَّـه الأمن، بعدمـا قويَ أَمْـرُ المسلمين، ونصرهم اللهُ على أعدائِهم الكافرين، وفُتحَتْ مكةُ قلعةُ الكفر، في السنةِ الثامنة، وانتشرَ الإسلامُ في جزيرةِ العرب، ودخلَ الناسُ فيه أفواجاً.

وبذلك حقّقَ اللهُ للمؤمنين هذا الوعدَ الصادق، وامتنَّ عليهم بهذه المنّة. قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وإذا كان المسلمون في هذا الزمان يخافون، بسببِ هجمةِ الأعداءِ عليهم، فإنَّ هذا نتيجةٌ لبُعدِهم عن الإسلام، وسوفَ يُزيلُ اللهُ عنهم هذا الخوفَ في المستقبل، ويُحِلُّ محلَّه الأمن، عندما يَصْدُقون في العودةِ إلى الإسلام، وتطبيقِ شرعِ الله.

شرط تحقق الوعود الثلاثة:

قوله تعالى: ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾.

هذا شرطٌ آخرُ لتحقيقِ وعودِ اللهِ الثلاثة: الاستخلافُ في الأرض، وتمكينُ الدين، وتبديلُهم أَمْناً بعدَ الخوف. يُضافُ للشرطِ الأول: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

ومعناهُ أنَّ هؤلاء المؤمنين يَعبدونَ اللهَ وحْدَه، في كلِّ صورِ العبادةِ، وأنّهم

يُوَحِّدونَ اللهَ، ولا يَعبدونَ غيرَه، ولا يُشركونَ به غيرَه، ومن أهمِّ مظاهرِ عبادةِ الله الخضوعُ المُطلَقُ له، وتلقّي الأوامرِ والتشريعاتِ منه، وعدمُ تلقّيها من غيرِه، فالعبادةُ في روحِها تعني إفرادَ اللهِ بالشعائرِ التعبّدية، وبالشرائعِ القانونية، وكافةِ الأحكامِ الشرعية.

فإذا لم يكُنْ خضوعُ المؤمنين مُطلَقاً لله، وإذا لم يوجِّهوا كلَّ عباداتِهم لله، وإذا كانتْ بعضُ مظاهرِ ومجالاتِ حياتِهم غيرَ خاضعةٍ لله، لم يَنالوا هذا الوعْد، لأنّهم هم الذين أخلّوا بالشَّرط.

ومسلمو هذا الزمان لم تتحقّقْ في حياتِهم هذه الوعودُ الثلاثة - الاستخلافُ في الأرض، وتمكين الدين، وتبديلُهم الأمن بعد الخوف - على الصورةِ المُثلى التي تحققت عليها عند المسلمين السابقين.. وهم السببُ في ذلك، لأنّهم لم يُحَقِّقوا الشرطَ في قوله: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾، فهم خاضِعون للهِ في جزءٍ صغيرٍ من حياتِهم، وهو الخاصُّ بالصلوات، وخاضعونَ لغيرِ الله، ويُطبّقونَ شرْعَ غيرِ اللهِ في معظمِ جوانبِ حياتِهم!.

وسـوفَ تأتي أجيالٌ قادمـةٌ تُحقّقُ شرطَ الاستخلاف، وتَصدقُ مع اللهِ في إيمانِها وعملِها وعبادتِها وإخلاصِها، وعند ذلك يُحققُ اللهُ لها الوعد، فيستخلِفُها، ويمكِّنُ لها دينَها، ويُبَدِّلُها من بعدِ خوفِها أَمْناً.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

هذه أوامرُ ربّانيةٌ من اللهِ للمؤمنين، الموعودين بالاستخلافِ والتمكينِ والأمان، يُذَكِّرُهم اللهُ فيها بالأحكامِ الشرعيةِ المطلوبةِ منهم: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسولِ ﷺ.

وهذه الآيةُ تأكيدٌ آخرُ على أنَّ وعدَ اللهِ للمسلمين بالاستخلافِ والتمكين ليس مطلَقاً، وإنما هو مقيّدٌ ومشروط، وأنّه لن يتحقّق إلا للمسلمين الصالحين، المنفِّذين لأوامرِ اللهِ، ودليلُ ذلك أنّه تحقّقَ للمسلمين السابقين الملتزمين بشرعِ الله، وسيأْتي مسلمونَ قادمونَ صادقون ملتزمون، يَنالونَ موعودَ الله.

* * *

الفَصْلُ الثامِن

الوعد القرآني في سورة محمّد

سورةُ محمد ﷺ مدنية، ولها اسمٌ آخر هو: (سورةُ القتال)، وسُمّيت سورةَ محمد لذكرِ اسمِ محمدٍ ﷺ في الآية الثانيةِ منها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

وسُميتْ سورةَ القتال لذكْرِ هذه الكلمةِ فيها: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠].

وفي السورةِ آياتٌ عديدةٌ تتحدَّثُ عن حقائقَ إيمانية، في المواجهةِ بين المؤمنين والكافرين. من هذه الآيات:

المراد بأوزار الحرب:

أولاً: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

الأوزارُ: هي الأثقالُ والأحمال، وهي جمعُ (وِزْر)، وهو الحملُ الثقيل. والمعنى: حتى تنتهيَ الحرب.

وعُرضتْ هذه الحقيقةُ على أساسِ (التصوير القرآني)، الذي عَرَضَ به القرآنُ معظمَ موضوعاتِه، فلم تَقُل الآيـة: حتى تنتهيَ الحربُ بين المسلمين والكافرين، وإنما صَوَّرت الحربَ بصورةِ امرأةٍ تحملُ حملاً ثقيلاً، وهي مرهقةٌ متعبةٌ من ثِقَلِ الحِمْل. ونحنُ نراها بخيالِنا تترنَّحُ من ثِقَلِ الحِمْل.. ثم وصلت المحطةَ الأخيرةَ من سيْرِها، فوضعَتْ عنها حَمْلَها، واستراحَتْ.

والمرادُ بأوزارِ الحربِ أسلحتُها الكثيرةُ المختلفة، التي تُستخدمُ فيها، والحشودُ والاستعداداتُ لها، وتكاليفُها الماليةُ والبشرية، والماديةُ والمعنوية، ومايرافقُها من استنفار، وما ينتجُ عنها من نتائجَ ومصائبَ وإشكالاتٍ ومشكلات.

كلُّ هذه أوزارٌ وأحمالٌ وأَثْقال، يَدفعُها المتحاربونَ من أنفسِهم وأبنائِهم،

وأموالِهم وطاقاتِهم، وأوطانِهم وبلدانِهم، وحاضرِهم ومستقبلِهم.. وهذه الأوزارُ والتكاليفُ لا تتوقفُ إلاّ بوقفِ إطلاقِ النار، وانتهاءِ المعارك.

وهذه الجملةُ من الآيةِ ضمنَ توجيهِ المؤمنين إلى كيفيةِ التعاملِ مع الكافرين عند قتالِهم. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

قتال الكفار وأخذهم أسرى:

عندما تنشبُ الحربُ بين المسلمينَ والكفار، فيجبُ على المسلمين أنْ يحرصوا على قتلِ الكفارِ المحاربين، وضربِ رقابِهم، وتحطيمِ قوتِهم العسكرية، وإيقاعِ الجراحِ فيهم، فإنَّ ذلك يؤدّي إلى إضعافِهم وهزيمتِهم.. فإذا أثخنوا الكفارَ، وأكثروا في عددِ جرحاهم، وقضوا على مقاومتِهم، فعليهم أنْ يُقيِّدوا جنودَهم بالوثاق، ويأْخُذوهم أسرى.. والإمامُ مخيَّرٌ في هؤلاءِ الأسرى، فهو إمَّا أنْ يَمُنَّ على بعضِهم، إذا اقتضتْ مصلحةُ المسلمين ذلك، فيطلقَ سراحَهم بدون مقابل، وإمَّا أنْ يُفاديَ بعضَهم، بأَنْ يطلبَ منهم أو من دولِهم دفعَ مالٍ مقابلَ إطلاقِ سراحِهم.

ويبقى هذا الحكمُ القرآنيُّ في تعاملِ المسلمين مع الكفار المحاربين: القتلُ والجرحُ والأسْر، حتى تضعَ الحربُ أوزارَها، ويتوقّفَ إطلاقُ النارِ بين الفريقَيْن.

ويخبرُ اللهُ المسلمينَ أنه قادرٌ على الانتصارِ من الكفار بإهلاكِهم وتدميرِهم، لأنّه على كلِّ شيءٍ قدير. ويبينُ لهم حكمةَ أمرهم بقتالِ الكفار، إنَّه فعلَ ذلك ليبلوَ المسلمين بالكافرين، فالجهادُ امتحانٌ وابتلاءٌ لهم، وهم الذين يتربَّون على الجهاد، ويأخذونَ منه الدرسَ والدلالاتِ والفوائدَ والمكاسب، رغم ما فيه من تضحياتٍ ومشقّات.

والشهداءُ ليسوا خاسرين، عندما قدَّموا أراوحَهم خالصةً لله، وغادروا هذه الدنيا، فإنَّ اللهَ سيدخلُهم الجنةَ عرّفها لهم.

متى تضعُ الحربُ أوزارها؟:

ونعودُ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ لنتساءل: متى تضعُ الحربُ أوزارَها؟ وبعبارةٍ أُخرى: متى تنتهي الحربُ بين المسلمين والكافرين؟.

الراجحُ أنَّ الحربَ بين الفريقَيْن لن تضعَ أوزارَها، ولن تنتهي، إلا قبيلَ قيامِ الساعة، وذلك عندَ نزولِ عيسى ابنِ مريم عليه السلام، حيثُ يقضي على الكفارِ جميعاً، ولا يبقى في عهدِه على وجهِ الأرضِ إلاّ مؤمن!.

يجبُ أَنْ نفهمَ قولَه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ على ضوءِ الآياتِ الأُخرى التي تقرّرُ استمرارَ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، واستمرار حربِ الكفارِ للمؤمنين. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]. وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذا معناهُ استمرارُ المواجهةِ والحربِ بين المسلمين والكفار، تلك الحربُ التي بدأتْ بعد الهجرة، وبقيتْ مستمرةً طيلةَ القرونِ اللاحقة، وستبقى مستمرةً حتى قُبيلَ قيامِ الساعة.

واستمرارُ الحربِ بين المسلمين والكافرين حتى قيام الساعة، معناه استمرارُ وجودِ المسلمين وقوتِهم، رغمَ عنفِ الحربِ التي يشنُّها الكفارُ ضدّهم.

فهذا وعدٌ قرآنيٌّ صادقٌ باستمرارِ وجودِ وقوةِ المسلمين!.

استمرار الجهاد حتى قرب قيام الساعة:

ومن ما قاله الإمام الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «ومعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. قال مجاهد: حتى ينزلَ عيسى ابنُ مريم عليه السلام، وكأنه أخذَه من قولِه ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظاهِرين على الحق، حتى يقاتلَ آخرُهم الدجال..»».

وعن جُبَيْر بن نفير قال: إنَّ سلمةَ بنَ نفيل أخبرَهم أنه أتى رسولَ الله ﷺ، فقال: إنّي سَيَّبْتُ الخيلَ، وأَلْقَيْتُ السِّلاح، ووَضَعت الحربُ أوزارَها، وقلْتُ: لا قِتال!.

فقال له النبيُّ ﷺ: «الآنَ جاءَ القتال، لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهِرين على الناس، يُزيغُ اللهُ تعالى قلوبَ أقوام، فيقاتلونَهم، ويرزقُهم اللهُ منهم، حتى يأْتيَ أَمْرُ اللهِ وهم على ذلك، ألا إنَّ عقْدَ دارِ المؤمنين بالشام، والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة».

وعن النوّاسِ بنِ سمعان رضي الله عنه قال: لما فُتِحَ على رسولِ الله ﷺ فَتْح، قالوا: يا رسولَ الله! سُيِّبَتِ الخيل، ووُضِعَ السِّلاحُ، ووضعتِ الحربُ أوزارَها، وقالوا: لا قتال!.

فقالَ ﷺ: «كَذَبوا! الآنَ جاءَ القتالُ، لا يزالُ اللهُ تعالى يُزيغُ قُلوبَ أقوامٍ يقاتلونهم، فيرزُقُهم منهم، حتى يأْتيَ أَمْرُ اللهِ وهم على ذلك، وعَقْدُ دار المسلمين بالشام. . . ».

وقالَ قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾: حتى لا يَبقى شِرْك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]».

إذنْ: الحربُ مستمرةٌ بين المسلمين والكافرين، ولن تضعَ أوزارَها إلاّ عند قيامِ الساعة، وهذه بشرى للمسلمين، باستمرارِ قوتِهم، التي يُحاربون بها الكفار!

سنة الله المطردة في تدمير الكافرين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٠ ـ ١١].

تُنكرُ الآياتُ على الكافرين المحاربينَ لرسولِ الله ﷺ عدمَ اعتبارِهم بما جَرى للكافرين السابقين من عقابٍ ودَمار، وتَدْعوهم إلى السيرِ في الأرض، وملاحظةِ آثارِ المعذَّبين السابقين، والوقوفِ على أَطلالِهم، ومعرفةِ كيفَ كانتْ عاقبتُهم، وكيفَ كانتْ نهايةُ حربِهم لرسلِهم.

وقد لَخَّصَت الآياتُ ما جرى للسابقينَ بجملةٍ واحدة، هي: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾.

أجرى اللهُ على السابقين سنّتَه التي لا تتخلّف، حيثُ أنجى الرسلَ السابقينَ

برحمتِه، وأوقعَ بأعدائِهم عِقابَه، ودَمَّرَ عليهم بيوتَهم.

ويَنتظرُ كفارُ قريشٍ أن يقع بهم ما وقعَ بالكفارِ السابقين، إن استمروا على تكذيبِهم وحربِهم لرسولِ الله ﷺ، لأنَّ سنَّةَ اللهِ لا تتخلَّف.

وجاءَ تهديدُهم صريحاً في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾. والمرادُ بالكافرين هنا: الكفارُ الذين كذَّبوا رسولَ الله ﷺ وكَفَروا به، من قريشٍ واليهودِ وغيرِهم.

أي: يَنتظرُ الذين كفروا بالرسولِ الخاتمِ محمدٍ ﷺ مثْلَ ما وقعَ بالكفار الذين من قبلِهم.

وقد قضى اللهُ على الذين كفروا بالرسولِ ﷺ، ونصرَ رسولَه ودينَه.

ويدخلُ ضمن جملة: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾: الكافرونَ الآتونَ من بُعْد، في التاريخ الإسلامي، الذين حاربوا الإسلامَ والمسلمين، حيث ينتظرون مثل ما وقع بالكفار السابقين من دمارٍ وهلاكٍ وهزيمة، وسيخرجُ الإسلامُ من كلِّ حربٍ يشنّونَها عليه منتصراً، متمكّناً في الأرض.

وقد سجَّلَ التاريخُ الإسلاميُّ أمثلةً ونماذجَ عديدةً، لكافرينَ حاولوا القضاءَ على الإسلام والمسلمين، فكانت عاقبتُهم الخزيَ والخسارةَ والهزيمة.

وإننا نوقنُ أنَّ الهجمةَ الشرسةَ المعاصرة، التي تشنُّها قوى الكفرِ اليهودية والصليبية، ستنتهي إلى ما انتهتْ إليه هجماتُ الكفارِ السابقين، لأنَّ عاقبةَ كلِّ مَنْ حاربَ هذا الدينَ هي الهزيمةُ والخزيُ والخسرانُ! فهذه سنَّةُ الله!.

لماذا المؤمنون منصورون؟ ولماذا الكافرون مهزومون؟.

الجوابُ في الآيةِ التالية، وهي قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ قاطعةٌ، تُعللُ سِرَّ نجاحِ المؤمنين، وخذلانِ الكافرين، وتحقُّقِ كلِّ الوعودِ التي وعدَها اللهُ المؤمنين.

المؤمنون منصورون فالحون فائزون، لأنَّ اللهَ مولاهم، يحفظُهم ويَرعاهم، ويتولَّى أمورَهم، ويمنُّ عليهم بنصرِه وتأييده.

والكافرون خاسرون مهزومون، لأنَّه لا مولى لهم يَنْصُرهم ويَحميهم.

ومَنْ لم يكن اللهُ معه فهو الخاسرُ المهزوم، لا محالة. هذه سنّةُ اللهِ التي يَعيها المؤمنون، ويتعاملون معها، ويثقون بها.

الله مع المؤمنين الصادقين بالنصر:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

تقدمُ هذه الآيةُ وعْداً ربانياً آخَرَ للمؤمنين، بأنه سبحانَه معهم، فلا يَهِنون ولا يَضْعُفون، ولا يُفارقُهم شعورٌ بأنهم الأَعْلَون.

إنَّ يقينَ المسلمين بأنهم الأعْلَون، المتميّزونَ على غيرِهم من الأُمم، يجعلُهم أقوياءَ أمامَهم، يتعامَلونَ معهم على أساسِ أنهم الأَعلى والأَعَزُّ والأَكرَمُ والأَفْضلُ والأَقوى، لأنَّ اللهَ معهم بتوفيقِه وتأييدِه.

اللهُ مع المؤمنين، وهو مولاهم، ولهذا ينصرُهم، والكافرونَ أَذَلّون مهزومون، لأنَّ اللهَ ليس معهم، ومَنْ لم يكنِ اللهُ معه فلا أَحَدَ معه.

ومعنى قوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾: اللهُ لن يُنْقِصَ المؤمنين نتائجَ أعمالِهم الصالحة، ولن يَفْجَعَهم في أعمالِهم، ولَنْ يُضَيِّعَها لهم، لأنَّ أعمالَهم مرتبطةٌ بالإيمان.

وهم يتوجَّهون بها إلى الله، واللهُ يتقبَّلُها منهم، ويحفظُها لهم، ويأْجُرهم عليها!.

وإذا كان المؤمنون في حفْظِ اللهِ ورعايتِه، فكيف يهنونَ ويَذِلُّون أمامَ الكفارِ الضائعين، الذين لا يَجدون وليّاً ولا نصيراً؟ وكيف يشعرُ المؤمنون بالضعفِ أمامَ هؤلاء الكفار؟ وكيف يستسلمون أمامَ الكفار؟.

إنّ قولَه: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وعدٌ قرآنيٌّ صادقٌ، بأنّه مع المؤمنين الصادقين، ويستمدّون القوةَ من حفظِه وتأييدِه، وهذا تحققَ للمؤمنين السابقين، ويتحقّقُ دائماً للمؤمنين الصادقين، في كلِّ زمانٍ ومكان.

* * *

الفصل التاسع

الوعد القرآني في سورة الفتح

سورةُ الفتحِ مدنية، نزلتْ في أعقابِ صلحِ الحديبية، الذي عقدَه رسولُ الله ﷺ مع قريش، في شهرِ ذي القعدةِ من السنةِ السادسةِ للهجرة، بعدَ أنْ حالَتْ بينه وبينَ أداءِ العمرة، هو وأصحابُه، على أنْ يعودَ في العامِ التالي لأداء العمرة.

وقد اعترضَ كثيرٌ من الصحابةِ على بنودِ الصلح، واعتبروها مجحفةً بحقّ المسلمين، فأنزلَ اللهُ سورةَ الفتح، بينما كان الرسولُ ﷺ عائداً بأصحابِه من الحديبية إلى المدينة، وأزالَ فيها ما علقَ في نفوسِ الصحابةِ من نظرةٍ سلبيةٍ للصلح، واعتبرَهُ فتحاً مبيناً، وَوَعَدَ المسلمين وعوداً صادقةً بانتصارِهم، وهزيمة أعدائهم، والتمكينِ لدينِهم.

صلح الحديبية فتحٌ مبين:

اعتبرت الآيةُ الأُولى من السورةِ صلحَ الحديبيةِ فتحاً مبيناً. قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١].

والمرادُ بالفتح المبين في هذه الآية صلحُ الحديبية، ووردَتْ أقوالٌ عن الصحابةِ في ذلك.

روى البخاري [برقم: ٤١٥٠] عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه قال: «تَعُدُّونَ أنتم الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتحُ مكةَ فتحاً، ونحنُ نَعُدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوانِ يومَ الحديبية...».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنكم تَعُدُّونَ الفتحَ فتحَ مكة، ونحنُ نَعُدُّ الفتحَ صلحَ الحديبية.

وقالَ جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: ما كنا نَعُدُّ الفَتْحَ إلاّ صلحَ الحديبية.

واعتبرَ رسولُ اللهِ ﷺ هذه السورةَ خيراً مما طلعتْ عليه الشمس، لما فيها

من الوعْدِ والبشرى بالفتح [تفسير ابن كثير: ٤/ ١٧٧].

روى البخاري [برقم: ٤٨٣٣] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: أُنزلَتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ، هي أَحَبُّ إليَّ مما طلعَتْ عليه الشمس. ثم قرأَ قولَه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وَعَدَ اللهُ المسلمينَ بفتْحِ مكة، وحَقَّقَ فيها وعْدَه، حيث تمَّ فَتْحُ مكة بعدَ أَقلَّ من سنتين من نزولِ السورة، حيث كان فتحُ مكةَ في رمضان من السنةِ الثامنة.

وفي سورة الفتحِ آياتٌ قَدَّمَتْ وعوداً وبشرياتٍ للمسلمين، منها:

الوعد بقتال كفار أولي بأس شديد:

أولاً: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

تخلَّفَ بعضُ الأعرابِ وضعافِ الإيمان عن الخروجِ مع رسولِ الله ﷺ للجهادِ في سبيل الله، هرباً من تكاليفِ الجهاد.

وفي هذه الآيةِ أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يُخبرَ الذين سبقَ أنْ تخلَّفوا عنه أنَّ الجهادَ مستمرّ، والمعاركَ مع الكفارِ دائمةٌ لا تتوقَّف.

والوعدُ في قولِه تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

وهو يشيرُ إلى غزوةٍ - أو غزوات - ضدَّ كفارٍ أقوياء، أُولي بأْسٍ شديدٍ وقوة كبيرة، وسيقاتلُ المسلمون هؤلاء الكافرين، وسينتصرون عليهم، ويَهزمونهم ويُزيلون قُوَّتَهم.

وقد اختلفَ المفسِّرون في تعيينِ هؤلاء الكافرين أُولي البأْسِ الشديد. وذَكَرَ خلاصةَ أقوالِهم في ذلك الحافظُ ابنُ كثير في تفسيره:

قيل: إنهم قبيلةُ هوازن العربيةُ الكافرة.. وقيل: إنَّهم قبيلةُ ثقيف المقيمةُ في الطائف، وقيل: إنهم بنو حنيفة المقيمون في اليمامة.. وقيل: إنهم الروم.. وقيل: إنهم الفرسُ والرومُ معاً.. وقيل: إنهم أهلُ الأوثان.. وقيل: إنهم التركُ

والأكراد.. وقيل: إنهم رجالٌ أولو بأسٍ شديد، ولا تعيينَ لهم.. وقيل: لم يأتِ أولئك القومُ بعد! [تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٤].

والراجحُ أنَّ هؤلاء الكفارَ كانوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وأنَّ الرسولَ ﷺ قاتلَهم وهَزَمَهُم.

وهذا يشملُ كلَّ الأقوامِ الذين هزمَهم رسولُ الله ﷺ بعد صلحِ الحديبية: وهُمْ يهودُ خيبر، وقريشٌ الذين انهزموا يومَ فتح مكة، وهوازنُ التي انهزمَتْ في غزوةِ حُنَيْن بعد فتح مكة، وثقيف التي استسلمتْ بعد حصار الطائف.

فكلُّ هؤلاء كانوا أقوياء، ذوي بأسٍ شديد، لكنَّ قوتَهم تحطَّمت أمامَ قوةِ الرسولِ ﷺ وأصحابه، الذين كانوا ذوي بأسٍ أَشَدَّ.

وتحقَّقَ الوعدُ القرآنيُّ في هذه الآية، حيثُ هُزِمَ جميعُ الكفارِ الأقوياء في حياةِ الرسول ﷺ؛ من يهود خيبر وقريش وثقيف والطائف وغيرهم.

الوعد شامل لكفار زماننا:

ولكن هذا ليس خاصاً بالكفارِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ. وإنما هو عامٌّ يشملُ الكفارَ اللاحقين الذين هزمَهم الصحابة، ومنهم: بنو حنيفة في نجد، الذين ارتدّوا مع مسيلمةَ الكذاب، وعادوا للإسلامِ بعدما هزمَهم الصحابةُ في معركةِ اليمامة.

ومنهم الفرسُ الذين أزالَ الصحابةُ قوتَهم، وفتحوا بلادَ العراقِ وفارس، ومنهم الرومُ الذين حرر الصحابةُ منهم بلادَ الشام ومصر، وباقي الأقوام الذين هزمهم الصحابةُ والتابعون في خراسان والهند والصين والترك وإفريقية والأندلس وغيرها.

وتشملُ الآيةُ الأقوامَ الآخرين الذين حاربهم المسلمون وانتصروا عليهم، مثل الصليبيين والتتار وغيرهم.

فالوعدُ القرآنيُّ في الآية مستمر، يَشملُ الماضي والحاضرَ والمستقبل، وعلينا أنْ نعمّمَه على جميع المعارك والحروبِ بين المسلمين والكافرين، على اختلافِ الزمانِ والمكان، بعد ذِكْرِ الذين انطبقَتْ عليهم على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

ولذلك لم يُعيِّن الإمامُ الزهريُّ قوماً مُحَدَّدين في الآية. وقال: ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: لم يأتِ أولئك بعد!. [تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٤].

الوعد بالغنائم من الكفار:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٠ ـ ٢٣].

الخطابُ في هذه الآياتِ للصحابةِ، الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، تحت الشجرة، قُبَيلَ صلح الحديبية، فأخبرهم اللهُ في الآيةِ السابقةِ أنه رضي عنهم: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وفي هذه الآياتِ الأربع وعودٌ من الله للمؤمنين بالنصرِ والتمكين، وهزيمةِ أعدائِهم الكافرين، وأَخْذِهم الغنائمَ منهم.

إنَّ قولَه: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وعْدٌ قرآنيٌّ باستمرارِ المعاركِ بين المسلمين والكافرين، وبانتصارِ المسلمين عليهم، وأَخْذِهم الغنائمَ الكثيرة منهم، على اختلافِ الزمانِ والمكان.

وقد تحققَ هذا الوعدُ القرآنيُّ الصادقُ في عهدِ رسولِ الله ﷺ، والفتوحاتِ الإسلامية زمنَ الخلفاءِ الراشدين، وزمنَ الأُمويين والعباسيين، وكلِّ المعاركِ الإسلامية الظافرة بعد ذلك.

ولذلك قال التابعيُّ مجاهد: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميعُ المغانم إلى اليوم. [تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٥].

أيْ أنَّ مجاهداً يرى الآيةَ تشملُ المغانمَ الكثيرةَ التي أَخَذَها المجاهدون من الكافرين زمن التابعين.

وإذا كان مجاهدٌ رحمهُ الله عمَّمَ الآيةَ لتشملَ عصْرَه، فإننا نُعمِّمُ الآيةَ لتشملَ

ما بعدَ عصرِ التابعين، ونطبّقُها على جميعِ المغانمِ التي أخذها المجاهدون من الكافرين، على اختلافِ الزمانِ والمكان.

ولذلك اعتبرناها وَعْداً قرآنياً بانتصارِ المسلمين، وأَخْذِهم الغنائمَ من الكافرين، وأنَّ هذا الوعدَ تحققَ في الفتوحاتِ الإسلاميةِ اللاحقة!.

ما هو المراد بالغنائم المعجلة؟:

أما قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ فهو يشيرُ إلى معركةٍ قريبة، خاضَها رسولُ اللهِ ﷺ بعدَ صلحِ الحُديبية، وأَخَذَ فيها الغنائمَ من المشركين.

وذهبَ ابنُ عباس رضي الله عنهما إلى أنَّ المرادَ بها صلحُ الحديبية، الذي جعلَهُ اللهُ فتحاً مبيناً، بدليلِ قولِه بعدها: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومال ابنُ كثير إلى ترجيحِ قولِ ابنِ عباس، وجعلَ الآيةَ وعداً بأَخْذِ الغنائمِ من الكفار، وجعلَ صلحَ الحديبية غنيمةً معجَّلَةً للمسلمين، لما نتجَ عن الصلح من فوائدَ عظيمةٍ للمسلمين. قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾. أي: لم ينلكم سوء، مما كان أعداؤُكم أضمروه لكم، من المحاربةِ والقتال، وكذلك كَفَّ أيدي الناس عنكم، الذين خلَّفْتُموهم وراءَ ظهوركم، عن عيالِكم وحريمكم ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ: يَعتبرونَ بذلك، فإنَّ اللهَ حافظُهم، وناصرُهم على سائرِ الأعداءِ مع قلّةِ عددهم، وليَعْلَموا بصنيعِ اللهِ هذا بهم أنه العالمُ بعواقبِ الأُمور، وأنَّ الخيرةَ فيما يختارُه لعبادِه المؤمنين، وإنْ كرهوه في الظاهر. [تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٥].

واسمُ الإشارة ﴿هذه﴾ في الجملة: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعودُ على ﴿الغنائم﴾ في الجملةِ السابقة: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ والمعنى: وعَدَكم اللهُ أَخْذَ مغانمَ كثيرة، فعجَّلَ لكم هذه الغنيمة التي أَخَذْتُموها في صلحِ الحُديبية، لأنَّ صلحَ الحديبية كان تمهيداً لفتحِ مكةَ بعد أَقَلَّ من سنتين.

اللهُ أحاط بالكفار أينما كانوا:

ووعدَ اللهُ المؤمنينَ مغانمَ أُخرى كثيرةً قادمة، وذلك في قوله بعد ذلك: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

وقد ذهبَ ابنُ عباس والضحاك، وابنُ إسحاق وعبدُ الرحمن بن زيد إلى أنَّ المرادَ بها فتحُ خيبرَ وأخذُ غنائمِها. وهذا هو الراجحُ واللهُ أعلم.

فقد كانت خيبرُ حِصْناً منيعاً لليهود، وتجمَّعَ فيه اليهودُ الذين أجلاهم الرسولُ ﷺ عن المدينة، كيهودِ بني قينقاع ويهود بني النضير، وكانت خيبرُ أقوى حصونِ اليهودِ وأكثرها مناعة، ولذلك قالَ اللهُ عنها: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾.

وتوجَّهَ الرسولُ ﷺ إلى خيبرَ بالصحابة، الذين حضروا صلحَ الحديبية، وحاصرَ اليهودَ فيها، وافتتحَها في شهر محرم من السنةِ السابعة، بعدَ شهريْن من صلحِ الحديبية، وغنمَ فيها المسلمون غنائمَ كثيرةً من اليهود.

وبذلك حققَ اللهُ للمسلمين هذا الوعد، بعدَ شهرَيْنِ من إخبارِهم به.

سنة الله في الكفار لا تتخلف:

وأخبرَ اللهُ الصحابةَ المبايعين بيعةَ الرضوان في الحديبية، أنَّه لو قاتلَهم كفارُ قريشٍ في الحديبية لانهزموا أمامَهم، لأنَّ هذه هي سنّةُ الله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

سنّةُ اللهِ التي لا تتبدَّلُ ولا تتغيَّرُ، أنه لا ينتصرُ الكفارُ على المؤمنين، لأنَّ اللهَ ينصرُ عبادَه المجاهدين الصادقين، فإذا ما انتصرَ الكفارُ في معركةٍ أو جولةٍ، فلأنَّ المسلمينَ أخلُّوا بشروطِ النصر، ولم يقوموا بما أوجبَه اللهُ عليهم.

الخطابُ في قولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ للصحابة، الذين بايَعوا بيعةَ الرضوان في الحديبية، فلو قاتلهم كفارُ قريشٍ على أرضِ الحديبية لولَّوا الأدبارَ أمامَهم، رغمَ أنَّ الكفارَ كانوا أكثرَ عدداً وعُدَّةً منهم، لأنَّ الصحابةَ لم يَخْرجوا لقتال، وإنما خَرَجوا لأداءِ العمرة، ومع ذلك لو حصلَ قتالٌ في الحديبيةِ لنصرَ اللهُ المؤمنين، لأنَّ هذه هي سنّةُ الله.

رؤيا الرسول ﷺ بأدائه العمرة:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ

ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٧ـ٢٨].

تخبرُ الآيةُ عن سببِ توجُّهِ الرسولِ ﷺ بأصحابِه إلى مكة، لأداءِ العمرة.

قالَ الإمامُ الحافظُ ابن كثير: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد رأى في المنامِ أنه دخلَ مكةَ وطافَ بالبيت، فأخبرَ أصحابَه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عامَ الحديبية لم يشكَّ جماعةٌ منهم أنّ هذه الرؤيا تتفسَّرُ هذا العام.. فلما وقعَ ما وقعَ من قضيةِ الصلحِ رجعوا عامَهم ذلك، على أنْ يعودوا من قابِل، وقعَ في نفسِ بعضِ الصحابةِ رضي الله عنهم من ذلك شيء.

حتى سألَ عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه رسولَ اللهِ ﷺ قائلاً: ألم تكنْ تُخبرُنا أنّا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟.

فقال ﷺ: «بلى، أفأخبرْتُكَ أنكَ تأتيهِ عامَكَ هذا؟».

قال عمر: لا.

قال ﷺ: «فإنكَ آتيهِ ومُطَّوِّفٌ به».

وبهذا أجابَ أبو بكر الصّدّيق عمرَ رضي الله عنهما، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة..» [تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤].

رأى رسولُ اللهِ ﷺ في المنامِ أنه ذاهبٌ مع أصحابِه لأداءِ العمرة، وأخبرَ الصحابةَ بذلك، ففرِحوا واسْتَبْشَروا، لأنّهم في شوقٍ كبيرٍ لمكةَ والكعبةِ والمسجدِ الحرام.

ولما توجَّه في السنةِ السادسةِ بأصحابِه لأداءِ العمرة، ما كانوا يشكّون أنهم سوفَ يؤدُّونَ العمرةَ في هذا السير.

ولكنَّ قريشاً منعَتْهم من تحقيقِ ذلك، وجَرَتْ مفاوضاتٌ شاقةٌ على أرضِ الحديبية، انتهتْ بتوقيعِ صلحِ الحديبية، واعتبرَ كثيرٌ من الصحابةِ أنفسَهم مغلوبين في بنودِ الصلح، واعترضَ بعضُهم عليه، كعمرَ رضي الله عنه.

وكان من بنودِ الصلحِ أنْ يعودَ المسلمونَ هذا العام إلى المدينة، وأنْ يأتوا

في العامِ القادمِ لأداءِ العمرة.

وكلَّمَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه رسولَ اللهِ ﷺ حولَ رؤْياه، وإخباره أنّهم سيأْتون البيتَ الحرامَ ويُؤَدُّونَ العمرة، فطمأنَه الرسولُ ﷺ أنه سيكون، وأنَّه لم يُحدِّدْ له أنه سيكونُ في هذا العام! ولما ذهبَ عمرُ إلى أبي بكر رضي الله عنهما، وكلّمَه عن الرؤْيا والوعد، كان جوابُه نفسَ جوابِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وأنزلَ اللهُ الآيةَ في طريقِ عودةِ المسلمينَ للمدينة، يؤكِّدُ على تحققِ الوعدِ وأداءِ العمرة.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾: أرى اللهُ رسولَه ﷺ في المنامِ أنه ذاهبٌ إلى البيتِ الحرامِ مع أصحابِه، ورؤيا الأنبياءِ حق، لأنّه لا سلطانَ للشيطانِ عليهم، ولهذا كانَ الرسولُ ﷺ يوقنُ أنَّ هذه الرؤيا ستتحقّق، ولذلك بشَّرَ أصحابَه بها.

ولكن جرى ما جرى في أرضِ الحديبية، مما جعلَ الرؤيا لم تتحقَّقْ في السنةِ السادسة، وتساءَلَ بعضُ الصحابةِ عن الرؤيا، كعمرَ رضي الله عنه، فكانَ إنزالُ هذه الآيةِ لتقرير حقيقة صدْقِ وعْدِ الله، الذي جاء بصورةِ رؤيا لرسولِه ﷺ.

تحقق الوعد في عمرة القضاء:

صدقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق، وقَدَّرَ تحقُّقَها، لكنْ في الزمانِ الذي يُحدّدُه هو، وبالكيفيةِ التي يريدُها هو، وهو الحكيمُ العليم، سبحانه وتعالى.

ولذلك جاءَ التأكيدُ على أداءِ العمرةِ في مستقبلٍ قريب، بأفعالٍ وكلماتٍ محدَّدة حاسمةٍ جازمة: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾.

اللامُ في فعْلِ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ لامُ القسمِ للتأكيد، ونونُ التوكيدِ الثقيلةُ فيه للتوكيد، والخطابُ للصحابةِ الذين توجَّهوا للعمرةِ مع رسولِ الله ﷺ في السنةِ السادسة، فحالَ المشركونَ بينهم وبين أدائها.

وجملةُ: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ في الآيةِ لتوكيدِ الخبر، وتحققِ الوعدِ الذي فيه، وهي ليستْ للاستثناء، بمعنى أنَّ اللهَ شاءَ دخولَكم المسجدَ الحرام، ولذلك

ستدخلونَه لا محالة، لأنَّ اللهَ الحكيمَ شاءَ ذلك، ولا رادَّ لمشيئته.

وذكرت الآيةُ حالَ المؤمنين عندَ اعتمارهم: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾. فهم سيكونون آمنين عند أداءِ العمرة، لا يخافونَ أعداءَهم المشركين، ومنهم مَنْ سيحلقُ رأسَه كاملاً، ومنهم مَنْ سيُقَصِّرُ شعرَه تقصيراً، ولا شكَّ أنَّ الحَلْقَ أفضلُ من التقصيرِ عند أداءِ مناسك الحجِّ أو العمرة.

بين الفتح المبين والفتح القريب:

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أيْ: أنَّ اللهَ علمَ أنَّ الأفضلَ والأصلحَ لكم هو عدمُ أدائِكم العمرةَ هذا العام، وعَقَدَ صلحَ الحديبية بينكم وبينَ المشركين، وهذا الصلحُ وما يتحققُ لكم فيه من مكاسبَ ونتائج، أَوْلى من أدائِكم العمرة، فهذا الصلحُ فتحٌ من اللهِ فَتَحَهُ عليكم.

الآيةُ الأولى من السورة اعتبرتْ صلحَ الحديبية فتحاً مبيناً: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾. وهذه الآيةُ اعتبَرَتْه فتحاً قريباً: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

وقد أشارتْ إحدى آياتِ السورةِ إلى حكمةِ اللهِ في منع الاشتباكِ بين المسلمين والمشركين على أرضِ الحديبية. قال تعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥].

بين علم الله وعلم البشر:

إنَّ قولَه تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ يقررُ حقيقةً قرآنية، هي: قُصورُ العلمِ البشريِّ ونقصُه، فمهما عَلِمَ الناس فإنَّهم لا يُحيطونَ علماً بالمسألةِ المعروضة، ولا يَعلمونَ كُلَّ تفصيلاتِها وخفاياها، أما المستقبلُ فإنهم لا يعلمونَ عنه شيئاً، لأنَّه غيبٌ اختصَّ اللهُ بعلمِه.

وهذا القصورُ والنقصُ والجهلُ في العلمِ البشري، قد يدفعُهم إلى محبةِ أو تفضيلِ أو اختيارِ ما ليس في مصلحتِهم، أمَّا ربُّ العالمينَ فإنه يختارُ لهم ما فيه مصلحتُهم.

ولذلك لمَّا شرعَ اللهُ القتالَ وكَلَّفَ المسلمين به أشار إلى هذه الحقيقة . قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وفي حادثةِ صُلْحِ الحُديبية ، كانتْ رغبةُ المسلمين في عدمِ عقْدِ الصلحِ مع المشركين ، بالشروطِ التي رَأَوْها مجحفةً ، وكانوا يَرَونَ أداءَ العمرةِ هذا العام ، أو الاشتباكِ مع المشركين ، ويظنّونَ أنَّ مصلحتَهم تتحقّقُ بذلك .

لكنَّ اللهَ العليمَ الحكيمَ اختارَ ما فيه مصلحتُهم ، وتَمَّ عقدُ الصلح ، الذي هو فتحٌ قريب ، ولكنهم لا يعلمون ذلك : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

الوعد بإظهار الإسلام على الدين كلّه:

وتقريرُ هذه الحقيقةِ فرصةٌ مناسبةٌ لقطْعِ وعدٍ قرآنيٍّ صادق ، بأنَّ المستقبلَ الباهرَ للإسلام . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

أرسلَ اللهُ رسولَه محمداً ﷺ بالهدى ، ودينُه الإسلامُ هو الدينُ الحقّ ، وهذا معناهُ أنَّ الهدى مقصورٌ على الإسلام ، رسالةِ رسولِ الله ﷺ ، وكلُّ ما تعارضَ معه فهو ضلال ، والإسلامُ نور ، وكلُّ ما تعارضَ معه فهو ظلام .

والإسلامُ هو الدينُ الحق ، لأنَّ اللهَ حفظَه وأنزلَه ، فلا خطأَ فيه ولا باطلَ ولا ضَلال ، يأْخذه المسلمُ بكامله ، وهو واثقٌ مطمئنٌّ إلى أنّه يأخذُ الحقَّ ويلتزمُ به . . وكلُّ ما تناقضَ معه من الأديانِ والأفكارِ والمذاهب فهو باطل ، ولا يقودُ إلاّ إلى الضلال والضياع .

وبما أنَّ الهدى في الإسلامِ وحْدَه ، وبما أنّه هو الدينُ الحق ، فإنَّ حاجةَ البشرية إليه ماسّة ، لأنَّها تتخبّطُ في ظلماتِ الجهلِ والعمى والضّلال ، ولذلكَ قَدَّرَ اللهُ أنْ ينصرَ هذا الدين ، وأنْ يُظهره على كلِّ ما سواهُ من الأديانِ والمبادئ : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ .

ووجْهُ صلةِ الوعْدِ الصادقِ بالحديثِ عن أجواءِ صلحِ الحديبية ، هي أنَّ

الصلحَ نفسَه خطوةٌ متقدمةٌ على طريقِ تحقيقِ هذا الوعد، لأنَّ الصلحَ فتحٌ قريب، وفتحٌ مبين، ونصرٌ عزيز، كما صرحَتْ بذلك آيات السورة الصريحة، وقد نتجَ عن هذا الصلحِ فتحُ خيبر بعدَه مباشرة، والقضاءُ على النفوذِ اليهوديِّ في الجزيرةِ العربية، وهذه خطوةٌ أُخرى متقدمةٌ على طريقِ تحقيقِ الوعد، وبعدَ أقلَّ من سنَتَيْن من عقدِ الصلح تمَّ فتحُ مكة، والقضاءُ على آخِرِ قلاع الشرك فيها، وهذه خطوةٌ ثالثةٌ كذلك، ولذلك جاءَ الوعدُ صريحاً في سياقِ الحديثِ عن صلحِ الحديبية.

وأظهرَ اللهُ الإسلامَ على كلِّ الأديانِ والمذاهبِ التي كانت في الجزيرةِ العربية، في حياةِ الرسولِ ﷺ، وأظهرَهُ اللهُ على الأديانِ والمذاهبِ في المنطقةِ كلِّها، في عصرِ الصحابةِ والتابعين ومَن بعدهم، وانتشرَ الإسلامُ في كلِّ العالمِ المعروفِ في ذلك الزمان! واستقرَّ في البلادِ الإسلاميةِ من الفلبين إلى المغرب!.

وما زالَ هذا الوعدُ القرآنيُّ الصادقُ متحقِّقاً في أيامنا، وما زالَ الإسلامُ ظاهراً ظهوراً معنوياً إعلامياً فكرياً على الأديانِ كلِّها، في العالمِ كلِّه، رغمَ انحسارِ وجودِه الماديِّ، ونفوذِه السياسي، وما زالَ ينتظرُ الإسلامَ مستقبلٌ مشرقٌ، فيه ظهورٌ له متكامل.

* * *

الفصل العاشر

الوعد القرآني في سورة المجادلة

الكفار يحادون اللهَ ورسولَه:

من آياتِ الوعدِ القرآنيِّ الصادقِ في سـورةِ المجادلة المدنيـة هـذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

تتحدَّثُ الآيةُ عن الكافرين أعداءِ هذا الدين، وتُخبرُ عن كبْتِهم وهزيمتِهم، ككبتِ الذين من قبلِهم.

وقد وَصَفَت الآيةُ الكافرين بأنَّهم: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. و﴿يُحَآدُّونَ﴾ فعلٌ مضارع، الماضي منه رباعيّ: (حادَّ)، والثلاثي منه: (حَدَّ)، وهو مأخوذٌ من الحَدِّ، الذي هو الفاصلُ بين شيئين، مثلُ حَدِّ الأرض وحَدِّ البيت، وهكذا.

والكفارُ ﴿يُحَآدُّونَ﴾ اللهَ ورسولَه. أيْ: يُحاربونَ اللهَ، ويحاربونَ رسولَه، ويُحاربونَ دينَه، وعبَّرَ عن عداوتِهم وحربِهم بفعل ﴿يُحَآدُّونَ﴾، للدلالةِ على وقوفِهم في الجانبِ المواجِهِ للإسلامِ والمسلمين.

وهؤلاء الكفارُ ليسـوا خاصّين بقـومٍ معيَّنين، بل هم يشـملونَ كلَّ كفارٍ يُعادونَ هذا الدين، على اختلافِ الزمانِ والمكان، مثلُ كفارِ قريشٍ والمنافقين واليهود، والفرسِ والرومِ والتركِ والهنود، والكفارِ المعاصرين من اليهودِ الملحدين والنصارى الصليبيين.

وبما أنَّ مسلسلَ الكفارِ المعادين مستمرّ، فمحادَّتُهم للهِ ورسولِه مستمرة، ولذلك عبَّرَت الآيةُ عن ذلك بالفعلِ المضارع، الدالِّ على التجدّد والاستمرار: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وعد الله بكبتِ وذل الكفار:

وَعَدَ اللهُ بكبْتِ هؤلاءِ الكفارِ المحادّين المعادين: ﴿كُبِتُوا﴾، والكبتُ هو الإذلالُ والإهانةُ والهزيمة. وفعلُ ﴿كُبِتُوا﴾ مبنيٌّ للمجهول، محذوفٌ فاعلُه، للعلم به؛ لأنه من المعلوم بداهةً أنّ اللهَ هو الذي كبتهم، وللتركيز عليهم، ولذلك جاءَ الضميرُ في الفعلِ ﴿كُبِتُوا﴾ العائدُ عليهم نائباً للفاعل.

وكَبْتُ هؤلاءِ الكافرين المعادين مثْلُ كبتِ الكفارِ الذين كانوا قبلَهم: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

والذين من قبلِهم هم الذين ذكَرَهم اللهُ لنا في القرآن، كقومِ نوحٍ وعاد وثمود ومدين، وفرعون وهامان وقارون وغيرهم، الذين كَبَتَهم اللهُ وأَذَلَّهم وأهانَهم، وأوقعَ بهم عذابَه، ونَصَرَ رسلَه وأَتْباعَهم المؤمنين.

وقولُه: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يُشيرُ إلى آياتِ القرآنِ الواضحات، ويلفتُ أنظارَ المسلمين إلى تفاصيلِ كَبْتِ وإذلالِ وإهلاكِ الكافرين السابقين، الموجودةِ في آياتِ القرآنِ البيّنات.

وهذه دعوةٌ من الآيةِ للمؤمنين إلى معرفةِ كيفَ كَبَتَ اللهُ الكفارَ السابقين، والوقوفِ على تفاصيلِ إهلاكِهم، وذلك بتدبُّرِ آياتِ القصصِ القرآني التي تحدَّثَتْ عن ذلك، وحُسن فهمها، واستخراجِ عِبَرِها ودلالاتِها.

كبت الكفار سنّة ربانية:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنَّ فعلَ (كَبَتَ) لم يَرِدْ في القرآنِ إلاّ ثلاثَ مرات، مرتَيْن منهما في هذه الآية، في صيغةِ الفعلِ الماضي: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

والمرةُ الثالثةُ وردَ فيها في صيغةِ الفعلِ المضارع، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٧].

والكلامُ في الآيةِ عن الكفارِ المشركين في بدر، وما أوقعَ اللهُ بهم من الهزيمة، حيثُ قضى على عددٍ منهم، وبذلك قطعَ طرفَهم، وكبتَ آخرين منهم، وهزمَهم وأذلَّهم، فعادوا إلى مكةَ خائبين خاسرين.

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الكبتَ في القرآنِ لم يَرِدْ إلاّ في سياقِ المواجهةِ بين المسلمين والكافرين، ويدلُّ على كبتِ الكافرين وهزيمتِهم وذلِّهم وإهانتِهم.

ويؤخَذُ من الآيةِ سنّةٌ ربانيةٌ مطَّردة، وهي: كبتُ وإذلالُ وإهانةُ وهزيمةُ كلِّ الكافرين المعادين، الذين اعتمدوا على قوتِهم وقدراتِهم، فحادُّوا اللهَ ورسولَه وأولياءَه، ولكنَّ قوَّتَهم صارَتْ ضعفاً، وقدرتَهم صارتْ عَجْزاً.

وفي الآيةِ وعْدٌ قرآنيٌّ صادق، تحقَّقَ ووقعَ في حياةِ المسلمين، وسجَّلَ التاريخُ الإسلاميُّ أمثلةً ونماذجَ عديدةً لكفارٍ مُعادين، حادّوا اللهَ ورسولَه، وشَنُّوا الحربَ الشرسةَ على الإسلامِ والمسلمين، وظنّوا أنّهم سوفَ ينجحونَ في تحقيقِ أهدافِهم، ولكنَّ اللهَ قصمَهم وكبتَهم، وهَزمَهم وأذَلَّهم.

ونستبشرُ من الآيةِ كبتَ وإهانةَ وإذلالَ اليهودِ والأمريكان، وغيرِهم من الكفارِ المعاصرين، الذين يشنّون حربَهم الشيطانيةَ الشرسةَ ضدَّ الإسلامِ والمسلمين!!.

حزب الشيطان خاسرون:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ١٩ ـ ٢٢].

تتحدّثُ الآياتُ عن الكفارِ الذين يُحادُّون اللهَ ورسولَه، على اختلافِ الزمانِ والمكان، وتقدّمُ لهم بعضَ التحليلات، وتذكُرُ بعضَ الحقائقِ والوعود، ثم تعرضُ بعضَ صفاتِ المؤمنين الغالبين.

تذكرُ الآياتُ أنَّ الشيطانَ ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾ على أوليائِه. أي: سيطرَ واستولى عليهم، وتمكّنَ منهم، وأخذَهم إلى جانبِه، وجعلَهم جنوداً له. ولما تمكّنَ منهم

أنساهم ذكْرَ الله، وأشغلَهم بذكْرِه هو. وبذلك صاروا أعضاءَ فاعلين في (حزبِ الشيطان). وحزبُ الشيطانِ هم جنودُه وأولياؤُه، الذين يَخْضعون له، ويَنشُرون تعاليمه، ويُضِلُّون الآخرين.

وحزبُ الشيطانِ هم الخاسرون، وخسارتُهم مطلقةٌ عامة، وشاملةٌ للدنيا والآخرة، وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ قاطعة، مؤكَّدةٌ في الآيةِ بعدَّةِ مؤكِّدات: حرفُ الاستفتاح ﴿ألا﴾. وحرفُ التوكيد ﴿إن﴾.. وضميرُ الفصْلِ للتوكيد: ﴿هم﴾. واسمُ الفاعلِ المُعَرَّفُ بأل التعريف: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.. والجملةُ الاسميةُ الدالةُ على التوكيد: ﴿حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وحزبُ الشيطانِ الخاسرون الكافرون ارتكبوا جريمةً فظيعة، حيثُ حادّوا اللهَ ورسولَه، وحاربوا دينَه، وعادوا أولياءَه، وبذَلُوا كلَّ جهْدِهم وطاقَتِهم وقدرتِهم في حربِ الإسلام والقضاءِ عليه. لكنْ هل ينجحونَ في ذلك؟.

الكفار أذلون مهزومون:

تقدمُ الآيةُ وعداً قرآنياً صادقاً في فشلِهم وهزيمتِهم وهوانِهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

والأَذَلُّون جمعُ (أذلّ)، على وزنِ (أَفْعَل)، وهو الذي بلغَ أدنى درجاتِ الذلِّ والهوان. يُقال: ذَلَّ فلانٌ فهو ذليل، وإذا ازدادَتْ ذلَّتُه قيل: هو أَذَلّ!.

الأذلُّون هم حزبُ الشيطانِ الخاسرون، المحادّون للهِ ورسولِه.

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾، ولم يقل: أولئك هم الأَذَلُّون، لأنَّ حرفَ الجَرِّ (في) يدلُّ على الظرف، أيْ: صارَ أولئكَ المحادّون في الأذلّين، وتغلغلوا فيهم، وضاعوا وسْطَهم، وذابوا بينَهم.

ومفردُ (الأذلين) هو: الأذَلّ، وهو مَنْ تمكنَتْ منه الذلّةُ والمسكنةُ والهوان، والأَذَلُّ هو كلُّ كافرٍ يُحادّ اللهَ ورسولَه.

الجمع بين كبتِ الكفار وذلهم:

ويلاحظُ أن سورة المجادلة تحدّثَتْ مرّتين عن ذُلِّ وكبتِ الذين يُحادُّونَ اللهَ ورسولَه:

قالت في المرةِ الأولى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

وقالتْ في المرةِ الثانية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ .

وليس هذا تكراراً، لأنّه لا تكرارَ في القرآن، وإنما هو (تنويعٌ) في العرضِ القرآنيِّ، والتنويعُ قائمٌ على إضافةِ معنى جديد في المرةِ الثانيةِ.

في الآيةِ الأُولى إخبارٌ عن كبتِ الأعداءِ ككبتِ الذين من قبلِهم. وفي الآيةِ الثانيةِ إخبارٌ عن كونِ هؤلاءِ الأعداء في الأذلّين.

والفرقُ واضحٌ بين الآيتَيْن، فهدفُ الآيةِ الأُولى الإخبارُ عن أنفسِ المحادّين لله ورسولِه. فأنفسُهم مكبوتةٌ مهانةٌ مهزومةٌ تعيسةٌ بائسةٌ محطَّمة. . أما هدفُ الآيةِ الثانيةِ فهو الإخبارُ عن المحيطِ العامِّ الذي يَعيشُ فيه هؤلاء المكبوتون، إنَّ مَنْ حولَهم أذلّون خاسرون مهزومون، وهؤلاء المكبوتون في المحيطِ العامِّ للأذلّين. . هم مكبوتون، ومَنْ حولَهم أذلّون!.

فالآيةُ الأُولى إخبارٌ عن أنفسِ المحادّين للهِ ورسولِه، والآيةُ الثانيةُ إخبارٌ عن مَنْ حولَ المحادّين، فصارَ المجموعُ هكذا: المكبوتونَ في الأذلّين، والصنفان مِن حزبِ الشيطانِ الخاسرين.

وهذا وعْدٌ قرآنيٌّ متحقّقٌ دائماً، وقد سَجَّلَ التاريخُ أمثلةً عديدةً لإذلالِ وخسرانِ وهزيمةِ حزبِ الشيطان، ولا يتخلَّفُ عن هذا الوعدِ القرآنيِّ أيةُ أُمّةٍ كافرة، في أيِّ زمانٍ ومكان، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

كتب اللهُ الغلبة لدينه:

وبعدَ تقديمِ الوعدِ الصادقِ بكبتِ وإذلالِ وهزيمةِ حزبِ الشيطانِ المحادّين للهِ ورسولِه، قدَّمَت الآيةُ التاليةُ وعداً قرآنياً آخرَ بنصْرِ دينِ الله. قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

ومعنى ﴿ كَتَبَ ﴾ هنا: قَدَّرَ وقضى، فالكتابةُ كتابةُ قَدَرٍ وإرادة، وجعلَ المكتوبَ قَدَراً ربانياً نافذاً، وسنّةً ربانيةً قاطعة، لا تُغيَّرُ ولا تُبَدَّل، ولا تَقْدِرُ أيةُ

قوةٍ مخلوقةٍ على تغييرِ ما كتبَه اللهُ أو محوِه، أو إلغائه وإعاقةِ إمضائِه وإنفاذِه.

ماذا كتبَ اللهُ؟ كتبَ: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾.

اللامُ في ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾ لامُ القَسَمِ للتوكيد، وأُدخِلَتْ نونُ التوكيدِ الثقيلةُ على الفعلِ المضارعِ للتوكيد أيضاً، وجيءَ بالضمير المنفصل ﴿أَنَا﴾ للتوكيد. واجتماعُ ثلاثِ مؤكِّدات في الجملة: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ لتقرير هذا الوعْدِ الربّاني، وزيادةِ يقينِ المؤمنين بتحقُّقِه.

والغلبةُ قائمةٌ على النصر، فالغالبُ هو المنتصر. وإذا كان اللهُ هو الغالبُ على أمرِه، فإنَّ الأعداءَ الذين يحادّونَ اللهَ ورسلَه مغلوبون مهزومون.

ويلاحَظُ أنَّ مفعولَ فعل (أَغْلِبَنَّ) في الآيةِ محذوفٌ، ولو ذَكَرَهُ لقال: لأغلبنَّ أنا ورسلي الكافرين المحادّين.

وَعَطَفَ الرسلَ عليه سبحانه، فقال: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ وهذا لتكريمِ وتشريفِ مقامِ الرسل، فاللهُ غالبٌ لأعدائِه، ورسلُه غالبونَ لأعدائِهم بإذنِه سبحانه.

عاملان أساسيان للنصر:

وهناك حكمةٌ لطيفةٌ من عطفِ الرسلِ على اللهِ في الآية: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾.

إنها تشيرُ إلى عاملَيْن أساسيَّيْن في تحقيقِ الوعدِ القرآنيِّ في الآية، وتطبيقِ السنّةِ الربانيةِ التي قَرّرَتْها:

العاملُ الأول: العاملُ الرباني: وهو أساسُ الغلبةِ والنصرِ وتحقيقِ الوعدِ، فاللهُ كتبَ وشاءَ وقَدَّرَ وأرادَ، ولا رادَّ لأَمْرِه سبحانه، ويمثلُه في الآيةِ الضميرُ المنفصل ﴿أَنَا﴾.

العاملُ الثاني: العاملُ البشري: الذي يُجري اللهُ على يَدَيْه إرادتَه، فيكونُ الرسلُ وأَتْباعُهم المجاهدونَ سِتاراً لِقَدَرِ الله، هم يأْخُذونَ بالأسباب، ويَبذلونَ جُهْدَهم، ويُحاربونَ أعداءَهم، ويتوكّلونَ على الله، ويَنتظرونَ النصْرَ منه. ويمثِّلُه في الآيةِ كلمةُ ﴿رسلي﴾ المعطوفةُ على ضمير ﴿أَنَا﴾.

إنَّه لا بدَّ من توفُّرِ المجاهدين، في أيِّ معركةٍ بين الحقِّ والباطل، يرغبُ فيها أهلُ الحقِّ بالانتصارِ على أهلِ الباطلِ.

وهذا معناهُ: أنَّه لا نَصْرَ إلاّ بوجودِ مؤمنين صالحين، مجاهدين في سبيل الله، يأْخُذونَ بالأسبابِ، ويُحققونَ شُروطَ النصر. إنَّ اللهَ لا ينصرُ مسلمين مرتكبين للمعاصي، ولا ينصُرُ مسلمين حالمين عاجزين كسالى، ولا ينصرُ مسلمين قاعدين عن الاستعدادِ للجهاد!.

ولا بدّ من ملاحظةِ العاملَيْن المتلازمَيْن للنصر: العامل الربّاني والعامل البشريّ المعتمد عليه، المذكورَيْن في قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾.

الله الغالب القوي العزيز:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنَّ الآيةَ الواعدةَ بالغلبةِ والنصرِ خُتِمَتْ بذكْرِ اسمَيْن عظيمَيْن من أسماءِ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وهذه الخاتمةُ متناسبةٌ مع موضوعِ الآية. اللهُ قويّ: أَيْ: هو الغالبُ القاهر، قوَّتُه مطلقة، لا يَعْتَريه ضعفٌ أو عجزٌ سبحانه.. واللهُ عزيزٌ: أيْ هو المنتصرُ سبحانه، صاحبُ العزّةِ والغلَبَةِ، لا تغلبُه أيةُ قوةٍ مهما عَظُمَت، ولا يَذِلُّ أو يضعفُ سبحانه، وهو الذي يَمُنُّ بالعزةِ على أوليائِه وجنودِه.

وبما أنَّ موضوعَ الآيةِ هو الوعدُ بالغَلَبةِ والانتصارِ والتمكين، لذلك ناسبَ أنْ تُختمَ بهذيْن الاسمَيْن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. ومعلومٌ أنَّ خاتمةَ كُلِّ آيةٍ متناسبةٌ دائماً في موضوعِها!.

اللهُ الغالبُ لأعدائِه، الناصرُ لأوليائِه، وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ بيِّنَة، ووعْدٌ قرآنيٌّ صادق. أَكّدَتْها آياتٌ عديدة. منها قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ومنها قولُه تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وأعداءُ هذا الدينِ مغلوبونَ مهزومونَ خاسرون، لا تنفعُهم قُوَّتُهم أمامَ قوةِ

الله. وقد أكَّدَتْ هذه الحقيقةَ آياتٌ عديدة، منها قولُه تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

* * *

الفصل الحادي عشر

الوعد القرآني في سورة الحشر

نزولُ السورةِ في إجلاءِ يهود بني النضير:

سورةُ الحشرِ مدنية، كان نزولُها في السنةِ الرابعةِ من الهجرة، بعدَ إجلاءِ يهودِ بني النَّضير، ولهذا سَمَّاها ابنُ عباس رضي الله عنهما (سورة بني النضير) لهذا السبب.

وسببُ إجلاءِ يهودِ بني النضير هو نقضُهم العهدَ مع رسولِ الله ﷺ، وهذه هي طبيعةُ اليهودِ دائماً.

بعدَ غزوةِ أُحُد في السنةِ الثالثةِ من الهجرة، وقعتْ حادثةُ (بئر معونة)، التي غدرَ فيها المشركون بسبعين رجلاً من الصحابة، حفظةِ القرآن، الذينَ بعثَهم الرسولُ ﷺ للدعوةِ إلى الله، فقتلوهم، ولم ينجُ منهم إلا عمرُو بن أمية الضمري رضي الله عنه، الذي عادَ إلى المدينة، وأثناءَ عودتِه رأى رجلَيْن مشركَيْن من بني عامر، فظنَّهما من القبيلةِ التي نَقَضَت العهدَ وقَتَلت الصحابة، وعدا عليهما فقتَلَهما، أَخْذاً بثأْرِ إخوانِه الشهداء.

ولما أخبرَ عمرٌو رسولَ اللهِ ﷺ بقتْلِه الرجُلَيْن غضبَ الرسولُ ﷺ، لأنَّ الرجلَيْن العامريَّيْن كانا معاهِدَيْن له، ويعني هذا أنَّ قتْلَهما كان خطأً، وبذلك صارَ الرسولُ ﷺ مُلْزَماً بدفعِ ديةِ القتيلين!.

وكانَ بينَ بني عامر وبين يهودِ بني النضير صلة، وكانتْ منازلُ بني النضير شرقيَّ المدينة، على بُعدِ أَميالٍ منها، وكان بينَهم وبين الرسولِ ﷺ عهد.

فذهبَ رسولُ الله ﷺ إليهم، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وذلكَ للحديثِ معهم حولَ دفعِ ديةِ القتيلَيْن العامريَّيْن.

ولما وصلَ إليهم أَجلسوه مع صاحبَيْه بجانبِ جدارٍ لهم، ولما كلَّمهم بشأْنِ

ديةِ القتيلَيْن أعلنوا استعدادَهم للمساعدة.

وهنا استيقظَ الغدرُ في نفوسِهم، فقالَ بعضُهم لبعض: هذه فرصةٌ مناسبةٌ لقتْلِه والتخلُّصِ منه، فليس معه جيشٌ يدافعُ عنه! واتَّفقوا على أنْ يصعدَ أحدهم على الجدار، وأنْ يُلقيَ حجراً كبيراً على رسولِ الله ﷺ!.

وأخبرَ اللهُ رسولَه ﷺ بالأمْر، وعَصَمَه من غَدْرِهم، فقامَ عليه الصلاةُ والسلام كأنه يريدُ أنْ يقضيَ حاجة، وغادَرَهم، وواصلَ سيْرَه نحو المدينة، ولما تأخَّرَ على صاحبَيْه أبي بكر وعمر، قاما ورَجَعا إلى المدينة.

وفي المدينـةِ أخبرَ الرسـولُ ﷺ صاحبَيْه بغدرِ اليهود ونقْضِهم العهـدَ وتخطيطِهم لقتْلِه!.

وجهزَ الرسولُ ﷺ جيشاً لقتالِ يهودِ بني النضير، وفي اليومِ التالي فوجئ يهودُ بني النضير بجيشِ الرسولِ ﷺ محاصراً لهم.

وأثناءَ حصارِهم اتصلَ بهم زعيمُ المنافقين عبدُ الله بنُ أُبَيّ، وطلبَ منهم أنْ لا يستسلموا للرسولِ ﷺ، وأَنْ يَثْبُتوا في حصونِهم، ووَعَدَهم أنْ يُقَدِّمَ لهم المددَ من جماعتِه. وانتظرَ اليهودُ المددَ من المنافقين، لكنّه لم يأتِ!.

عند ذلك اضطرَّ اليهودُ إلى الاستسلام، فاستسلَموا على أنْ يتمَّ جلاؤُهم من ديارِهم، ولكلٍّ منهم حملُ بعيرٍ من أثاثِ بيتِه، على أنْ لا يأْخُذوا معهم الذهب والسلاح.. وتوجَّهوا إلى خيبرَ وبلادِ الشام.

وقَسَّمَ رسولُ الله ﷺ أراضيهم وممتلكاتِهم على المهاجرين، ولم يُعْطِ إلاّ اثنين من الأنصار، كانا شديدَي الفقر.

فأنزلَ اللهُ سورةَ الحشر، وتحدّثَتْ آياتُها عن بعضِ أحداثِ هذه الحادثة، واستخلصَتْ بعضَ الدلالاتِ منها. [انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢٢-٣٢٤].

وكان يهودُ بني النضير أقوى قبيلةٍ يهوديةٍ حولَ المدينة، وكانوا كثيري العَددِ والسلاح، وكان الصحابةُ يتعجَّبون من قوّتِهم ومناعةِ حصونهم، ويفكّرونَ في كيفيةِ التغلّبِ عليهم وهزيمتِهم.

ومن آياتِ السورة التي قَدَّمَتْ حقائقَ هادية بشأْنِ الحادثةِ وعِبَرِها:

إجلاء اليهود عقاباً لهم:

أولاً: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤].

الخطابُ في الآياتِ للصحابة، يُخبرُهم اللهُ فيها أنّه هو الذي أخرجَ يهودَ بني النضيرِ من ديارِهم، ووَصَفَهم بأنَّهم كفارٌ من أهلِ الكتاب، وامتنَّ اللهُ على المؤمنين بإخراجِ أعدائِهم، وأشارَ إلى قوةِ ومَنَعَةِ حصونِهم، بحيثُ أنَّ الصحابةَ لم يتوقَّعوا خروجَهم، أمَّا اليهودُ فقد كانوا معتمدينَ على قوةِ ومَناعةِ حصونِهم، بحيثُ أَيْقنوا أنّها ستدفعُ عنهم عقابَ الله!.

ومن مكْرِ اللهِ بهم أنه أوقعَ بهم عقابَه وعذابَه من حيثُ لم يتوقَّعوا، فقد كانوا يتوقَّعون هجومَ المسلمين عليهم، ولذلك أحكموا الحِراسة على حصونِهم، ولكنَّ اللهَ حاربَهم من داخلِ نفوسِهم، حيثُ ألقى في قلوبِهم الرعبَ والخوفَ من المسلمين، عندَ ذلك لم تنفعْهم قوةُ ومناعةُ حصونِهم، فاستسلموا وصاروا يَنْقُبون حُصونَهم ويُخربونَ بيوتَهم ليأْخُذوا متاعَهم منها.

وأوقعَ اللهُ بهم هذا العقاب، وكتبَ عليهم الجلاءَ، لأنَّهم شاقّوا اللهَ ورسولَه، وحارَبوا أولياءَه، ووقفوا أمامَ دينه، وبذلكَ حَقَّقَ اللهُ عليهم سنّته التي لا تتخلّف، لأنَّ كلَّ مَنْ شاقَّ اللهَ ورسولَه فإنّه هالكٌ معذَّب.

الاعتبار من ما جرى لليهود:

وقد دعا اللهُ المؤمنين إلى الاعتبارِ من الحادثة، واستخلاصِ دروسِها وعبرِها: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

ومن التدبّرِ والاعتبارِ تعميمُ حادثةِ إجلاءِ يهودِ بني النضير على الحالاتِ المشابهةِ للكفار، والنظرِ إلى نهاياتِ الكفارِ الآخرين من خلالِها، ولذلك نعتبرُ هذه الآياتِ وَعْداً قرآنياً بإهلاكِ الكفارِ الأعداء، على اختلافِ الزمانِ والمكان،

وقد تحقّقَ هذا الوعدُ القرآنيُّ في نماذجَ وأمثلةٍ عديدة للكفار، على مدارِ التاريخ الإسلامي!.

من وجوه الشبه بين بني النضير ومن بعدَهم:

ومن وجوهِ الشبهِ بين ما جرى ليهودِ بني النضير وبينَ مَنْ جاءَ بعْدَهم من الكفارِ الأعداء:

١ ـ قوةُ بني النضير ومناعةُ حصونِهم، بحيثُ كان الصحابةُ يُفَكِّرونَ في كيفيةِ خروجهم وإخراجِهم، وهي التي خاطبَ اللهُ بها المسلمين بقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾.

وقد جاءَ كفارٌ آخرون بعدَ بني النضير، ملكوا الكثيرَ من مظاهرِ القوةِ والمَنَعة، بحيثُ كان المسلمون يفكِّرونَ في كيفيةِ هزيمتِهم، وإضعافِ قوتِهم والقضاءِ عليهم، وكانوا يعلَمون بعجْزِهم عن مواجهتِهم.

وقد أُزيلَتْ قوى كافرةٌ في العصرِ الحديث، ما كانَ المسلمونَ يتوقَّعون إزالتَها، كالإمبراطورية البريطانية والألمانية والفرنسية والاتحادِ السوفياتي، وكهزيمةِ اليهودِ، واضطرارِهم للانسحابِ من جنوبِ لبنان!.

٢ ـ اعتمدَ بنو النضيرِ على قوّتِهم ومناعةِ حصونِهم، وأَيْقَنوا أنَّها ستحميهم وتدفعُ عنهم كلَّ خطر، حتى لو كانَ عذاباً من الله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وهكذا الكفارُ في كلِّ زمانٍ ومكان، يُعجبون بقوّتِهم وقدرتِهم، ويُفاخرونَ بها، ويَعتمدونَ عليها، ويوقنونَ أنها ستحميهم وتدفعُ عنهم.. وفي اللحظةِ الحرجةِ التي يَحتاجونَ إليها فيها لا يَجِدونَ عندها ما يُريدون! فيقعونَ مكشوفين أمامَ أَمْرِ اللهِ وعذابِه.

وكم أُعجبَ الكفارُ المعاصرونَ بقوّتِهم، ولكنَّها تحطَّمَتْ وقْتَ حاجتِهم إليها، فانهزموا وخَسِروا وهَلَكوا. لم تنفعْ هتلر قوّته العظمى، فانهزمَ ودُمِّرَت ألمانية النازية التي أنشأها. ولم تنفع الاتحادَ السوفياتيَّ قوَّتُه العظمى أمامَ مجاهدي أفغانستان!.

٣ ـ أتى عذابُ اللهِ إلى يهودِ بني النضير من حيثُ لم يَحْتَسِبوا ولم يتوقَّعوا، لقد أمِنُوا مَكْرَ اللهِ فخابوا وخَسِروا.

وقد ذَمَّ اللهُ الذين أمنوا مَكْرَه، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

إنَّ اللهَ هو الذي يُحاربُ أعداءَه الكافرين، في كلِّ زمانٍ ومكان، ويختارُ لهم من آياتِه وجنودِه ما يشاء، وفْقَ حكمتِهِ وعِلْمِه، فهو العليمُ الحكيم، ولذلك يفاجئُهم سبحانَه بأحداثٍ لا يتوقَّعونَها، ولا يستعدُّونَ لها، فتقضي عليهم.

٤ ـ السلاحُ الذي فاجأَ اللهُ به يهودَ بني النضيرِ هو الرعبُ، الذي قذَفَهُ في قلوبِهم، فقضى على معنوياتِهم وعزائِمِهم وإراداتِهم، واضطروا إلى الاستسلام، والنزولِ على حكمِ رسولِ الله ﷺ.

وهذا يدلُّ على أهميةِ الإرادةِ والعزيمةِ والمعنوياتِ العاليةِ في المعركة، والأسلحةُ وحْدَها لا تنفع، مهما كانتْ قويةً فتاكة، والاعتبارُ الأوَّلُ لليدِ التي تحملُها، والأعصابُ التي تُسَيِّرُها وتوجِّهُها.

٥ ـ تُعَلِّلُ الآياتُ ما جرى ليهودِ بني النضير، بأنَّ سببَه هو أنّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه، وتقررُ الآيةُ أنَّ كلَّ مَنْ شاقَّ اللهَ ورسولَه فهو خاسرٌ هالك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وهذا وعدٌ من اللهِ بهزيمةِ وخسارةِ كلِّ مَنْ شاقَّهُ، وحاربَ دينه، من الكفارِ، على اختلافِ الزمانِ والمكان، وقد حَقَّقَ اللهُ هذا الوعد، وأوقعَ سنَّتَه في الكفارِ السابقين على الإسلام، والكفارِ المعاصرين للرسولِ ﷺ، والكفارِ الذين حاربوا الإسلامَ فيما بعد.. وهذا الوعدُ الصادقُ سيتحققُ في كفارِ هذا الزمان!.

التحالف بين اليهود والمنافقين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٥].

بينما تحدَّثَت الآياتُ السابقةُ عن ما جرى ليهودِ بني النضير، فإنَّ هذه الآياتِ تجمعُ بينَ المنافقين واليهود، وتخبرُ عن الوعدِ الذي وعدَ به المنافقون اليهودَ، وكذبِهم فيه.

وقد عَرَفْنا من سببِ نزولِ السورةِ أنّه لما اشتدَّ الحصارُ على يهودِ بني النضير اتصلَ بهم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ زعيمُ المنافقين، ووعدَهم النصرَ والتأييدِ والمدد، وشجَّعهم على عدمِ الاستسلام، لكنَّه أَخَلَّ بوعْدِه وتخلّى عنهم، وتركَهم يواجهون مصيرَهم الأسودَ وحْدَهم.

تدعو الآياتُ إلى العجبِ من موقفِ المنافقين، حيثُ انحازوا إلى اليهودِ الكافرين، وانفصلوا عن رسولِ اللهِ ﷺ، الذي زَعَموا أنهم مؤمنون به، وتجعلُ الآياتُ المنافقينَ إخْواناً لليهودِ في الكفر.

قالَ المنافقون لإخوانِهم اليهودِ الكافرين: لئن أخرَجَكم المسلمونَ من ديارِكم فإنَّنا سنتضامَنُ معكم ونخرجُ معكم، ولن نُطيعَ أيَّ أَحَدٍ إذا أَمَرَنا بمخالفتكم، مهما كانَ ذلك الشخص، حتى لو كانَ رسولَ الله ﷺ. وإذا قاتلكم المسلمون فإننا لن نكونَ معهم، وإنما سنكونُ معكم، وسننصرُكم عليهم، ونمدُّكم بالمددِ من جماعتِنا ضدَّهم!.

وهذا الوعدُ يدلُّ على متانةِ العلاقةِ بين اليهودِ والمنافقين، وضعْفِ الصلةِ بين المنافقين والمسلمين، لأنَّ المنافقين ليسوا مسلمين في الحقيقة، وإنما هم كفارٌ إخوانٌ لليهودِ في الحقيقة.

ومع ذلك شهدَ اللهُ بأنَّ المنافقين كاذبون في وعْدِهم، وأنهم سيُخْلِفونَه؛ فإذا أُخرجَ اليهودُ لن يَخْرُجوا معهم، وإذا قوتلَ اليهودُ لن يَنْصُروهم، وإذا حاولَ المنافقون الوفاءَ بالعهدِ ونصرةَ إخوانِهم اليهود فلن ينتصروا، وسيولّي الفريقان المتحالفان الأدبار، ويُهزمونَ أمامَ المسلمين.

نحن هنا أمام وعدَيْن تذكرُهما الآيات:

الأولُ: وعدُ المنافقين بنصرةِ إخوانِهم اليهودِ وتأْييدِهم.

الثاني: وعدُ اللهِ بكذبِ المنافقين، وخلْفِهم الوعد.

ماذا حصلَ بعدَ ذلك؟.

كذبَ المنافقون، وأخلفوا إخوانَهم اليهودَ ما وعدوهم، لأنَّ الخُلفَ في الوعدِ والعجزَ عن الوفاءِ به صفةٌ ملازمةٌ للكفارِ والمنافقين.. وصدقَ اللهُ في ما وَعَدَ به وأخبرَ عنه، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وهو الأصدقُ في قولِه سبحانه!.

كذب وجبن المنافقين واليهود:

وتجمعُ الآياتُ بين الفريقَيْن المتحالِفَيْن: اليهودُ والمنافقون العرب، وتعتبِرُهما قوماً لا يَفقهون، ولذلك يَخافونَ من المؤمنين أكثرَ ممّا يخافونَ من الله، والمؤمنونَ أَشَدُّ رهبةً في صدورِهم من الله.

وتخبرُ الآياتُ عن جبنِ الفريقينِ اليهودِ والمنافقين، والجبنُ متجذِّرٌ في الشخصيةِ اليهوديةِ أكثر، فهم لا يُقاتلونَ المسلمين مجتمعين، ولا يواجهونَهم مواجهةً مكشوفة، وإذا اضطرّوا إلى مواجهتِهم وقتالِهم فإنّهم يختبئون في قرى منيعةٍ محصَّنة، أو يتمتْرَسون وراءَ جُدُرٍ وموانعَ وسواترَ تحميهم.

وهؤلاء اليهودُ يَبْدون في الظاهرِ متَّفِقين متَّحِدين مجتمِعين، وهم حريصون على (التمثيل الإعلامي) وإصدارِ عباراتٍ إعلامية كاذبة، يُعلنونَ فيها اتِّفاقَهم واتحادهم. لكنَّهم في الحقيقةِ مُختلفون مُتنازعون، وقلوبُهم مشتتةٌ متفرقة، لا يجمعُ بينها جامع، ولا يوحِّدُ بينَها شيء، حتى لو كانَ هذا الشيءُ خَطَراً ماحِقاً مدمِّراً.

وهم الذين صَدَقَ اللهُ في قولِه عنهم: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤].

العداوة والفرقة بين اليهود:

فالعداوةُ والبغضاءُ متجذرةٌ في قلوبِ اليهود، إلى يومِ القيامة، ومهما حاولوا إخفاءَها بالابتسامات، وزعْمِ التعاونِ والمحبةِ والتنسيق، فهم كاذبون في ذلك. والناظرُ إليهم من بعيد يحْسَبُهم مجتمعين، مع أنَّ قلوبَهم شتّى، مختلفةٌ متعاديةٌ متباغضة!.

والحديثُ في هذه الآياتِ ليس خاصّاً بذلك التحالفِ بين المنافقين ويهودِ بني النضيرِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وإنما هو عامٌّ يشملُ كلَّ تحالفٍ وتعاونٍ بين المنافقين واليهود حتى قيام الساعة.

وهو ينطبقُ على الصِّلاتِ السريةِ الخفيّة، بين منافقين عرب وبين اليهود، الذين أقاموا لهم دولةً على أرضِ فلسطين، حيثُ مَكَّنَ المنافقون العربُ لليهود، وتحالَفوا معهم ووالَوهم، وعملوا على تقويتِهم ودعمِهم.

وحديثُ الآياتِ عن جبنِ اليهودِ وتباغضِهم ليس خاصّاً بأولئك اليهودِ زمنَ رسولِ الله ﷺ، وإنما هو عامٌّ يشملُ اليهودَ في كلِّ زمانٍ ومكان، ولا بدَّ أنْ نلحظَ انطباقَ هذه الآياتِ وما فيها من وعودٍ قرآنيةٍ على اليهودِ على أرضِ فلسطين، في هذه الأيام.

إنهم جبناء، رغْمَ ما بين أيديهم من مظاهرِ القوةِ والتمكين، والأسلحةِ الحديثةِ المتقدّمة، ولا يُقاتلونَ المجاهدين على أرضِ فلسطين قتالاً مباشراً، يقومُ على شجاعةٍ وبسالةِ المقاتل، جنديُّهم جبان، لا يجرؤُ على مواجهةِ المجاهدين مواجهة، ولهذا يختبئون خَلْفَ ﴿قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ معاصرة، تتمثّلُ في ثكناتِهم وقواعدِهم العسكرية، والأسلاكِ الكهربائيةِ الإلكترونية، كما أنهم يقاتلون: ﴿مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ معاصرة تتمثلُ في الطائراتِ والدباباتِ والمصفَّحات!

وإذا ما اضطرَّ هؤلاء الجنودُ اليهودُ إلى مواجهةِ المجاهدين مواجهةً قتالية، فإنهم يجبنون ويخافون ويرتعدون، ويَفِرُّون منهزمين، وقد سَجَّلَ التاريخُ الحديثُ نماذجَ وأمثلةً عديدةً لجبنِ اليهودِ أمامَ المجاهدين، في فلسطين ولبنان وغيرهما.

هذا وهُمْ يملكونَ مختلفَ مظاهرِ القوةِ الماديةِ العسكرية، فكيف يفعلونَ في المستقبل، عندما يواجهون جيوشاً إسلاميةً مجاهدةً؟!.

وسترى الأجيالُ الإسلاميةُ المجاهدةُ القادمةُ تحقُّقَ وعْدِ القرآنِ عملياً، عندما تجاهدُ اليهودَ جهاداً كبيراً: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

* * *

الفَصل الثاني عَشر

الوعد القرآني في سورة الصف

سورةُ الصفِّ مدنية، وحديثُ السورةِ عن (الصَّفِّ) الإسلاميِّ المجاهد، الذي يرفعُ رايةَ الإسلام، ويجاهدُ أعداءَ الله.

وتبدأُ السورةُ بتقريرِ تسبيحِ الكونِ وما فيه لله، وتلومُ الذين تخالفُ أفعالُهم أقوالَهم، وتَدعو إلى التخلّي عن (الازدواجية) بين الفكرِ والسلوك، وتُخبرُ أنَّ اللهَ يحبُّ المجاهدين صفّاً متماسكاً متَّحِداً.

ثم تشيرُ آياتُ السورةِ إلى حَلَقَاتٍ سابقةٍ من الصَّفِّ الإسلاميِّ قبل الإسلام، فتذكُرُ صفَّ المؤمنين بموسى عليه السلام، ثم صفَّ المؤمنين بعيسى عليه السلام، وتنتقلُ إلى صفِّ المؤمنين بالرسولِ الخاتمِ محمد ﷺ، الذين انتهى إليهم الموكبُ الإيمانيُّ كلُّه. وتبينُ الآياتُ عداوةَ الكفارِ للمؤمنين، وتدعو المؤمنين إلى جهادِهم، وتعتبرُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ هو التجارةَ الرابحة، وتقدِّمُ بعضَ ثمراتِ الجهادِ ومكاسبِه في الدنيا والآخرة، وتختمُ السورةُ نداءَها الأخيرَ للمؤمنين ليكونوا أنصارَ الله، وأنْ يَقتدوا في ذلك بالحواريّين المسلمين، الذين لَبَّوا نداءَ عيسى عليه السلام، فكانوا أنصارَ الله.

فالسورةُ جهاديةٌ حركيةٌ تربوية، تأخذُ بيدِ المسلمين، وتوقفهم في الصَّفِّ الإسلاميِّ المجاهد، وتُهَيِّجُهم على جهادِ الأعداء!.

ومن الآياتِ التي تحملُ وُعوداً قرآنيةً قاطعةً صادقة، وحقائقَ قرآنيةً بيّنةً واضحة:

ظلم أهل الكتاب لكذبهم وافترائهم:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٧ـ٩].

تُقرِّرُ الآياتُ أنّه لا أَحَدَ أشدُّ ظلماً من ذلك الكافرِ الكتابيّ، الذي يُدْعى إلى الدخولِ في الإسلام، لكنَّه يرفضُ تلك الدعوةَ، ويفتري على اللهِ الكذب.

كما تقرّرُ أنَّ هؤلاءِ الكافرين الظالمين محارِبونَ للإسلام، حريصونَ على إطفاءِ نورِه، ولكنهم مهزومون، فاللهُ مُتِمُّ نورِه، ومُظهرُ الإسلامِ على الدينِ كلِّه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؟ الاستفهامُ في الآيةِ تقريريّ، يقررُ حقيقةً قاطعة، أنّه لا أَحَدَ أكبرُ ظلماً من الذي يكذبُ على اللهِ، في حالةِ دعوتِه للدخولِ في الإسلام.

ومن السنّةِ للمسلمِ عندما يقرأُ هذا السؤالَ أو يسمعُه أَنْ يُجيبَ قائلاً: لا أَحَدَ أظلمُ منه.

والحديثُ في الآيةِ عن أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنصارى، لأنَّ الآياتِ السابقةَ تتحدَّثُ عنهم، وتذمُّهم لتكذيبِهم بالرسولِ الخاتمِ محمدٍ ﷺ، وهو ما صرَّحَتْ به الآيةُ السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: لما جاءَهم الرسولُ الخاتمُ أحمدُ ﷺ بالبيّناتِ والبراهينِ كَذَّبوه، واتّهموه بأنّه ساحر، وأنَّ ما معه سحر.

وجوب دخول أهل الكتاب في الإسلام:

والمرادُ بالإسلام في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الإسلامُ الخاصُّ الذي جاءَ به الرسولُ الخاتمُ محمدٌ ﷺ.

وهذا معناه أنَّ الأديانَ السابقةَ نَسَخَها الله، ومنها اليهوديةُ والنصرانية، وأنَّ أَتْباعَها مأمورون بالدخولِ في الإسلام، والدعوةُ موجَّهةٌ لهم، وأنهم لن يَدْخُلوا الجنةَ إلاّ إذا استجابوا لها وكانوا مسلمين.

وعلى هذه الحقيقةِ آياتٌ عديدةٌ، نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ

﴿ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

عندما تُوجَّهُ الدعوةُ لليهوديِّ أو النصرانيِّ للدخولِ في الإسلام فإنه ـ غالباً ـ يرفضُ الدعوة، ويَفتري على اللهِ الكذب، فلا يَعترفُ أنَّ محمداً ﷺ هو رسولُ الله، ولا أنَّ القرآنَ كتابُ الله، وهذا افتراءٌ وكذبٌ على الله، ولهذا كان هذا المفتري أظلمَ الناس.

وبما أنّه أظلمُ الناس، فإنَّ اللهَ لا يهديه، أَيْ لا يُوَفّقَه لقَبولِ الإسلام، واللهُ لا يَهديه ولا يوفّقه لأنَّه هو الذي بدأ ذلك، برفضِه الدعوةَ إلى الإسلام، وسنَّةُ اللهِ أنه إذا رفضَ إنسانٌ الهدى فإنّه يكونُ ظالماً، واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين، ولا يوفّقُهم للخير.

حربُ أهل الكتابِ للإسلام:

وبعدما تحدَّثَت الآياتُ عن كفرِ أهلِ الكتابِ وظلْمِهم وتكذيبِهم بالحق، انتقلَتْ للحديثِ عن جريمةٍ فظيعةٍ من جرائمِهم، وهي حربُهم للدين الحقّ، فقالت: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

موقفُ أهلِ الكتابِ من الإسلامِ الدينِ الحقِّ يقومُ على خطوتَيْن:

الأُولى: الكفرُ به، ورفضُ الدخولِ فيه.

الثانية: حربُه ومواجهتُه، والحرصُ على إطفاءِ نورِه والقضاءِ عليه.

والخطوةُ الأُولى قادَتْ إلى الخطوةِ الثانية، وانتهتْ إليها، وهم بذلك قد ضلُّوا بأَنفسِهم، ثم أَضلُّوا غيرَهم، وحَرَموا أنفسَهم من الحقّ، ثم عملوا جاهِدينَ على حرمانِ غيرِهم منه.

وعَبَّرَت الآيةُ عن حربِهم للإسـلام بفعلِ ﴿يُرِيدُونَ﴾، الذي يـدلُّ على أنَّ موقفَهم من الإسلامِ مبنيٌّ على الإرادةِ، ولَيس موقفاً عَرَضياً سرعانَ ما يتغيَّر، إنهم يَعرفونَ ما يَفعلون، ويَقصدون ما يفعلون.

وجاءَ فعلُ ﴿يُرِيدُونَ﴾ بصيغةِ الفعلِ المضارع، ليدلَّ على أنَّ هذه الإرادةَ عندَ الكفارِ مستمرَّةٌ متجدّدةٌ متواصلة، لا تتوقَّفُ، وتزدادُ رسوخاً وتمكُّناً، وتتقوّى مع مُرورِ الأيام، فلا تزولُ ولا تتلاشى.

والمرادُ بنورِ اللهِ في الآيةِ: الإسلام، دينُ اللهِ الذي ختمَ به الأديان، ورضيَهُ للمسلمين ديناً، وطالبَ جميعَ الناسِ الدخولَ فيه، وهو نورٌ لأنّه يدلُّ المسلمَ على ما يريدُه اللهُ منه، ويوجبُه عليه، وهو هدى يَهْديه الطريق.

يريدون إطفاءَ نور الله بأفواههم:

وعبَّرت الآيةُ عن جهودِ الكفارِ العديدةِ المتواصلةِ لحربِ الإسلام بقولِها: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، وهي ترسمُ للكفارِ صورةً ساخرة، على أساسِ طريقةِ (التصوير القرآني) اللطيفة.

إننا عندما نقرأُ قولَه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ نتخيَّلُ في خيالِنا المصوِّر صورةَ مجموعةٍ من الرجال السُّذَّج البلهاء، يَقِفون في الشارع، في ظهرِ يومٍ صيفيٍّ حارّ، وقد آذاهم حَرُّ الشمس، وأرادوا التخلُّصَ منه، فراحوا ينفخونَ على الشمسِ ليطفئوها! وهي حركةٌ سخيفةٌ ساذجة!.

وهكذا محاولاتُ الكفارِ لحربِ هذا الدين، إنّها محاولاتٌ فاشلةٌ خاسرة، ولن ينجحوا في هدفِهم، وما أسلحتُهم في حربِ الإسلامِ إلا أنفاسٌ ضعيفة، لا تتجاوزُ أفواهَ أصحابِها، وصدقَ فيهم القائل:

كَنَـاطِـحٍ صَخْـرَةً يَـوْمـاً لِيفْلِقَهـا   فَلَـم يضِـرْهَـا وَأَوْهَـى قَـرْنَـهُ الـوَعِـلُ

لماذا لا يقضون على الإسلام؟:

لماذا لا يَنجحُ الكفارُ في القضاءِ على الإسلام؟.

لأنَّ الإسلامَ هو نورُ الله، الذي يُنيرُ للناسِ حياتَهم، ويُبدّدُ الظلماتِ من حولِهم، ولأنّه لا نورَ ولا هُدى ولا حَقَّ في غيرِه، وقد رحمَ به اللهُ الناسَ جميعاً، وأسعدَهم به في الدنيا والآخرة، إنْ هم قَبِلوهُ وأَخَذوه والتزموا به! فإنْ نجحَ الكفارُ في القضاءِ عليه أوقعوا الناسَ في الظلامِ والضياعِ والضلال، واللهُ الحليمُ الرحيمُ يأبى ذلك!.

ثم إنَّ نجاحَ الكفارِ في القضاءِ على الإسلام معناهُ أنّهم غَلَبوا اللهَ وأعجزوه، وأوقفوا قدرَه، ووَقَفوا أمامَ إرادتِه، وعطَّلوا مشيئتَه!! وهذا مستحيلٌ عقلاً وشرعاً، فالله سبحانه هو القويُّ العزيز، القادر القاهر، غالبٌ على أمره، ينفذُ

مشيئتَه، ويحققُ إرادتَه، ولا يُعجزُه سبحانَه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، ولا تَقفُ أمامَهُ أيةُ قوةٍ مهما عَظُمَتْ!!.

وقد أخبرت الآيةُ عن هذه الحقيقةِ بقولِها: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. والإتمامُ هنا بمعنى الإكمال. و﴿مُتِمُّ﴾ اسمُ فاعل. والتعبيرُ باسمِ الفاعلِ هنا للدلالةِ على الثباتِ والاستقرار.

والحقيقةُ المقررةُ هنا إتمامُ وإكمالُ الإسلام، وقد أكَّدَتْ هذه الحقيقةَ آياتٌ أُخرى من القرآن كَقولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الله متم نوره وناصر دينه:

اللهُ متمُّ نورِه، وناصرُ دينِه، ولو كرهَ الكافرون ذلك، ولو حارَبوا دينَه، وأرادوا إطْفاءَ نورِه بأفواهِهم، فكُرْهُهُم لا قيمةَ له عندَ الله، وحربُهم لدينِه معروفةٌ نهايتُها سَلَفاً، قبلَ خوضِهم لها.

ووضَّحَت السورةُ معنى جملة: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ في الآيةِ التاليةِ مباشرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

﴿رَسُولَهُۥ﴾ المذكورُ في الآية هو خاتمُ الرسلِ والأنبياء، ﷺ.

و﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾: هنا هو الإسلام، الذي جاءَ بهِ خاتمُ المرسلين ﷺ، ووَصْفُه بالدينِ الحق، يدلُّ على أنَّ ما سواهُ من الأديان باطل، حتى لو كانَ أَصْلُها سماوياً، كاليهوديةِ والنصرانية، لأنَّ أصحابَها حَرَّفوها، فنسخَها الله.

وكونُها ليست الدينَ الحق، وردَ صريحاً في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

واللامُ في قولِه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: لامُ العاقبة. أيْ: عاقبةُ ونتيجةُ إرسالِ الرسولِ ﷺ بالإسلامِ الدينِ الحَقِّ هي أنْ يُظهرَه اللهُ على الدينِ كلِّه.

والإظهارُ هنا بمعنى النصر والغَلَبة، والظهورِ والتمكُّنِ والسيادة.

والمرادُ بالدينِ كلِّه هنا: جميعُ الأديانِ، ذاتِ الأَصْلِ السَّماوي، وذاتِ

الأصلِ الأرضيِّ البشري، والمذاهبِ والأفكارِ والمبادئ والنُّظُمِ التي يؤمنُ بها الناسُ ويَدْعونَ إليها.

الوعد بإظهار الإسلام على الدين كله:

اللهُ سيظهرُ الإسلامَ على هذه الأديانِ والمذاهبِ كلِّها، وسيبقى الإسلامُ ظاهراً منتصراً عليها حتى قيامِ الساعة.

وسبقَ أنْ أَشَرْنا إلى أنَّ ظهورَ الإسلام على الدينِ كلِّه له جانبان:

الأول: ظهورٌ مادي: يتمثّلُ في رسوخِ الإسلام وقوته، والتمكينِ له في بلادِ المسلمين، وفشلِ جهودِ الكفارِ في القضاءِ عليه وإزالتِه في هذه البلاد.

ورغمَ إقصاءِ الإسلامِ عن الوجودِ السياسيِّ في بلادِ المسلمين، فإنَّه راسخٌ متجذّرٌ في هذه البلاد.

الثاني: ظهورٌ معنوي: يتمثّلُ في قوةِ حججِ الإسلام وبراهينِه، ووضوحِ حقائقِه وتشريعاتِه، والانتصارِ لمضامينه وتوجيهاتِه.. إنَّ حجةَ الإسلامِ هي الأقوى، بحيثُ لا يقفُ أمامَه فكرٌ أو دينٌ أو مذهب، وما من لقاءٍ فكريٍّ بين الإسلامِ وغيرِه إلا كانَ الإسلامُ فيه هو الظاهرَ الغالبَ.. وما من مفكّرٍ أو داعيةٍ اشتركَ في حوارٍ أو نقاشٍ أو مؤتمر، مع أيِّ مفكّرٍ يتبعُ أيَّ دينٍ أو مذهب، إلاّ كان المفكّرُ المسلمُ هو المنتصر، لأنه يتكلّم بالحق، وخصمُه يتكلّمُ بالباطل، والحقُّ ظاهرٌ دائماً على الباطل، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

إظهار الإسلام في سورتي الصف والتوبة:

وهذه الآياتُ من سورةِ الصف قريبةٌ من آياتٍ أُخرى في سورةِ التوبة، ومعلومٌ أنَّ سورةَ الصفِّ نزلَتْ قبلَ سورةِ التوبة، لأنَّ سورةَ الصفِّ تُرَغِّبُ المسلمينَ في الجهاد، وهذا كان في السنواتِ الأُولى بعدَ الهجرة، أما سورةُ التوبةِ فقد كانَ نزولُها متأَخِّراً، بعد السنةِ التاسعةِ من الهجرة، لأنَّ نزولَها كان بعدَ غزوةِ تبوك.

ورغمَ أنَّ الآياتِ في السورَتَيْن تقدّمان وَعْداً قرآنياً صادقاً جازماً بانتصارِ الإسلام وظهورِه، إلاّ أنَّ بينَها بعضَ الفروقِ في التعبير.

قال تعالى في سورةِ الصف: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ـ٩].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ـ٣٣].

الآيةُ الثانيةُ في السورتَيْن واحدة، ولا فرقَ في كلماتِها وصياغتِها وتعبيرِها. إنما الفرقُ في الآيةِ الأولى.

تتكوَّنُ الآيةُ الأولى من ثلاث جمل:

الأولى: قالَ في سورة الصف: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾. وقال في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

المفعولُ به لفعْلِ ﴿يُرِيدُونَ﴾ في سورةِ الصَّفِّ محذوف، وجملةُ ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ تعليليةٌ، تُعَلِّلُ للمفعولِ به المحذوف، فهي في محلِّ نصْبِ مفعولٍ لأجلِه، والتقديرُ: يريدونَ حربَ الإسلامِ لإطفاءِ نورِ الله.

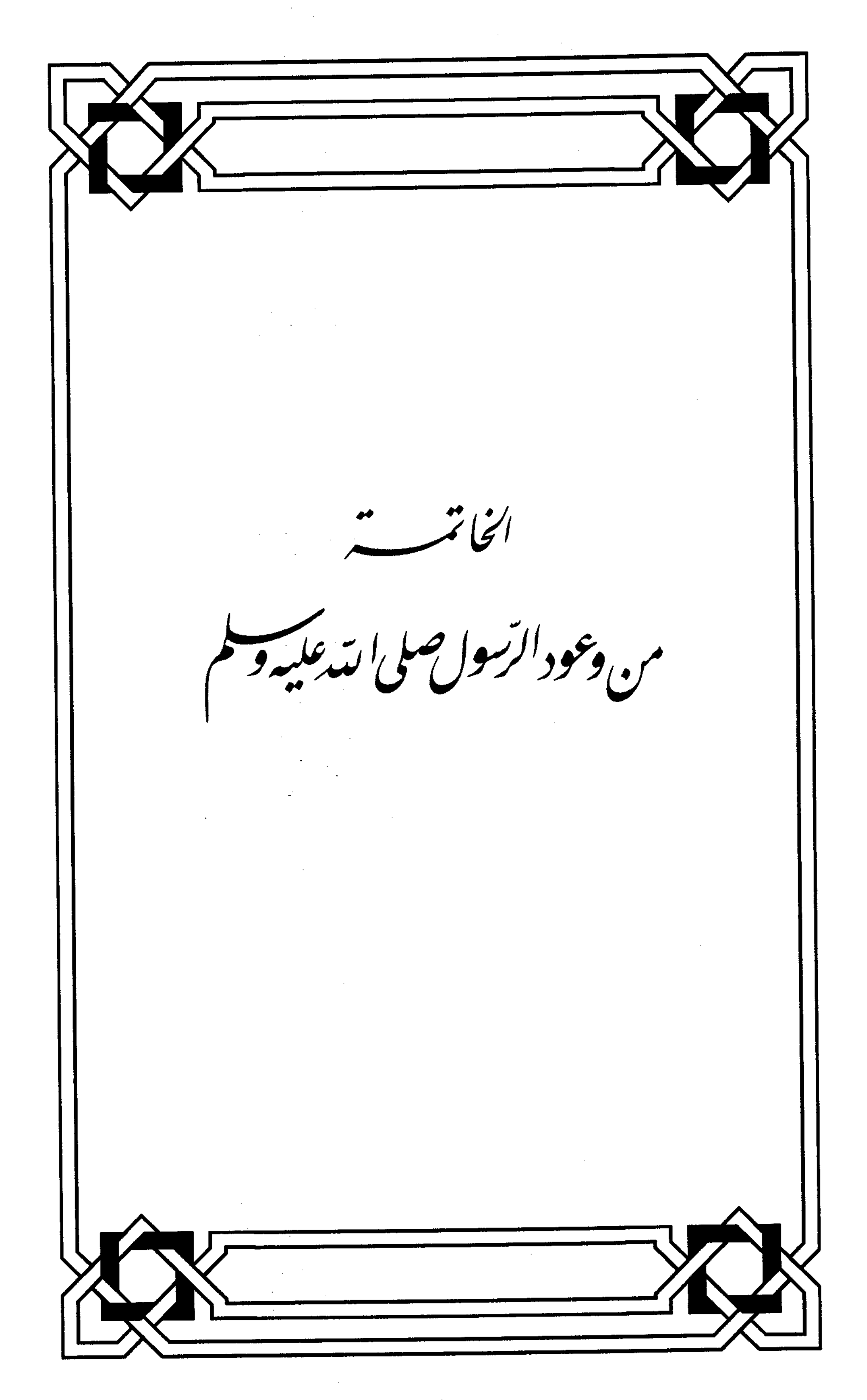
بينما المفعولُ به لفعل ﴿يُرِيدُونَ﴾ في سورةِ التوبة هو المصدرُ المؤَوَّل. والتقدير: يُريدونَ إطفاءَ نورِ اللهِ بأفواهِهم.

الثانية: قال تعالى في سورةِ الصف: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾. وقال في سورةِ التوبة: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾. فالتأكيدُ في آيةِ سورةِ التوبةِ أكثرُ منه في سورةِ الصف.

الثالثة: في السورتَيْن واحدة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

والملاحَظُ أنَّ الوعْدَ في سورةِ التوبةِ أكثرُ تأكيداً منه في سورةِ الصف، لأنَّ سورةَ التوبة نزلَت بعدَ سورةِ الصفِّ بسنوات.. ولكنَّ السورتَيْن تلتقيانِ على تأكيدِ تحقّقِ الوعْدِ القرآنيِّ بانتصارِ الإسلامِ وظهورِه والتمكينِ له، واستمرارِ هذا الوعدِ حتى قيامِ الساعة.

* * *



الخاتمة

من وعود الرسول صلى الله عليه وسلم



الخاتمة

من وعود الرسول صلى الله عليه وسلم

كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أكثرَ المسلمينَ تصديقاً وثقةً بتحققِ ما وعده اللهُ به، ويقيناً بانطباقِ الوعودِ القرآنية، التي عرضْنا لأهمّها في المباحثِ السابقة.

وقد بدأَ ﷺ الدعوة إلى الله بمفرده، واستقبلَه المشركونَ بالأذى والحرب، فصبرَ وثبت، وواصلَ دعوتَه، واتَّبَعَه أُناسٌ قلائل، وصاروا يتزايدون، وثَبَتـوا على إيذاءِ واضطهادِ وتعذيبِ المشركين. . وبدأت المعاركُ بعدَ الهجرة، وصارَ أمْرُ الإسلامِ في صعود، وأَمْرُ الكفرِ في اضمحلال. . وما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، بعدَ ثلاثةٍ وعشرين عاماً من بعثتِه ودعوتِه المتواصلة، حتى دخلت الجزيرةُ العربية كلُّها في الإسلام.

أحاديث مبشرة بانتصار الإسلام:

وقد كان رسولُ اللهِ ﷺ يبشِّرُ أصحابَه بانتصارِ الإسلام والتمكينِ له، وروى الصحابةُ عنه عدّة أحاديث صحيحة، قَدَّمَ فيها وعوداً صادقةً بالتمكينِ للإسلام، وانتشارِه في المشارقِ والمغارب، وظهورِه على كلِّ الأديانِ والمذاهب!.

واستعراضُ هذه الأحاديثِ الصحيحة ليس من هدفِنا في هذا الكتاب، لأنَّنا خصَّصْناه لاستعراضِ وعودِ القرآنِ بالتمكينِ للإسلام.

وقد ذكرَ رُواةُ الحديث وكتَّابُ السيرةِ كثيراً من تلكَ الوعودِ النبويةِ في الأحاديث، وعرضَ كثيراً منها الإمامُ أبو بكر أحمدُ بن الحسين البيهقي في كتابه: (دلائلُ النبوة و معرفةُ أحوالِ صاحبِ الشريعة)، حيثُ خصَّصَ لتلك الوعودِ النبويةِ السفْرَ السادسَ والسفْرَ السابعَ من الكتاب. وننصحُ بقراءَتِهما والاستفادةِ منهما.

وأصدرَ بعضُ العلماءِ والدعاةِ المعاصرين كتباً بشَّروا فيها بأنَّ المستقبلَ للإسـلام، من أهمِّها: (المسـتقبلُ لهذا الدين) للمفكر الشـهيد سـيد قطـب،

و(الإسـلام ومسـتقبل البشرية) للداعية المجاهد الدكتـور عبد الله عـزام، و(المبشرات بانتصار الإسلام) للفقيه الداعية الدكتور يوسف القرضاوي.

وأحبَبْنا أنْ نختمَ حديثَنا عنِ وعودِ القرآنِ بذكْرِ ثلاثةِ وعودٍ عمليةٍ للرسولِ ﷺ، تحققَت بعدَ وفاتِه مباشرةً، وشاهَدَ تحقُّقَها الصحابةُ الذين وُعِدوا بها!.

أولاً ـ وعد رسول الله ﷺ لخباب بن الأرتّ رضي الله عنه:

روى البخاريُّ في كتابِ مناقبِ الأنصار، عن خَبَّابٍ رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ، وهو متوسِّدٌ بُرْدَة، وهو في ظلِّ الكعبة، وقد لَقينا من المشركين شِدَّة. فقلتُ: ألا تدعو اللهَ!.

فقعدَ وهو مُحْمَرٌّ وَجْهُه، فقال: «لقد كـانَ مَنْ قبلَكُم لَيُمْشَـطُ بمشـاطِ الحديد، ما دونَ عظامِهِ من لحمٍ أو عَصَب، ما يصرفُه ذلكَ عن دينِه.. ويوضَعُ المنشارُ على مَفْرِقِ رأسِه، فيُشَقُّ باثنَيْن، ما يصرفُه ذلك عن دينه.. ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت، ما يخافُ إلاّ اللهَ، والذئبَ على غنمه» [البخاري برقم: ٣٨٥٢].

يخبرُ خبَّابُ بنُ الأرَتِّ رضي الله عنه عن ما كانَ يُلاقيهِ المسلمون في مكة من الأذى، في السنواتِ الأُولى من البعثة، حيثُ كانَ المشركونَ يضطهدونَهم ويعذّبونَهم، وكانَ المسلمونَ يواجهونَ هذا بالصبرِ والاحتسابِ والثبات.

ويبدو أنَّ خبَّاباً رضي الله عنه كان خارجاً من شدَّةٍ ومحنةٍ وأذى ـ لقولِه: وقد لَقينا من المشركين شدّة ـ فأتى الكعبة، ووَجَدَ عندَها رسولَ اللهِ ﷺ، مضطجعاً في ظلِّها، متوسِّداً بُرْدَةً له، يجعلُها كالوسادةِ تحتَ رأسِه.

فطلبَ خَبَّابٌ منه الدعاء، وقالَ له: ألا تدعو الله!.

وطَلَبُ خَبَّابٍ رضي الله عنه في موضِعِه، فالأذى يقعُ بهم من المشركين، ويزدادُ ويتصاعَدُ باستمرار، وهم صابِرون ثابتون محتسِبون، ولكنَّهم يرغبون في الفَرَج، فطلبَ خَبَّابٌ منه أَنْ يَدْعوَ اللهَ لهم، لأنَّ دعاءَه ﷺ مستجابٌ عندَ الله. ولم يكن طلبُ خَبَّابٍ رضي الله عنه ناتجاً عن شكٍّ بالحق، ولا عن يَأْسٍ وإحباط، ولا عن استبعادٍ للفَرَجِ والنصر.

ومع ذلك لم يرضَ رسولُ الله ﷺ من طلبِه، ولذلكَ قعَدَ وهو غاضبٌ، وقد احمرَّ وجْهُه من الغضب.

لماذا غضبَ رسولُ اللهِ ﷺ من طَلَبِ خبّاب؟.

إنَّ خَبَّاباً لم يُخطئ في طلبِـه، لكنَّ الرسولَ ﷺ يريدُ له وللمسـلمين أنْ يُواجهوا أذى المشركين بالاستمرارِ في الصبرِ والثباتِ، وكلَّما صَعَّدَ الكفارُ أذاهم وتعذيبَهم، كلَّما ضاعفَ المسلمونَ صبْرَهم واحتسابَهم، فهذا الصبرُ والثباتُ زادٌ ضروريّ، يتجاوزونَ به هذه المرحلةَ القاسية، وهو مَدَدٌ لهم، يُقَوّي ثقتَهم ويَقينَهم بقدومِ الفَرَجِ والنصر.

الرسولُ يبيّن لخباب طريق الدعوة:

أرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يُبيِّنَ لخَبَّابٍ والمسلمين أنَّ هذه هي طريقُ الدعوة، وأنَّها مرحلةٌ لا بُدَّ أنْ يعيشَها المسلمون، ويَصْبروا على مشقَّتِها وقسوتِها، ولا بدَّ أنْ تأخذَ بأيديهم إلى المرحلةِ التالية، حيثُ الفَرَجُ والنصرُ والتمكين. فلا فَرَجَ إلاّ بعدَ الشِّدَّةِ والكَرْب، ولا تمكينَ إلاّ بعدَ المحنةِ والأذى!.

ولذلك ذَكَرَ الرسولُ ﷺ لخَبّابٍ بعضَ ما كان المسلمونَ السابقون يُلاقونَه من الشِّدَّةِ والمحنة، حيثُ كان الأعداءُ الكفارُ يعذّبونَ أحدَهم تعذيباً بشعاً، بأنْ يَمْشُطوا لحْمَه بمشاطِ الحديد، ويَكْشِطوه كَشْطاً، ويُزيلونَه عن العظم، وهو صابرٌ محتسِبٌ، حتى يلقى اللهَ شهيداً، ويُعَذِّبونَ آخرَ بنَشْرِه بالمنشار، يَنزلونَ به من مفرقِ رأْسِه إلى رجلَيْه، فيُشَقُّ إلى شقَّيْنِ منفصلَيْن، وهو ثابتٌ صابر، حتى يلقى اللهَ شهيداً. وعلى المسلمين أنْ يَقْتدوا بمنْ سَبَقَهم في صبرِهم وثباتِهم.

الرسولُ يَعِدُ خباباً بالنصر:

بشَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ خَبَّاباً رضي الله عنه بالفَرَج، ووَعَدَه بالنصرِ والظهورِ والتمكين، وأكَّدَ ذلك الوعدَ بقوله: «ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمْر». وإتمامُ الإسلامِ بانتصارِه وانتشارِه، ودخولِ الناسِ فيه أفواجاً.

والقضاءُ على الشرك، وانتصارُ الإسلامِ في الجزيرةِ العربية ينتجُ عنه إزالةُ مظاهرِ الخوفِ والخطر، والسلبِ والنهب، والعدوانِ والقتل، وهي التي كانتْ

منتشرةً في مختلفِ مناطقِ الجزيرة، حيث كان قُطَّاعُ الطرقِ يَعْتَدون على مَنْ يُسافرُ في الجزيرة، ويتنقلُ بينَ مناطقِها.

وَعَدَ الرسولُ ﷺ خَبَّاباً بأَنْ يَسيرَ الراكبُ المسافرُ من صنعاءَ عاصمةِ اليمنِ إلى حضرموتَ وهو آمنٌ مطمئنٌ، لا يَخافُ إلاّ الله، ويَخافُ اعتداءَ الذئبِ على غنمِه!.

وهذا معناهُ: إزالةُ أسبابِ الخوفِ والخطر، والقضاءُ على المعتدين السارقين قُطَّاع الطرق.

وقد كانت الطريقُ بين صنعاءَ وحضرموت صحراويةً موحشةً خطرة، لا يأْمَنُ فيها أَحَدٌ، على نفسهِ أو مالِه أو أهلِه.

ومَرَّت السنوات، واجتازَ المسلمونَ مرحلةَ الشِّدَّةِ والمحنةِ في مكة، وعاشوا مرحلةَ التمكينِ في المدينة، وقُبيلَ وفاةِ الرسولِ ﷺ انتشرَ الإسلامُ في جزيرةِ العرب، وتحقّقَ الأمنُ على طرقِها، وصارَ الراكبُ المسافرُ يَسيرُ آمِناً مطمئناً، على الطريقِ بين صنعاءَ وحضرموت، لا يخافُ إلاّ الله، والذئبَ على غنمِه!.

وكانَ خَبَّابُ بن الأرتِّ رضي الله عنه يَرى هذا، فيحمدُ اللهَ ويشكُرُه، ويتذكَّرُ هذا الوعدَ الصادقَ الذي وعدَهُ به رسول الله ﷺ قبلَ عشرينَ سنة تقريباً، فيخبرُ المسلمين به ليزدادَ يقينُهم بتحققِ كلِّ ما وعدَهم به اللهُ ورسولُه ﷺ.

ثانياً ـ وعد الرسول ﷺ لسراقة بن مالك رضي الله عنه:

هاجرَ رسولُ اللهِ ﷺ مع أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه من مكةَ إلى المدينة، وهو طريدٌ، مطلوبٌ القبض عليه، وقد وجَّهَتْ قريشٌ عيونَها في كلِّ مكان، تبحثُ عنه لتقتلَه، ووعَدَتْ بتقديم مئتي ناقةٍ جائزةً لمن يأْتيها به، وهي جائزةٌ ثمينةٌ جداً في ذلك الوقت.

ومع ذلك لم يفارقْه ﷺ يَقينُه بأنَّ اللهَ معه، وأنّه سينصرُ دينَه، ويُظهرُه على الدينِ كلِّه.

وقد وقعتْ له أثناءَ الهجرةِ حادثةٌ عجيبةٌ مع سراقةَ بن مالك، قَدَّمَ له فيها وعداً، وتحقَّقَ ذلك الوعدُ فيما بعد.

سراقة بن مالك يروي الحادثة :

وقد روى المحدِّثون والمؤرِّخون تلك الحادثةَ بإجمالٍ وتفصيلٍ عن سراقة نفسه ، حَدَّثَ فيها عن وعدِ الرسولِ ﷺ له .

ذَكَرَ الإمامُ البيهقيُّ في كتابه (دلائل النبوة) قصةَ وعْدِ الرسولِ ﷺ لسراقة .

قال سراقةُ بنُ مالك رضي الله عنه : لما هاجرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينة جاءَنا رسُـلٌ من كفارِ قريش ، وأخبرونا أنّهم وضعوا في رسولِ الله ﷺ وصاحبِه أبي بكر رضي الله عنه مئتي ناقة .

وبينما أنا جالسٌ في نادي قومي (بني مُدْلِج) إذ جاءَ رجلٌ منّـا ، فقال : يا سراقة ! إنّي رأيتُ ركْباً ثلاثة ، يَسيرونَ على طريقِ الساحل ، ما أراهم إلاّ محمداً وأصحابَه ! ! .

فقلتُ له : إنهم ليسوا هم . وإنما رأيتَ فلاناً وفلاناً . وذلك لأصرفَه عنهم ، وأفوزَ أنا بالجائزة ! .

فمكثْتُ قليـلاً ، ولما خرجَ مَن في المجلـس قلتُ لجاريتي : اخْرُجي بفرسي ، واحْبِسيها عليَّ وراءَ الأَكَمَة ، لئلاّ يَراها أحدٌ من قومي . . ثم أخذتُ رمحي ، وخرجتُ من ظهرِ البيت ، وحرصْتُ على أنْ لا يراني أَحَد . . حتى أتيتُ فرسي فركبْتُها ولحقتُ بالركب . . وأخرجْتُ قداحي التي أستقسمُ بها ، فخرجَ السهمُ الذي أكرهُه ، والذي فيه : إنك لا تضُرُّه . . فعصيتُ الأزلامَ وتابعتُ السير .

ولما كنتُ قريباً منهم سمعتُ قراءةَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وهو لا يلتفتُ ، وأبو بكر يُكثِرُ التَلَفُّت . .

ولما اقتربتُ منهم ساخَتْ يَدا فرسي ، وغاصَتا في الرمال ، فوثبْتُ عنها حتى لا أُوذى ، ثم زجرْتُها فنهَضَتْ ، ولم تكدْ تُخْرِجُ يدَيْها ، ولما استوَتْ قائمةً إذا لأثَرِ يَدَيْها دخانٌ صاعدٌ في السماء . . فاستقسَمْتُ بالأزْلام ، فخرجَ السهمُ الذي أكره : إنك لا تَضُرُّهم ، فلم أَستجِبْ للأزلام ! .

فلمَّا اقتربْتُ منهم ، ساخَتْ يَدا فرسي ، وغاصتا في الرمالِ مرةً ثانية . . فعلمتُ أنّه ممنوعٌ مني ، وأنني لنْ أَصِلَ إليه ، وأنه ظاهرٌ منصور .

فناديتُهما بالأمـان، فوقفا لي. وقلت: انتظـرا، واللهِ لا أُوذيكُما، ولا يأْتيكما منّي شيئاً تكرهانه!.

وقلتُ للرسولِ ﷺ: إنَّ قومَكَ قد جعلوا فيكما الدية! وأخبرتُه بأخبارِ الناس!.

وعرَضْتُ عليهما الزادَ والمتاع، فلم يَأْخُذا منّي شيئاً، وقالَ لي رسولُ الله ﷺ: «أخْفِ عنّا». ثم سألْتُ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يكتبَ لي كتابَ موادعةٍ وأمانٍ آمَنُ به، فأَمَرَ عامرَ بنَ فهيرةَ فكتبَ الكتاب..

ونظرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى ذراعي، وقال لي: «كأنّي بك وقد أُلبِسْتَ سوارَيْ كسرى».

ومضى رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينة، وعدتُ أنا إلى قومي، وكلّما أرى أُناساً يَبحثونَ عن رسولِ الله ﷺ أصرفُهم عن السيرِ في ذلك الطريق، وأقولُ لهم: لقد كُفيتُموه، فأنا قادمٌ منه!!.

وعد الرسول لسراقة بسواري كسرى:

لقد كان رسول الله ﷺ واثقاً من نصْرِ الله، موقناً أنَّ المستقبلَ لدينه، وأنّه سينتصرُ وينتشرُ في الأرض، ولم يفارقْهُ هذا اليقينُ لحظةً من حياتِه، حتى وهو مطارَدٌ في الأرض.

فها هو مطلوبٌ القبض عليه، وقريشٌ تبعثُ عيونَها في كلِّ مكان، وتضعُ الإبلَ الكثيرةَ جائزةً لمن يأْتيها به، أو يخبرُ عنه.

ومع ذلك الرسولُ ﷺ واثقٌ ثقةً مطلقةً أنّه سيتجاوزُ هذه الحالة، وما فيها من شِدَّةٍ ومحنة، وأنَّ الفَرَجَ سيعقُبُ الكَرْب، وأنّه سوفَ يَنتصرُ ويَظْهرُ دينُه، وتُفتَح له البلادُ والعباد.

ولِذلكَ يَكتبُ كتابَ أمانٍ للرجلِ المشركِ الذي جاءَ ليأْخُذَه للمشركين!!. وهذا عَجَب! فالمطارَدُ الغريبُ الضاربُ في الصحراء في منتهى الأمان، يكتبُ كتابَ أمانٍ وموادعةٍ للرجلِ الطامع، الذي جاءَ لإلقاءِ القبضِ عليه!!.

ولا يكتفي بهذا ﷺ، وإنّما يَعِدُ الكافرَ الذي يَطلبه، أنّه سوفَ يُسْلِم، وسَيَبْقى حياً، حتى يرى انتصارَ الإسلامِ وهزيمةَ الكفار، وسيرى هزيمةَ دولةِ الفرس، وسيلبَسُ سوارَيْ كسرى!.

هكذا كان أَمَلُ رسولِ الله ﷺ بالنصر، وهكذا كان يقينُه بتحقُّقِ ما وعَدَهُ به الله!.

ومَضَتْ ثماني سنوات على كتابِ الأمانِ الذي مع سراقة بن مالك، شهدَ فيها انتصارَ الإسلام واندحارَ الشرك، وتوجَّهَ الرسولُ ﷺ في السنةِ الثامنةِ لفتحِ مكة.

وأتاهُ سراقةُ بنُ مالك قبلَ دخولِه مكة، ومعه كتابُ الأمانِ الذي كَتَبَه له، فوَجَدَهُ وسطَ الجيش، وأرادَ أَنْ يَخلصَ إليه، فمَنَعَه المسلمون خوفاً على رسولِ الله ﷺ منه، وقالوا له: إلَيْكَ، إلَيْك، ابْتَعِدْ!!.

فرفعَ سراقةُ يدَه بالكتاب، ونادى رسولَ الله ﷺ، قائلاً: يا رسولَ الله! هذا كتابك!.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يومُ وَفاءٍ و برّ.. أُدْنُ».

فدنا سراقةُ بنُ مالك من رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه بين يديه، وكان سراقة بن مالك منذُ أنْ رأى حمايةَ اللهِ لرسولِه ﷺ وهو في طريقِ الهجرة، يَجهرُ بتأييدِ رسولِ الله ﷺ، رغمَ أنّه لم يسلمْ رضي الله عنه إلاّ يومَ فتحِ مكة.

وقد كانَ أبو جهل (أبو الحكم) زعيمُ المشركين يَنهى سراقةَ عن ذلك، ويُهَيِّجُ قبيلتَه بني مُدْلِج عليه ليَمْنَعوه. وكان مما قالَه أبو جهلٍ لهم:

بَنِي مُدْلِجٍ إنّي أخافُ سَفِيْهَكُمْ ... سُراقَةَ مُسْتَغْوٍ لنَصْرِ مُحَمَّدِ
عَلَيْكُم بِهِ أَلاّ يُفَرِّقَ جَمْعَكُم ... فَيُصْبِحَ شَتّى بَعْدَ عِزٍّ وَسُؤْدُدِ

ولكنَّ سراقةَ بنَ مالك رَدَّ على أبي جهلٍ قائلاً:

أبا حَكَمٍ وَاللاّتِ لَوْ كُنْتَ شاهِداً ... لأمْرِ جَوادي إذْ تَسِيْخُ قَوائِمُهْ
عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّداً ... نَبِيٌّ وَبُرْهانٌ فَمَنْ ذا يُقاوِمُهْ

عَلَيْكَ بكَفِّ النَّاسِ عَنْهُ فإنَّنِي	أَرَى أَمْرَهُ يَوْماً سَتَبْدُو مَعَالِمُهْ
بِأَمْرٍ يَوَدُّ النَّصْرُ فيه بِإِلْبِهَا	لَو انَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَوماً تُسالِمُهْ

ولما أسلمَ سراقة بنُ مالك رضي الله عنه أمامَ رسولِ الله ﷺ، وقفَ يتعلَّمُ منه، فسألَهُ قائلاً: يا رسولَ الله! الضالَّةُ تَغْشى حِياضي التي مَلأتُها لإبلي لتشربَ منها، فهل لي من أَجْرٍ إنْ سَقَيْتُها؟.

فقالَ ﷺ: «نعم. لكَ في كُلِّ كَبِدٍ حَرَّى أَجْر». [دلائل النبوة للبيهقي بتحقيق القلعجي: ٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٩].

وعاشَ سراقةُ بنُ مالك رضي الله عنه مع رسولِ اللهِ ﷺ، صَحابياً صَادقاً مُلتزِماً، يَسوقُ إليهِ صَدَقَتَه، ويُقَدِّمُ إليه زكاتَه، ويتعلَّمُ منه العلم. ولما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، عاشَ مع أبي بكرِ الصِّدّيق رضي الله عنه خلافتَه، ثم عاشَ مع عمر صدراً من خلافته، وهو متذكِّرٌ وَعْدَ رسولِ اللهِ ﷺ له أنْ يَلبَسَ سِوارَيْ كسرى!.

سوارا كسرى في يدي سراقة بن مالك:

وبدأَتْ حركةُ الجهادِ في العراقِ والشامِ ومصر، وتوجَّهَ المسلمونَ لفتحِ عاصمةِ كسرى (المدائن).

وفي السنةِ السادسة عشرة من الهجرة دخلَ القائدُ المجاهدُ سعدُ بن أبي وقَّاص رضي الله عنه منصوراً، وفرَّ كِسرى من قصرِه الأبيض، ودَخَلَه المسلمون، وجَمَعُوا ما فيهِ من الكنوزِ والأموالِ والذخائر والنفائس، ومن ذلك سوارا كسرى وبساطُه وسلاحُه، وبَعَثُوا بها إلى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان سراقةُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه في المدينة، فاستَدْعاهُ عمر، ليحقّقَ له وعْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، الذي وَعَدَه به قبلَ ستةَ عشرَ عاماً، فها هما سوارا كسرى عند عمر، يَنْظُرُ لهما الصحابةُ متعجّبين شاكرين اللهَ سبحانه.

طلبَ عمرُ من سراقةَ رضي الله عنهما أَنْ يلبسَ سوارَيْ كسرى، والصحابةُ يَنظرونَ إليه..

لبسَ سراقةُ بنُ مالك سوارَيْ كسرى في يَدَيْه، ولبسَ سراويلَ كسرى وقميصَه وخُفَّيْه، وحملَ سيفَه ومنطقَتَه.. فعلَ ذلك وسط إعجابِ وانفعالِ ودهشةِ الصحابة.

ثم قال له عمر: قل يا سراقة: اللهُ أكبر. فقال سراقة: اللهُ أكبر.. ثم قال له: يا سراقة! قل: الحمدُ لله الذي سلبَهما كسرى بنَ هرمز، وألبَسَهما سراقةَ بنَ مالك، أعرابياً من بني مُدْلِج.

وقال له عمر، وهو مازالَ لابساً كسوةَ كسرى: أَدْبِرْ. فأَدْبَرَ.. ثم قالَ له: أَقْبِلْ، فأَقْبَلَ!! أَيْ: أنْ يَتحرَّكَ سراقةُ أمامَ الصحابة، ويستعرضَ كسوةَ كسرى وهي عليه!!.

ثم قالَ له: بخٍ، بَخٍ، أُعَيْرَابيٌّ من بني مدلج، عليه قِباءُ كسرى وسراويلُه، وسيفُه ومنطقته، وخفّاه وسواراه!! رُبَّ يومٍ يا سُراقةَ بنَ مالك، لو كانَ عليكَ فيه هذا من متاعِ كسرى وآلِ كسرى، كانَ شَرَفاً لك ولقومِك! انْزَعْ!! فَنَزَعَهُ سراقة. [تاريخ ابن كثير: ٧/ ٦٨].

وهكذا حقّقَ اللهُ وعْدَ رسولِ اللهِ ﷺ لسراقَةَ بن مالك، وهَزَمَ كسرى، ونَصَرَ الإسلام، ولبس سراقةُ سوارَيْ كسرى وزينَتَه، بعد ست عشرةَ سنةً من ذلك الوعدِ النبويِّ الكريم.

ثالثاً ـ وعود رسولِ الله ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه:

عَدِيُّ بنُ حاتم، هو ابنُ حاتم الطّائيّ، الكريمِ العربيِّ المشهور، أكرمِ العرب، الذي يُضرَبُ به المثلُ في الكرمِ، وقد ماتَ حاتمُ الطائيُّ قبلَ الإسلام.

كان عَدِيُّ بنُ حاتم نصرانياً، وكان زعيماً لقومِه (طَيِّئ) بعدَ وفاةِ أبيه. ولما سمعَ ببعثةِ محمدٍ ﷺ كرهَهُ كراهيةً شديدة، وملأَ قلبَه بُغْضاً له، وحقداً عليه لا لشيءٍ إلاَّ لأنَّ عَدِيّاً نصراني، ومحمداً ﷺ جاء بدينٍ جديد.

وكانتْ قبيلةُ (طَيِّئ) تعيشُ في منطقةِ (حائل) شمالَ نجد، حولَ جبَلَيْ (أجأ وسَلْمى) المعروفَيْن هناك.

وكانَ يخشى أنْ يُوَجِّهَ الرسولُ ﷺ جيشاً لحربِ قومِه (طَيِّئ)، ويَعْلَمُ أنّه لا طاقةَ له بمواجهةِ المسلمين، ولذلك جعلَ إبلَه جاهزةً ليهربَ عليهما إلى بلادِ الشام.

وفي شهرِ ربيعِ الآخر من السنةِ التاسعةِ للهجرة جَهَّزَ رسولُ الله ﷺ سريةً

مكوَّنةً من مئةٍ وخمسينَ مجاهداً، وأمَّرَ عليهم عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه، وأَمَرَهُ بالتوجُّهِ إلى (طَيِّئ).

عدي يهرب من جيش الرسول ﷺ:

قال عديٌّ رضي الله عنه عن هروبِه إلى الشام: ما رجلٌ من العربِ كان أَشَدَّ كراهيـةً لرسولِ اللهِ ﷺ منّي.. أنـا امرؤٌ شريفٌ، وكنتُ نصرانياً أسيرُ في قومي بالمرْباع [يأخُذُ ربعَ غنائمِهم لأنّه زعيمُهم] فكنتُ في نفسي على دين، وكنتُ مَلِكاً في قومي، لِما كانَ يُصْنَعُ بي..

فلما سمعتُ برسولِ الله ﷺ كرهْتُه، فقلتُ لغلامٍ لي كان يرعى إبلي: اعْدُدْ لي من إبلي جِمالاً سِماناً، فاحْبِسْها قريباً منّي، فإذا سمعْتَ بجيشٍ لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذنّي..

فأتاني ذاتَ غداةٍ فقال لي: ما كنتَ صانعاً إذ غشيَتْكَ خيلُ محمدٍ فاصْنَعْه الآن، فإني قد رأيتُ رايات، فلما سألْتُ عنها قالوا: هذه جيوشُ محمد!.

فقلتُ: قَرِّبْ لي جِمالي، فَقَرَّبَها، وحملْتُ عليها أهلي وولدي، ولحقْتُ بأهلِ ديني النصارى في الشام، وخَلَّفْتُ ابنةَ حاتم.

ولما هربَ عديُّ بنُ حاتم بأَهْلِه إلى الشام وصلَ المجاهدون طيِّئ، وهَزَموا أهْلَها، وأخذوا كثيراً من الأسرى، واستولوا على الغنائم، وعادوا بكلِّ ذلك إلى المدينة.

وُضِعَ الأسرى في حظيرةٍ بجانبِ المسجدِ، وكان من بينهم (سَفَّانةُ بنتُ حاتم) أُختُ عَدِيّ، وكانت امرأةً فصيحةً جزلةً عاقلة.

مَرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بالأسْرَى، فوقَفَتْ له سَفَّانةُ بنتُ حاتم تكلِّمُه، وقالَتْ له: يا رسولَ الله! هَلَكَ الوالد، وغابَ الوافد، فامْنُنْ عَلَيَّ، مَنَّ اللهُ عليك!.

قالَ لها: «مَنْ وافِدُكِ؟».

قالتْ له: عَدِيُّ بنُ حاتم!.

قالَ لها: «ذلك الفارُّ من اللهِ ورسولِه!».

فمضى ﷺ وتركَها . . وفي اليومِ التالي، مَرَّ بها، وكلَّمَتْه بنفسِ الكلام، وردَّ عليها بنفسِ الردِّ.

وفي اليومِ الثالث قالَ لها بعد ما كلَّمَتْه: «قد مَنَنْتُ عليك، لكن لا تَعْجَلي بالخروجِ حتّى تَجِدي مَنْ هو ثقةٌ مِنْ قومِك، ليبلغَكِ بلادَكِ».

وبعد أيامٍ جاءَ وفدٌ من بليٍّ أو قَضاعَة، فقالَتْ سَفَّانة للرسولِ ﷺ: يا رسولَ الله! قَدِمَ وفدٌ من قومي، لي فيهم ثقةٌ وبلاغ!.

فكساها رسولُ اللهِ ﷺ، وأعطاها مالاً ونفقةً وراحلة. . وخرجَتْ مع القوم، حتى وَصَلَتْ أخاها عَدِيَّ بنَ حاتم في الشام!.

وقفَتْ سَفَّانَةُ على أَخيها عَدِيٍّ ولامَتْه ووَبَّخَتْه، وقالَتْ له: أنتَ القاطعُ الظالم، احتملْتَ أهلَكَ وولَدَكَ، وتركْتَ عورَتَك بقيةَ والدِك!.

قالَ لها: يا أُخيَّة! لا تَقولي إلاّ خيراً، لقد صنعْتُ ما ذَكَرْتِ، وواللهِ ما لي من عُذْر!.

اعترفَ عَدِيٌّ لأُختِه بخطئِه، حيثُ لم يأْخُذْها معه عندما هَرَب، مما أوقعَها في الأَسْر، ثم دعَتْه أُخْتُه للقدومِ إلى المدينة، والوفودِ على رسولِ الله ﷺ، لأنّه يُقدِّرُ الرجال.

عدي عند رسولِ الله ﷺ في المدينة:

قَدِمَ عدي المدينة، ولما وَصَلَها توجَّهَ للرسولِ ﷺ، الذي كان في المسجد، وكان عَدِيٌّ يضعُ في عنقِه صليباً من فضَّة.

ولما دخلَ المسجدَ سمعَ رسولَ الله ﷺ يتلو قولَه تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١].

أخبرَ اللهُ أنَّ اليهودَ والنصارى اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم، والمسيحَ ابنَ مريم أرباباً من دونِ الله.

ولم يَفْهَمْ عَدِيٌّ لما سمعَ الآيةَ كيفَ اتّخذوهم أرباباً، وكيفَ عَبَدوهم، لذلك حملَ العبادةَ على الصلاة، وأنهم صَلَّوا لأحبارِهم ورهبانِهم!.

ولذلك اعترضَ على رسولِ اللهِ ﷺ، قائلاً: واللهِ ما عَبَدْناهم.

فوضَّحَ له الرسولُ ﷺ معنى العبادة، وأنها هنا تعني الطاعةَ والاتّباع، وقال له: «لقد أَحَلُّوا لهم الحرام، وحَرَّموا عليهم الحلال، فاتَّبَعوهم فتلكَ عبادتُهم لهم!».

فسألَه الرسولُ ﷺ عن اسمِه قائلاً: «مَن الرجل؟».

قال: عَدِيُّ بنُ حاتم!.

قال: «الفارُّ من اللهِ ورسولِه!».

ثم طرحَ الرسولُ ﷺ عليه بعضَ الأسئلةِ التقريرية، ليؤَثِّرَ في قلبِه، ويُقرِّبَه إلى الإسلام.

قالَ له: «يا عَدِيَّ بنَ حاتم! ما أَفرَّكَ؟ أَفرَّكَ أنْ يُقال: لا إلـهَ إلاّ الله؟ فهلْ مِنْ إلـهٍ إلاّ الله؟.

يا عَدِيّ: ما أَفرَّكَ؟ أفـرَّكَ أنْ يُقال: اللهُ أكبر؟ وهل شيءٌ أكبرُ من الله؟».

فتأثَّرَ عديٌّ بكلامِ الرسولِ ﷺ، وأُعجِبَ بشخصيتِه وكرمِه.

عدي في بيت رسول الله ﷺ:

ثم دعا الرسولُ ﷺ عَدِيّاً ليكونَ ضيْفَه، فأَخَذَ بيدِه، وخَرَجا من المسجد، متوجِّهَيْن إلى البيت.

وفي الطريقِ اعترَضَتْ امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرةٌ رسولَ اللهِ ﷺ، واستوقَفَتْه تسألُه، فوقَفَ لها رسولُ اللهِ ﷺ، وأوقفَ معه ضيفه. وطالَتْ وقفَتُها مع الرسولِ ﷺ، وهو يكلِّمُها بأناةٍ وسَعَةِ صَدْر.. وأُعجِبَ عديٌّ بتواضعِ الرسولِ ﷺ، ورحمتِه بأُمَّتِه. وقارَنَ بين هذا الموقفِ منه وبين ما يعرفُه من ظلمِ وتجبُّرِ وتكبُّرِ الملوك، الذين يَعتبرونَ أنفسهم آلِهة، ويَستَعْبِدونَ شعوبَهم لهم.

قال: فقلتُ في نفسي: واللهِ ما هذا بملِك!.

ثم دخلا بيتَ النبيِّ ﷺ.. ونظرَ عديٌّ في متاعِ البيت، فلم يجدْ فيهِ شيئاً يَرُدُّ البَصَر.. كان غرفةً صغيرة، أرضُها تراب، وليس على الأرضِ إلاّ وسادةٌ صغيرةٌ بالية، حَشْوُها ليف!.

دفعَ الرسولُ ﷺ الوسادةَ الباليةَ إلى ضيْفِه ليجلسَ عليها! أينَ سيجلسُ الرسول ﷺ؟.

لم يقبَلْها عَدِيٌّ لنفسِه، أنْ يجلسَ هو على الوسادة، ويجلسَ رسولُ الله ﷺ على الأرض، لذلك أعادَها، ولكنَّ الرسولَ ﷺ أَمَرَهُ أنْ يَجلسَ عليها، لأنّه ضيف، وإكرامُ الضيفِ واجب!.

جلسَ عَدِيٌّ على الوسادة، وجلسَ الرسولُ ﷺ أمامَه على الأرض!. وقارنَ عَدِيٌّ بين هذا الموقفِ من رسولِ الله ﷺ، وبينَ مواقفِ الملوكِ المتكبِّرة، وقالَ في نفسِه: واللهِ ما هذا بملِك!.

تأثَّرَ عديٌّ كثيراً بتواضُعِ الرسولِ ﷺ، وبساطةِ عيشِه، وزهْدِه في الدنيا، وعَرَفَ أنَّه لو كان طالبَ زعامةٍ لما كانَتْ حياتُه بهذه البساطة، ولما كان بهذا التواضُع. ثم إنَّه كريم، يُقَدِّرُ الآخرين ويُكرِمُهم، فقد أكرمَ أُخْتَه سَفَّانةَ ووَصَلَها وأَنفقَ عليها، وها هو يكرمُه هو! وبذلك صارَ عديٌّ قريباً من الإسلام!.

لكنْ هناكَ أشياء يفكِّرُ فيها عديّ، تُبعدُه عن الإسلام، فصارَ بَيْنَ شَدٍّ وجَذب، أشياءُ تُبْعِدُه، ومواقفُ الرسولِ ﷺ تُقَرِّبُه!!.

ولمحَ رسولُ اللهِ ﷺ ما يَجولُ في نفسِ عَدِيٍّ من وساوسَ وخواطر، وعرفَ الأشياءَ التي تحولُ بينَه وبينَ الإسلام.

الحوار بين رسولِ الله ﷺ وعدي بن حاتم:

وجرى حوارٌ بينَ رسولِ الله ﷺ وبينَ عَدِيٍّ بنِ حاتم.

قالَ له رسولُ الله ﷺ: «يا عَدِيّ! أَسْلِمْ، تَسْلَم!».

قال عَدِيّ: إنّي على دين!.

قال: «أنا أعلمُ بدينِكَ منك!».

فتعجَّبَ عَدِيّ وقال: أنتَ أعلمُ بديني منّي؟.

فقال ﷺ: «نعم. ألستَ من الرّكوسيّة؟ وأنتَ تأكلُ مِرْباعَ قومِك؟؟».

والركوسيَّةُ فرقةٌ من فِرَقِ النصارى، والمرباعُ ربعُ الغنائم، كان عَدِيٌّ يأْكُلُه

بدونِ وجْهِ حقّ، لأنَّه زعيمُ قومِه.

أجابَ عَدِيٌّ على السؤالِ قائلاً: بلى.

فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ: «فإنَّ هذا لا يحلُّ لكَ في دينك!».

قال عَديّ: نعم.

فوجئ عديٌّ بمعرفةِ الرسولِ ﷺ الدقيقة، وإذا به ـ كما قال ـ أعلمُ بدينِ عَدِيٍّ منه! فمنْ أينَ له بهذه المعلومات؟.

ولذلك علّقَ عدي على ذلك قائلاً: لم يَعْدُ أنْ قالَها فتواضَعْتُ لها!.

الرسول ﷺ يعد عدياً ثلاثة وعود:

ثم فاجأ رسولُ اللهِ ﷺ عَدِيّاً مفاجأةً أُخرى، بأَنْ أَخْبَرَهُ أنّه يَعلمُ ما يَدورُ في رأْسِه من خواطِر، وأزالَ له أسبابَ تَرَدُّدِه، وقَدَّمَ له وعوداً صادقةً حولَ مستقبلِ الإسلام.

قالَ له: «يا عَدِيّ! أنا أعلمُ ما يمنعُكَ من الدخولِ في الإسلام!.

يمنعُكَ من الدخولِ في الإسلام، ما تراهُ من فَقْرِ المسلمين وغِنى أعدائِهم!

يا عَدِيّ! واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر، حتى يَفيضَ المالُ بينَ أيدي المسلمين حتى لا يَقبلَه أحَد!».

ثم قالَ له: «يا عَدِيّ! أنا أعلمُ ما الذي يَمنَعُكَ من الدخولِ في الإسلام!.

يمنَعُكَ من الدخولِ في الإسلام ما تراهُ من قِلّةِ المسلمين وكثرةِ عدوّهم!.

يا عَدِيّ: هل رأيتَ الحيرة؟».

قالَ عدي: سمعتُ بها ولم أَرَها.

قال: «واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمْرَ حتى تسيرَ الظعينةُ [وهي المرأة على ناقتِها] من الحيرةِ إلى البيتِ الحرام، لتطوفَ به، ليس معَها أَحَد، لا تَخافُ أَحداً إلاّ الله!».

قالَ عديّ: فقلتُ في نفسي: أَيْنَ دُعّارُ طَيِّئٍ، الذين قَطَعوا الطريقَ وقَتَلوا الناس؟.

ثم قال له: «يا عَدِيّ! أنا أعلمُ ما الذي يمنَعُكَ من الإسلام! .

يمنعُكَ من الإسلامِ ما تراهُ من وُجودِ الملك والسلطان بأيْدي أعدائِهم! واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمْرَ حتى تُفْتَحَ قصورُ كسرى، وتكون كنوزُه للمسلمين!».

فاستغربَ عَدِيّ، وكأنَّه ظنَّ أنَّ الرسولَ ﷺ يعني حاكِماً صغيراً، وليس كسرى ملكَ الفرس، حاكمَ أقوى دولةٍ في ذلك الزمان! .

فاستوضحَ من الرسولِ ﷺ قائلاً: كسرى بنُ هُرْمُز؟ .

فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ: «نعم.. كسرى بنُ هُرْمُز!».

فاقتنعَ عَدِيٌّ بالإسلام، وأيقنَ أنَّ محمداً هو رسول الله ﷺ. فنَطَقَ بالشهادَتَيْن، ودخلَ في دينِ الله، وهو ما زالَ في بيتِ رسولِ الله ﷺ، ففرحَ الرسولُ ﷺ بإسلامِه كثيراً.

وأحسنَ عَدِيُّ بنُ حاتمٍ رضي الله عنه صحبةَ رسولِ الله ﷺ.

لقد وعدَ رسولُ اللهِ ﷺ عَدِيَّ بنَ حاتم رضي الله عنه ثلاثةَ وعود:

الأول: وَعَدَهُ بانتصارِ الإسلامِ وانتشارِه، وفتْحِ بلادِ فارس، وتمكينِ الإسلام فيها، وهزيمةِ الفرس، أقوى دولةٍ في ذلك الوقت، ودخولِ المسلمينَ قصورَ كسرى بن هُرْمُز، وأَخْذِهم كنوزَه وأموالَه، وإنفاقِها في سبيلِ الله.

الثاني: وَعَدَه بإزالةِ أسبابِ الخطرِ والخَوف، واستتبابِ الأمنِ والأمان، بحيثُ ينتقلُ المسلمونَ بين مختلفِ المناطق بأمان.. وكانتْ أكثرُ الطرقِ خَطَراً طريقُ العراقِ ـ مكة، وكان الذين يَسيرونَ فيها لا يَأْمَنونَ على أنفسِهم وأموالِهم وأهلِيهم، لسيطرةِ قُطَّاعِ الطرقِ عليها، واعتدائِهم على كُلِّ مَنْ يسلكونها.

وَعَدَ الرسولُ ﷺ عَدِياً رضي الله عنه أنْ تسيرَ المرأةُ وحيدة، تركبُ ناقتَها، وتخرجُ من الحيرة، متوجِّهةً إلى البيتِ الحرام لتطوفَ به، وهي آمِنَةٌ على نفسِها وعرضِها ومالِها، لا تخافُ سَلْباً ولا نَهْباً ولا عُدْواناً.

الثالث: وَعَدَهُ بزوالِ حالةِ الفقرِ والحاجةِ التي يَعيشُها المسلمون، بحيثُ تَحُلُّ محلَّها حالةُ الغنى، إذ سيكثرُ ويَفيضُ المالُ بينَ أيدي المسلمين، وعندما

يَبْحَثونَ عن فقيرٍ يُنفقونَ عليه لا يجدونَه، وعندما يُعرَضُ المالُ عليهم لا يقبلُه أَحَد، لما هم فيه من غِنى وثراء!.

ومن المعلومِ: أنَّ الرسولَ ﷺ لا يقولُ هذا الكلامَ من عندِه، وإنما بوحيٍ من الله، أوحى به إليه، وبَشَّرَه بمستقبلِ الإسلامِ المشرق!!.

عدي بن حاتم يخبر عن تحقق تلك الوعود:

وكان عَدِيٌّ رضي اللهُ عنه على يقينٍ تامٍّ أنَّ هذه الوعودَ النبويةَ الثلاثةَ ستتحقّق.

ولقد امتدَّتْ بعدِيٍّ بنِ حاتم رضي اللهُ عنه الحياة، وكانَ من قادةِ الفتحِ على جبهةِ العراق، حيثُ كان أحدَ أركانِ حربِ الجيشِ المجاهد الذي انتصرَ في معركةِ القادسية، وسارَ به سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه حتى دخلَ المدائن.

وشاهدَ القائدُ المجاهدُ عديُّ بنُ حاتم رضي اللهُ عنه المسلمينَ يدخلونَ قُصورَ كسرى، ويأْخذونَ كنوزَه وأموالَه.. عندَ ذلك تذكَّرَ عَدِيٌّ وعْدَ الرسولِ ﷺ، الذي قطعَه له قبلَ حوالي سبعِ سنوات، فحمدَ اللهَ وشَكَرَه.

وبعدَ فتحِ العراقِ زالَ الخطر، وقُضِيَ على قُطّاعِ الطرق، وصارت الطُّرُقُ آمنة، يَقْطَعُها المسلمونَ بأمان، ويتنقّلونَ بين مختلفِ البلادِ والأقطار.. ورأى عَدِيٌّ امرأةً على ناقتِها، متوجِّهَةً من الحيرةِ إلى البيتِ الحرام.. فتذكَّرَ وعْدَ الرسولِ ﷺ الثاني، فحمدَ اللهَ وشَكَرَه.

وجلسَ في مجلسٍ ضمَّ عدداً من المسلمين، فذكرَ لهم الوعودَ الثلاثةَ التي وعدَه بها رسولُ اللهِ ﷺ.

وكان مما قالَه لهم: لقد وَعَدَني رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثةَ وعود، وقد تحقّقَ وَعْدان منهما كما وَعَد.

وَعَدني بفتْحِ قصورِ كسرى وأَخْذِ كنوزِه، وقد شاركْتُ في ذلك.. ووَعَدَني أَنْ تسيرَ الظعينةُ من الحيرةِ إلى البيتِ الحرام لا تخافُ أَحداً إلا الله، وقد رأَيْتُ ذلك.

ووالله سوفَ يكونُ الثالثُ كما وَعَدَ، حيثُ سيَفيضُ المالُ بين أيدي المسلمين، حتى لا يقبَلَه أحد!.

وقد تحقَّقَ الوعدُ الثالثُ بعدَ وفاةِ عَدِيٍّ بن حاتمٍ رضي الله عنه، وقد كانت وفاتُه في الكوفةِ في السنةِ السابعةِ والستين للهجرة، أثناء خلافةِ عبد اللهِ بن الزبير رضي الله عنه، بعد أنْ عاشَ مئةً وعشرين سنة، رضي الله عنه. [عدي بن حاتم الطائي، لمحيي الدين مستو، ص٦٠ ـ ٧٥].

* * *



الفهرس

القسم الأول

بين يدي الوعود القرآنية

القسم الثاني

الوعود القرآنية في السور المكية

القسم الثالث

الوعود القرآنية في السور المدنية

الخاتمة

من وعود رسول الله ﷺ

* * *

كتب صدرت من سلسلة (من كنوز القرآن)

١ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٢ ـ في ظلال الإيمان.
٣ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
٤ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
٥ ـ مع قصص السابقين في القرآن.
٦ ـ لطائف قرآنية.
٧ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٨ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.
٩ ـ عتاب الرسول ﷺ في القرآن: تحليل وتوجيه.
١٠ ـ الأعلام الأعجمية في القرآن: تفسير وبيان.
١١ ـ وعود القرآن بالتمكين للإسلام.

* * *

كتب صدرت للمؤلف مرتبة وفق صدورها

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي .

٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب .

٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب .

٤ ـ مدخل إلى ظلال القرآن .

٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن .

٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان .

٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن .

٨ ـ في ظلال الإيمان .

٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن .

١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات .

١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن .

١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن .

١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر .

١٤ ـ إسرائيليات معاصرة .

١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد .

١٦ ـ لطائف قرآنية .

١٧ ـ هذا القرآن .

١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية .

١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد .

٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن .

٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.

٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.

٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة.

٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧.

٢٥ ـ الرسول المبلّغ: صلى الله عليه وسلم.

٢٦ ـ القصص القرآني: ١ ـ ٤.

٢٧ ـ تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس.

٢٨ ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.

٢٩ ـ القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية.

٣٠ ـ سيد قطب: الأديب الناقد والداعية المجاهد.

٣١ ـ صور من جهاد الصحابة.

٣٢ ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني.

٣٣ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.

٣٤ ـ سعد بن أبي وقاص: الداعية المجاهد القائد.

٣٥ ـ الحرب الأمريكية بمنظار سيد قطب.

٣٦ ـ سيرة آدم عليه السلام.

٣٧ ـ بين الإسلام الرباني والإسلام الأمريكاني.

٣٨ ـ حديث القرآن عن التوراة.

٣٩ ـ عتاب الرسول ﷺ في القرآن: تحليل وتوجيه.

٤٠ ـ الأعلام الأعجمية في القرآن: تفسير وبيان.

٤١ ـ وعود القرآن بالتمكين للإسلام.

* * *